وزارة الثقافة والشباب والترفيه
اللجنة الثقافية المحلية
هرقلة


مركز سرسينا
للبحوث في الجزر المتوسطية
صفاقس - قرقنة


لمحات من تاريخ
هرقلة



تنسيق
عبد الحميد الفهري

سلسلة ضفاف متوسطية : الكتاب الثاني.





تم طبع هذا الكتاب بدعم من :

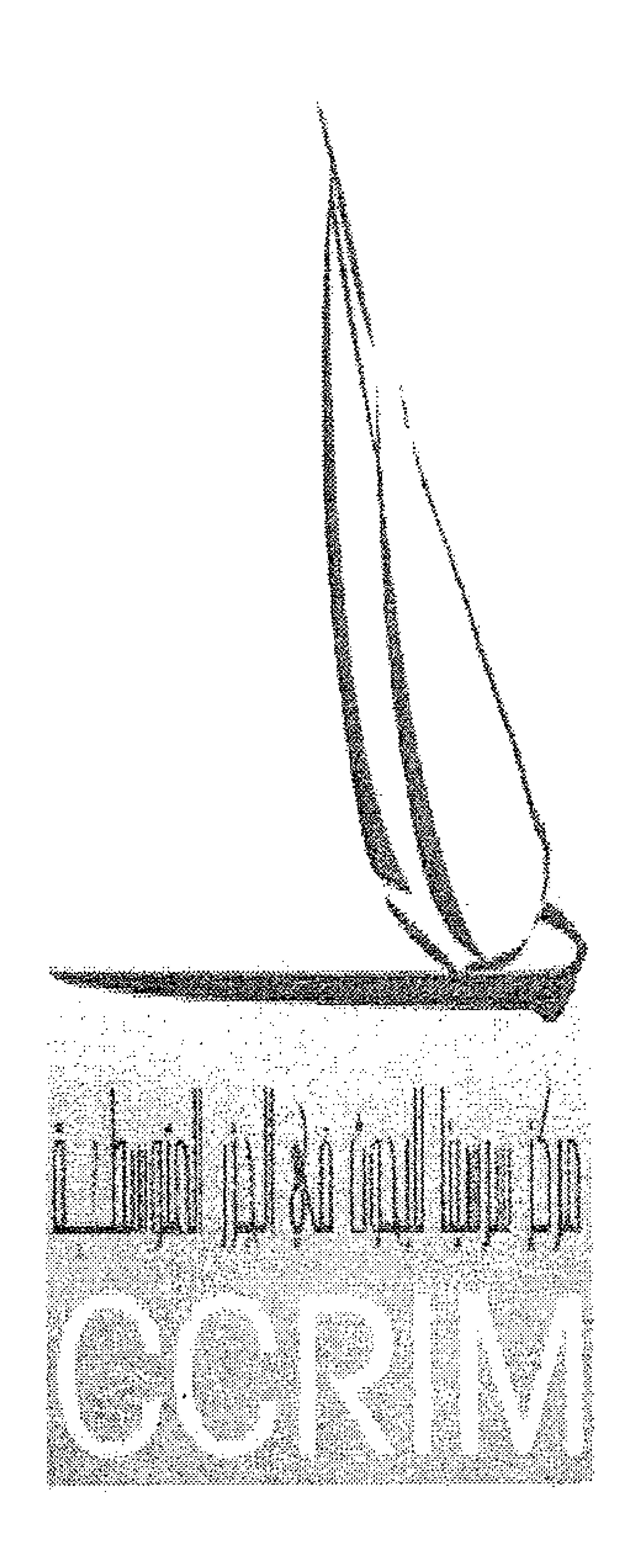


شركة الفرج للتجهيز الطبي ش م م

Société EL FARAJ Médical Equipement S.A.R.L

VENTE MATERIEL MEDICAL

BP N° 32 4000 SOUSSE – TUNISIE – Tel : (216) 73 273 153 – Fax : 73 243 692
e-mail . faradj medical@planet.tn

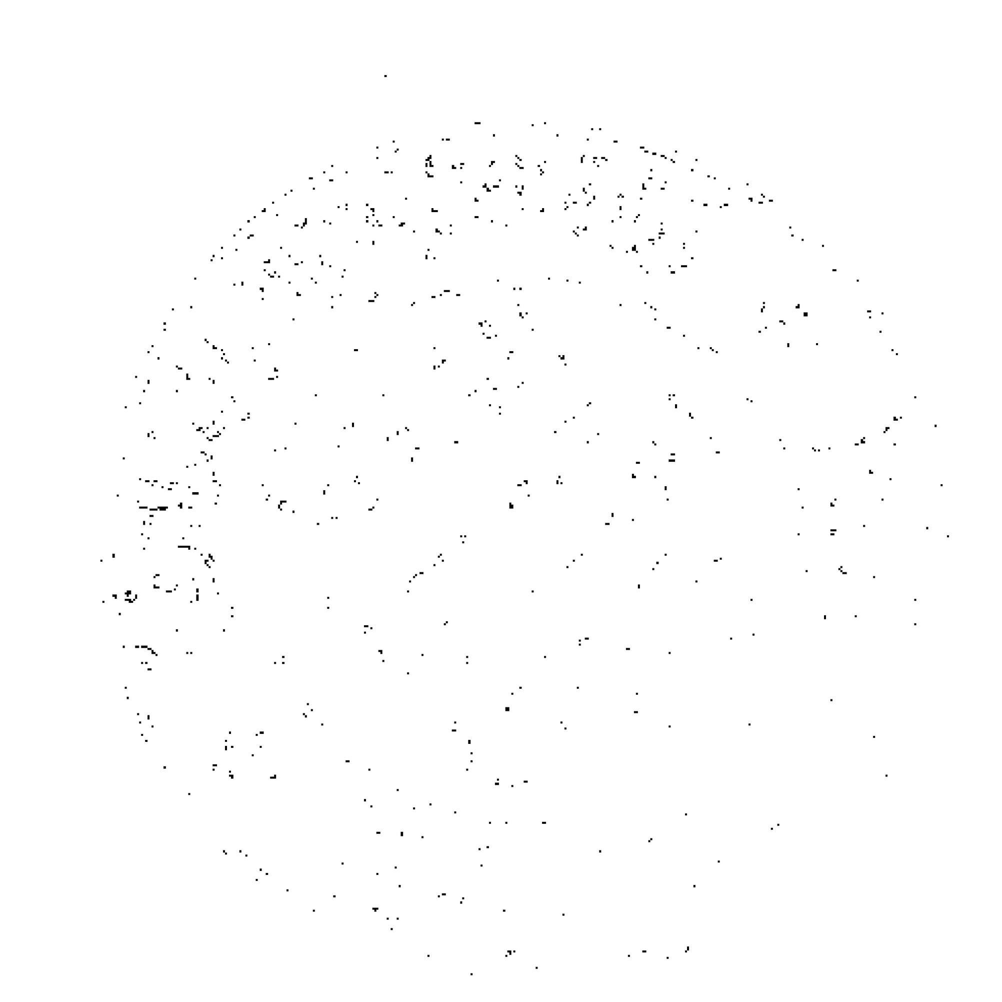


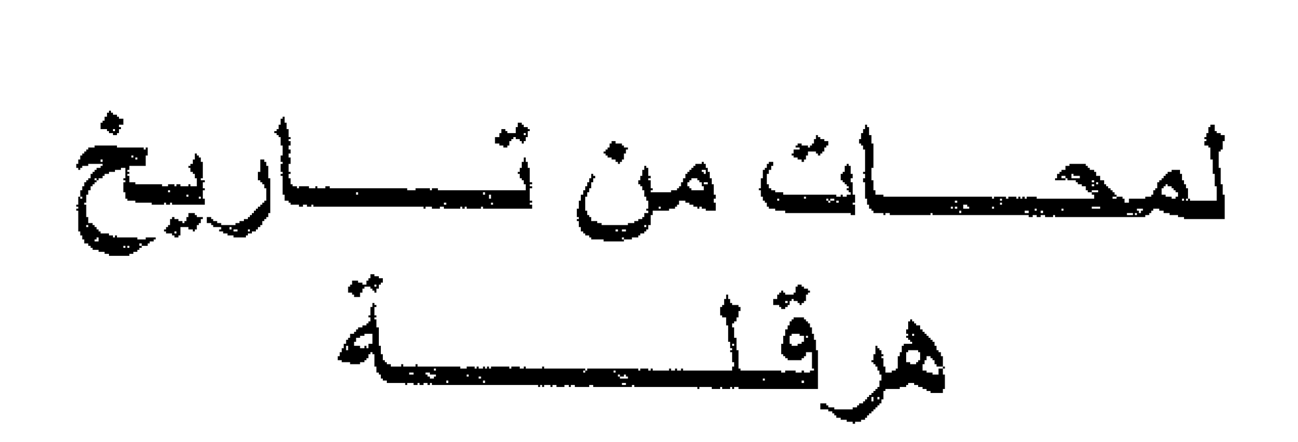
تم إعداد هذا الكتاب وأشرف على طبعه
مركز سرسينا للبحوث في الجزر المتوسطية
بتكليف من اللجنة الثقافية المحلية بهرقلة

الهاتف والفاكس بصفاقس: 74.279623
الهاتف والفاكس بقرقنة : 74.481188

وزارة الثقافة
اللّجنة الثقافية المحلية
هرقلة

مركز سرسينا للبحوث
في الجزر المتوسطية
قرقنة





لمحات من تاريخ هرقلة

ندوة علمية:
شبه جزيرة هرقلة عبر التاريخ،28- 29 أفريل 2001

تنسيق

عبد الحميد الفهري

سلسلة ضفاف متوسطية : الكتاب الثاني. سبتمبر 2002
حولية علمية محكمة تهتمّ بتاريخ وحضارة الجزر المتوسطية.

العنوان.............: لمحات من تاريخ هرقلة
تأليف..............: جماعي : أعمال ندوة علمية بهرقلة
يومي28 و29 أفريل2001
الإشراف...........: عبدالحميد الفهري
مراجعة...........: مبروك الباهي
الطبعة ....: الأولى سبتمبر 2002
صورة الغلاف.....: منظر طبيعي من هرقلة
طباعة ....: مطبعة دار المعارف بسوسة
تصميم الغلاف....: ثامر الجموسي
الترقيم الدولي....: 9973-41-668-6

إهداء

إلى الوشم المنحوت على جبين

الأمهات

وذراع الأباء، يذكر من نسي الماضي القريب

أن هرقلة

لم تصمد وتستمر فيها أيام النسائم

الخالدة إلا بما سكبه هؤلاء الأبرار

على أرضها من عرق

لا يجف

أبدا.

ع.الفهري



شكـــــــــر

مثلت ندوة "هرقلة عبر التاريخ " التي نسْعدُ بنشرها تحت عنوان " لمحات من تاريخ هرقلة " حدثا ثقافيّا بارزا وفريدا من نوعه في ذاكرة المدينة. هذا وقد انعقدت الندوة أيام 28 و 29 أفريل 2001 بمشاركة ثلـّة من الأساتذة الجامعيين والمختصين من المعهد الوطني للتراث بتونس، فتناولوا بالدّرس مختلف أوجه الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية منذ عصور ما قبل التاريخ إلى وقتنا الراهن. ونظرا لأهميّة هذه التظاهرة فقد رأت اللجنة الثقافية تدوين مواد المداخلات في هذا الكتاب حتى يكون وثيقة علمية ومرجعا تاريخيا للأجيال القادمة.

لقد رأينا أنّه من أوكد واجباتنا المحافظة على ذاكرة هرقلة الجماعية. هرقلة أرض الزيتونة التي لا ينطفىء إخضرارها والبحر الذي لا يتعب من ذرّ زرقته على الأفق الرحب. هرقلة مصدر الحنين والأحلام والآمال هذه الربوع الحُبلى بالإرث الإنسانيّ في أسمى معانيه. فنحن نعتقد أنّ هذا الإصدار الذي ننجزه بالتعاون مع مركز سرسينا للبحوث في الجزر المتوسطية المهتم بالجزر وأشباه الجزر على غرار هرقلة هو بداية لعمل ثقافي هادف نتمنى له التواصل والدعم.

وبمناسبة صدور هذا الكتاب نتوجه بالشكر العميم إلى الأساتذة المساهمين في ظهور هذا المولود الفكري . كما نتقدم بجزيل الشكر إلى كلّ من ساعدنا على إنجاز هذا العمل وأخصّ بالذكر معتمدية هرقلة والمجلس البلدي ودار الثقافة والمؤسسات الصناعية والتجارية التي مدّت لنا يد العون والدعم الوفير.

ختاما تحيّة ودّ وإمتنان إلى كافة الإطارات والمواطنين من داخل المدينة وخارجها الذين توافدوا على مختلف الجلسات العلمية وشاركوا في النقاش وأثروا الحوار.

الأستاذ العروسي كشيش
رئيس اللجنة الثقافية المحلية بهرقلة

قائمة في أعضاء اللجنة الثقافية المحلية بهرقلة لسنتي 2001 و 2002

العروسي كشيش : رئيس

الحبيب كشيش : كاتب عام

عبد الرزاق مراد : أمين مال

الأعضاء

الحبيب صمودة

رمضان الكامل

أنجود لامين

صلاح عيسى

سعيد كشيش

عمران بن عبد القادر

المقداد كشيش

ثريا كشيش

سميرة الكامل

سالم الكناني

منية بوسعدية

هندة بن رمضان

وليد كشيش

إيمان بن عبد القادر

عبد المجيد المسعودي

أنور الكامل

الفهرس



تقديــــــــم

هرقلة بالساحل التونسي ومثيلاتها بنفس التسميّة ببلاد اليونان منذ القدم، ذكرها أبو القاسم عبيدالله بن خرداذبة مرارا في المسالك والممالك. والفارق في مصدر التسمية معروف فالمدينة الإغريقية هي نسبة لهرقل الأعظم أمبراطور الدنيا وسيّد البرور والبحار سبعة قرون خلت قبل ميلاد ابن مريم، بينما يرجع إسم هرقلة في تونس إلى عائلة رومانية كانت من المقدرة بمكان أنْ أنشأت مخازنها الخاصّة لحفظ القموح والمتاجرة بها مع سائر بلاد المتوسط.

يومها كان الساحل "البيزاسيوم" بأكمله أحد مطامير روما. فهذه الربوع كانت في الأصل مستقرا للأمازيغ تطالها يد أعدائها الذين يغزونها برّا وبحرا فتعلّمت مع مرّ القرون إقامة أشكال من التعامل مع المقبلين عليها بما يحوّلهم من مغتصبين وغزاة إلى متعاملين يشدّهم ما في هذه الربوع من الخير الوفير إلى حدّ الإنصهار في فضاءها الرحب. لذلك تحوّل اليونانيون ثم الفينيقيون من تجّار يتنافسون من أجل إقامة المحطّات والمصارف إلى ذوات محليّين.

فكلّ قرى البيزاسيوم القريبة والبعيدة من هرقلة تحتضن في جوفها وعلى أديمها بصمات البربر الأصليين من قبور وحوانيت ومعابد وهي في الغالب مصحوبة بأثر الفكر والثقافة الشرقية سواء منها اليوناني في ملامح هيلينستية أو أنماط أخرى لا تقف عند حصر من التأثيرات الفينيقية وهو كما نعلم مصدر تسميّة كامل هذا الطور من المثاقفة بين المشرق والمغرب بالحضارة البونيّة.

غير أنّه لا يمكن أن ننكر أنّ هرقلة قد عرفت قمّة مجدها وإتساعها خلال الفترة الرومانية. ورغم أنّ المدينة لم تبلغ في هذه المرحلة درجة مدينة حرة كسرسينا بقرقنة ومنياكس بجربة وتكباي

(قابس) بخليج السّرت فقد كانت على ما يبدو حلقة من حلقات التواصل بين الشمال والجنوب لا سيّما في ميدان الملاحة والتجارة البحرية. فقد تعدّدت الاشارات في المصادر القديمة فيما توفر لدينا من مادة مكتوبة، لكن المفارقة تكمن في ضعف الأثر المعماري للحقبة الرومانية بهرقلة محليا. فالبصمات الأركيولوجية لهذه الفترة وإن كانت هائلة في ريف الساحل كما بيّنه بن بعزيز في طيّات هذا الكتاب فإنها محدودة جدّا في محيط هرقلة وتكاد لا تذكر.

ولا نخال الباحثين مختلفين على شدّة أثر الفعل التهديمي للغزوات العربية على هرقلة وهذا ليس سرّا فالعرب دمّروا وخرّبوا عندما كانوا بصدد تنفيذ مشروعهم الأكبر وهو نشر الدعوة وإقامة دولة الدين الجديد. لكن من التعسف على التاريخ أن نرتب العرب في نفس منزلة الوندال على غرار ما أوحت به" فيليكس فور" في مقال حول معمار هرقلة، فعمدنا إلى التعقيب عليه لنقدم وجهة نظرنا في هذا السياق بالذات. فالوندال نفّذوا فعلا في البلاد أساليب شتّى من التعنيف لكن من موقع اليأس وفقدان الرجاء في الاستقرار بعد أن رفضهم أهل البلاد دينا ودولة. وفي المقابل فرض العرب فعلا سلطانهم بحدّ السيف في كلّ مرة تنعدم فيها سبل التواصل السلمي. لكن سرعان ما أعاد االمسلمون بعث نواة لمدينة جديدة فاستعادت هرقلة الحياة مع سائر الإمارات الإسلامية سواء تحت سلطان العرب أو تحت القوى البربرية في صراعات كبرى بين الملل والفرق والنحل وهذه مسألة أخرى.

إننا لا نستطيع إدعاء إستعادة هرقلة لنفس دورها في الساحل كما كان سلفا مع الرومان. لقد فقد "البيزاسيوم" بأكمله دوره الريادي في التجارة البحرية لصالح "هدريميتوم" أو حضرموت بالنطق العربي والتي صارت سوسة بعد الفتح وهي من المدن القلائل التي حافظت على مكانتها في الفترة الاسلامية بنفس المقام الذي كانت عليه مع الحضارات القديمة وربّما أكثر. لذلك ستستقطب سوسة الإسلامية كلّ الأنشطة الأساسية خاصّة ما اتصل منها بالتجارة برّا وبحرا لتسير بشيء من البطء نحو كسب ملامح المدينة الكاملة، في حين اكتفت هرقلة بالتشبّع بمحيطها الريفي متأثرة شديد التأثر بوطأة القبائل الرّحل وشبه الرّحل المتردّدين على مجالها مرّة طوعا ومرارا غزاة يعمدون عند انتشار القحط إلى سلب العباد ونهب البلاد لا يسلم من "غاراتهم" لا الأخضر ولا اليابس.

لكلّ هذه الأسباب وغيرها ستدخل هرقلة العصور الحديثة قرية متعبة تعيش على وقعين مختلفين: من جهة وقع أهل الديار والإستقرار الذين كانوا يعمّرون مجالها البرّي معتمدين إقتصاد العود الثابت، الزيتونة قبل كل شيء، وما يضاف إليها من شجر مثمر هو فائض لا يتيسّر في كلّ الحالات، أمّا تربية الماشية فهي "حركة وبركة" يعتمدها الأغنياء والفقراء كلّ حسب حاله. كما كانت هرقلة تلتفت إلى محيطها البحري بكثير من الإحتشام فلم يعد لدى أهلها نفس البحر الذي يربطهم بعالم المتوسط القريب والبعيد فاكتفى ربّانها بصيد ما تيسّر من أسماكه دون أن يحمّلوا هذا البحر أعباء كلّ رزقهم.

أمّا الوقع الثاني فيمثله أهل الخيام والترحال الذين يجوبون الساحل فيتردّدون على هرقلة بأغنامهم وإبلهم محمّلين في المواسم الطيّبة بالتمر والقمح والشعير وذلك حسب المواطن التي كانوا يقصدونها ويقدّمون إليها خدماتهم "خمّاسة" و"ربّاعة" و"مثالثية"... وذلك حسب نظام المحاصصة المتّفق عليه. وقد تكفّل مبروك الباهي بتفجير خفايا هذا الصراع و تعميق أبعاده.

وفي هذه المعادلة تكبر هرقلة وتغوص بكلّ كيانها في حضارة العرب والإسلام السنّي، لذلك سيعلو هذه الربوة المطلّة على البحر "أولياء الرحمان" وهم من أصول مرابطية ومن ذوي البرّ الذين كانوا يساعدون الناس أيام القحط والعسر بمالهم وعلمهم: "سيدي بومنديل" و"سيدي سالم" و"سيدي الخافي"... وغيرهم كثر. مقامات كانت بالأمس القريب تستقطب العامّة والخاصّة لإقامة الحفلات الدينية حسب الأعراف كالطريقة التيجانية والطريقة العيساوية والطريقة القادرية فلم تكن هرقلة تخلو من "خرجات" و"حضرات" وأفراح وعادات وانغماس في التراث إلى حدّ النّخاع. لكن لم تغادر القرية أبدا مذهبها السنّي والمالكي بالتحديد بل ذهب أهلها إلى حدّ التنكيل بالخوارج عندما قصدوا ربوعهم لاجئين وقد أحاط المنصوري هذه المسألة بما تستحق من النظر. ولا شكّ أنّ الذاكرة الجماعية إحتفظت بالبعض من هذا المخزون المتشبث بالفكر السني لذلك بيّن حسين بالحاج يوسف من خلال ما قدّمه حول عادات هرقلة أنّه من أوكد واجبات الأنتروبولوجيين السعي لجمع هذه الأناشيد وتصاميم الرقصات وطقوس الحفلات المنقبية وذلك قبل فوات الأوان.

إنّ أوّل ما دعانا لتحويل مواد المداخلات إلى كتاب هو قلّة الدراسات حول هرقلة من العهد القديم إلى الفترة المعاصرة وهذا لا يتماشى مع تاريخها الطويل فعندما كانت هذه المدينة مرفأ إقتصاديا ومحطّة في المتوسط تلعب دور خطّ الوصل بين البيزاسيوم وخليج السرت من جهة ثمّ بين إفريقية وروما من جهة ثانية، لم يكن كثير من مدن الساحل التي تتباهى عليها اليوم بنشاطها الاقتصادي الحديث قد ولدت بعد، ولا نسمّي أيّ إقليم من الأقاليم التي دخلت إلى الحضارة بعد هرقلة بقرون عديدة فأهل التاريخ يتعمدون إخفاء الأسرار عندما تكون محرجة...

لكن هذا لا يعني أنّ هرقلة بلا أثر مدوّن على الإطلاق فقد بيّن رقية والمكني عند فحصهما للوثائق الرسمية المتوفرة حول هرقلة في الأرشيف الوطني خلال الفترتين الحديثة والمعاصرة أنّ هناك مادّة ذات بال حول التجارة والمضاربات العقارية وشؤون القضاء والتدخل البايليكي في يوميات المنطقة خاصة ما اتصل بالسياسة الضرائبية ويوميات الهرقلي في علاقته بالسلطة البايليكية.

لقد تعرضت هرقلة للتنكيل في عهود عجز السلطة المركزية على الذود عن حمى أهلها لذلك تجتمع الدراسات حول الفترتين الحديثة والمعاصرة لتقديم صفحات ذات بال تكشف النقاب عن أيام هرقلة العصيبة وهي تتلوّى منهكة لشدّة كبح مسيرتها لإستعادة توازنها وذلك لثقل النظام الضرائبي البايليكي على قدرتها المبتورة من الأساس .

وفي الدراسات المعروضة في فصول هذا الكتاب نسعى أيضا إلى إبراز المراحل التي ظهرت فيها تراتبية إجتماعية جديدة لا تتعارض في الظاهر مع ما كان سائدا، لكن لا يجدر بنا أن ننكر أنّ التكافوء الإجتماعي وتقارب مستوى الأسر قد بقي قريبا من صورته في العهود السالفة وهذه الظاهرة لا تمنع بروز بعض مظاهر التفوّق لدى بعض العائلات، غير أن ذلك لم يُبرز في القرية علامات الثراء الفاحش فأصحاب المال والأعمال يهاجرون إلى حيث يتيسّر لهم إستغلال أموالهم... فهرقلة بلاد تقلبت من إقتصاد التبادل السلعي والمقايضة إلى إقتصاد المال والسوق المحلية المحدودة، فقد ظهرت فيئات إجتماعية جديدة أقرّها التمدرس الناجح واللّجوء إلى الهجرة وحب المغامرة لكن القرية إحتضنت كلّ هذه الشرائح من عامة الفلاحين والبحارة والحرفيين إلى خاصة العلماء والفقهاء والمترفين،

في سنفونية إجتماعية لم تركع إلى قيم التراتب المادي وبقيت أصيلة تستند إلى العمق العائلي والأسري وهو ما يجعل العقلية الجماعية لأهل هرقلة أقرب للقرية منها إلى المدينة رغم بعض الظواهر العابرة.

غير أنّ نمط معمار هرقلة لم يكن سابقا يوحي بتمايز إجتماعي فالبيت الهرقلي كان من الخارج على الأقل متقاربا بين محدودي الامكانات وأصحاب الجاه والمال لذلك حاولت " فيليكس فور" أن تجد في مقالها حول المعمار الهرقلي أجوبة لربط المظاهر المعمارية والعمرانية بالتحوّل الذي حصل في العقليات وأثره على المظهر الجمالي للقرية وبالتالي بروز أنماط من التفاوت تترجمه الأوضاع المعمارية في الوقت الراهن وأبدت رأيها فيما يهمّ دور التاريخ العربي الاسلامي في تشكيل شخصية هرقلة المعمارية والتراثية وقد نبّهنا في كلّ مرة إلى الحدود التي تجاوزتها الكاتبة في حقّ حضارتنا سواء عن قصد أو عن غير قصد .

وبعد، فهل يمكن أن تكون هناك دراسة في حقل التاريخ الجهوي والمحلي بمثل العمق والدقة التي تقدمها هرقلة، فصفحات هذا الكتاب تختزل فترة تبدأ من ما قبل التاريخ وتمتد إلى الوقت الراهن. فمثلما يبيّن الكتاب أن هرقلة تلبّي حاجتنا في الاطّلاع على تطوّر الواقع الاجتماعي في المناطق الساحلية الحضرية يؤكد أيضا أنّ هرقلة كانت زاخرة بالمواد التي تسمح للباحث التعرف على أقاليم سطو البداوة. ففضاء هذه القرية-المدينة كان مُرتهنا لقوتين متناقضتين: قوّة جذب نحو الاستقرار وإتباع الحضر في عاداتهم وسائر يومياتهم. وقوّة أخرى لا نعتبرها مضادة إنّما هي مختلفة تجرّها إلى البداوة ونمط العيش والرتيب. والطريف أنّ هرقلة لم تتنكّر لأيّ قطب من القطبين فكلّ علامات شخصيتها تدلك على إستبطانها أفضل ما في طباع البدو من كرم وبساطة وحبّ التكافل والحنين لهذه الأرض بيسرها وعسرها مع أنفة وعزّة من جهة، ومن جهة ثانية طباع الحضر والمتجسمة أساسا في سرعة كسب ملكات الحرف والأعمال الدقيقة فهل ينكر الساحل كله فضل أهالي هرقلة في تحويل الحلفاء إلى "شوامي" لتصفية زيوتهم في المعاصر. ثمّ من لا يعرف كفاءة الهرقلي في سرعة تعلم الحرف التي تتطلب الذكاء

والتدبير ومرونة توظيف الأنامل تماما مثل أهل الجزر وهذا ليس غريبا فهرقلة قريبة في رسمها الجغرافي من شبه جزيرة، لكنها في طباعها وخصالها الإنسانية أقرب إلى الجزر بالذات فأنثروبولوجيا وأنتوغرافيا واجتماعيا نكاد نجزم بأن هرقلة أقرب لأهل قرقنة من الساحل كلّه سواء في نمط المعمار التقليدي ثمّ وخاصة في عقلية الجمع بين طباع البرّ وأخلاق البحر، يُقرّب بينهم صبرهم على قساوة الطبيعة وتدبّرهم شؤونهم بمهاراتهم اليدوية وخبراتهم الموروثة. فكأنهم توائم صنعهم عن بعد تحدّي شضف العيش مع حبّ للحياة والأنفة والكبرياء.

عبدالحميد الفهري

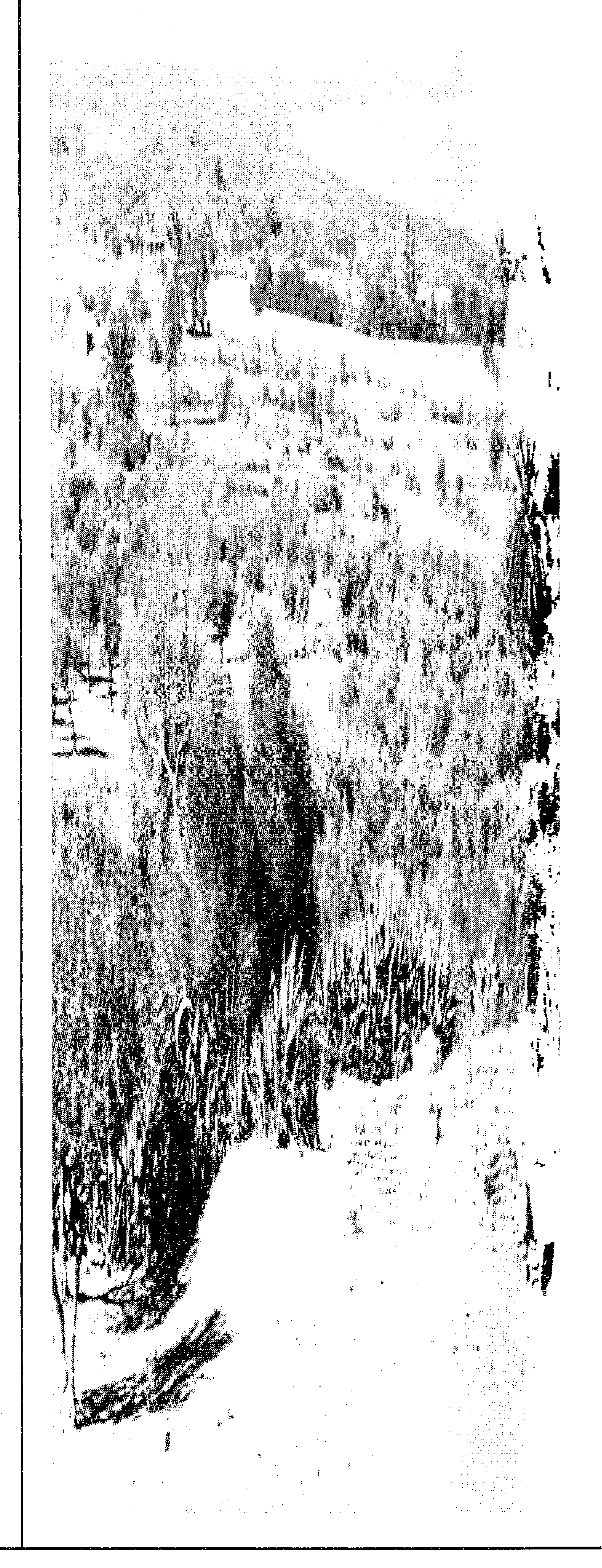
مدير مركز سرسنا

للبحوث في الجزر المتوسطية

قرقنة

الصادق بن بعزيز

الريف بالساحل التونسي خلال الفترة القديمة





الصادق بن بعزيز (المعهد الوطني للآثار)

الريف بالساحل التونسي خلال الفترة القديمة

مقدمـــة :

تعدّ الدراسات التي إعتنت بالوسط الريفي بالولايات الإفريقية خلال الفترة القديمة قليلة وقد تمّ الإعتماد على المصادر الأدبية في إنجازها أمّا الأثرية فلم يقع الإعتماد منها سوى على النقائش باستثناء دراسة Pécheur Canonge عن الفسيفساء وبعض الدراسات التي أعدت حول الساحل إنطلاقا من المسح العقاري Centuriation عبر الصّور الجويّة. وهدفنا من هذه الدراسة هو عرض للمواقع الريفية بالساحل في العصور القديمة التي أفرزتها نتائج المسح الأثري وقد قام فريق الخارطة الوطنية للمواقع الأثرية والمعالم التاريخية بمسح ستّ خرائط، ثلاث منها بالساحل الشمالي:

سيدي بوعلي- سوسة- سيدي الهاني.

وثلاثة بالساحل الجنوبي :

المهدية و واد شريطة والحنشة.

إنطلاقا من المعطيات المتوفرة ونتائج البحوث السابقة، سنحاول جمع المعلومات المتعلقة بالوسط الريفي والضيعات المتواجدة بها وسنعمل على تقييم ذلك من الناحية الكميّة والنوعية والإجابة على الأسئلة التالية: هل توجد خصوصية للضيعات القديمة بالساحل؟ وهل هناك خصوصيات بمختلف جهات الساحل؟ ثمّ نعمد إلى مقارنتها بالجهات الأخرى.

ماهي المعطيات المتوفرة بعد المسح الذي قام به فريق الخارطة الأثرية؟

إنّ استقراء ما توصّل إليه الباحثون وحصيلة المسح الذي وقع إنجازه لا يمكن إعتماده إلاّ في إطار دراسة مقارنة. من ذلك يمكنّنا مقارنة الساحل كوحدة جغرافية بالوطن القبلي رغم إختلاف الجهتين في بعض الأوجه كالمساحة والمناخ مثلا، لكن هذه المقارنة ستكشف خصوصيات الريف الساحلي في الفترة القديمة:

ا- كثافة الاستيطان بالريف الساحلي القديم:

نلاحظ إعتمادا على هذا الجدول أنّ الساحل يحتوي على 2970 موقعا تقريبا على مساحة لا تفوق 8000 كلم2. أمّا الوطن القبلي فيحتوي على 1639 موقعا تقريبا على مساحة لا تفوق 3000 كلم2.

بالاعتماد على هذين الرقمين نلاحظ أنّ كثافة الاستيطان بالساحل أقلّ من الوطن القبلي ولكن يجب توضيح ذلك حيث أنّ الجهة تعدّ مساحات هامّة من السباخ ولذلك فإنّ 8000 كلم2 ليست المساحة الحقيقية التي يجب إعتمادها للمقارنة مع الوطن القبلي.

كما يجب إعادة النّظر في حقيقة عدد المواقع أو تقبله باحتراز لأنّ الساحل جهة تفتقر إلى النتوءات أي أنّ الحجارة الصلبة الصالحة للبناء مفقودة نسبيا لهذا من المؤكد أن القدامى إلتجؤوا إلى استعمال المواد الليّنة وأقاموا المباني بالطوب وما شابهه وبالتالي يصعب حاليا العثورعليها، ورغم ذلك فإنّنا نعتقد انطلاقامن هذه المعطيات المتوفرة حاليا أنّ جهة الساحل هي من الجهات التي عرفت كثافة استيطان هامة بالريف خلال الفترة القديمة مثلما هو شأن الوطن القبلي.

إنطلاقا من هذه المعطيات الرقمية يمكن استنتاج بعض التنوّع في كثافة الاستيطان داخل الساحل نفسه خاصّة بين جنوبه وشماله ونلتمس ذلك من خلال الأرقام المتعلقة بخرائط واد شريطة وسيدي بوعلي أو الحنشة وسيدي الهاني أو لجم والمهدية. ونلاحظ خلال هذه المقارنات أنّ الكثافة الاستطانية بالريف تنحدر إلى الضعف من خارطة إلى أخرى. ويمكن تفسير ذلك من خلال المعطيات الجغرافية واختلاف التربة بين جهة أخرى واختلاف التركيبة الاجتماعية (لأسباب تاريخية).

إنّ نسبة هامة من أراضي الساحل تحتوي على السباخ أو الأراضي ذات الملوحة العالية غير الصالحة للزراعة ممّا سيقلّص من المساحات الزراعية، هذا إضافة إلى تواجد المدن الكبرى وقرب الواجهة البحرية اللّذين استقطبا السكّان. كلّ هذه العوامل كانت وراء الفراغ النسبي للمواقع الريفية حول المدن انطلاقا من مدينة سوسة وصولا إلى مدينة الجم، فالأطلس الأثري لم يسجل سوى 58 موقعا.

1- الانتشار الجغرافي للمواقع الجغرافية:

تتنوّع المواقع الأثرية بصفة متساوية على كافة جهات الساحل باستثناء خارطتي سيدي الهاني وواد شريطة حيث تتقلص بهما المواقع الأثرية نظرا لوجود السباخ، وتتكاثر بالشمال والجنوب بكلّ من سيدي بوعلي وسبخة الكلبية شمالا والحنشة والمهدية وجبنيانة جنوبا. وتقلّ الكثافة بالوسط بخارطة سوسة والجم حيث تتواجد أكبر المدن القديمة بالجهة، فهل يعود ذلك إلى تواجد الضيعات الكبرى أم إلى وجود نمط خاص للحياة القروية بدل الحياة الريفية أم إلى نوعية التربة غير الصالحة للزراعة أم إلى انعدام الحجارة لتشييد البنايات؟ فقد وصلتنا بعض الأسماء القديمة بأربع خرائط

سيدي بوعلي :

Fundus - Ulisipira- Horrea Caelea

خارطة سوسة:

Gurza - Ruspina – Hadremetum

خارطة المهدية:

Aggar - Tegea

خارطة سيدي الهاني:

Vicus Augusti

بناء على هذه المعطيات وهذا العدد الضئيل للمدن يمكن إعتبار جهة الساحل منطقة ريفية بالأساس ويتجلى ذلك خاصة إذا ما إذا ما قارنّاها بجهة سراورتان مثلا حيث توجد6 مدن بخارطة واحدة.

يمكن أن يعود هذا النّقص العددي للمدن المعروفة بالساحل التي هي الآن منطقة ذات كثافة عالية من المدن والقرى إلى إندثار المباني نظرا لهشاشة مواد البناء أو إلى طمس الكثير منها تحت المدن والقرى الحالية ورغم كلّ هذه الاحترازات فإنّ الساحل القديم هو منطقة ريفية بالأساس فقد أحصينا 1315 موقعا بالنسبة لستّ خرائط التي تمّ بها الجرد.

2- حجـم المواقع الريفية بالساحل القديـــــم :

في الحقيقة يصعب تحديد مساحة المواقع بدقة إذا إعتمدنا على المسح الأثري بالطرق المتّبعة حاليا ومردّ ذلك أنّ التعرّف على وجود موقع أثري قديم يحصل غالبا بالتنبيه لوجود إختلاف في لون التربة

التي تحتوي على الجير أو الرّماد فتكوّن بقعة داكنة أو فاتحة بحسب لون التربة الأصلية وكذلك بإنتشار الخزف القديم واللقي الأخرى إن وجدت ومجمل هذه المعطيات إنّما تدلّ على المساحة المستعملة بالضيعة وليس على الحجم الحقيقي للبنايات التي كانت تحتويها.

لهذا فإنّ مساحة كبيرة لموقع لا تدلّ بالتأكيد أنّ الضيعة كانت كبيرة بل ربّما تكون موقعا لضيعتين متلاصقتين أو ربّما لنفس الضيعة بناءات في عهود مختلفة وربّما هناك بناءات إنهارت وعوّضتها أخرى ممّا خلّف اليوم موقعا بمساحة كبيرة. لذلك فإنّ المعلومات التي جمعها الباحثون الذين قاموا بعمليّة المسح تختلف نسبيا من باحث إلى آخر ممّا يجعل المقارنة صعبة نوعا ما.

رغم كلّ هاته الإحترازات يمكن الإعتماد على ما توفّر من معطيات واستقراءها والخروج بالإستنتاجات التالية، ويمكن تصنيف المواقع على النحو التالي:

المواقع التي تمسح :

1000م2

بين 1000 و5000 م2 وهك.

بين 5000 م2 وهك

بين 1,5 هك و 5هك

أكبر من 5هك

وحسب هذا التصنيف حصلنا على المعطيات التالية :

65 موقعا 1000 م2

152 موقعا 5000 م2

85 موقعا 1 هك

32 موقعا1,5 هك

76 موقعا أكبر من 1,5هك

92 موقعا بين 1,5 و 5 هك

ونستخلص من ذلك أنّ 3/5 من المواقع تمسح أقلّ من هكتار واحد و2/5 من المواقع تفوق مساحتها الهكتار، 300 موقع أقلّ من هكتار و200 موقع أكبر من هكتار.

هذه المعطيات مجمّعة لم تكشف عن حقيقة الأمور لكن إذا تناولنا بالتحليل كلّ خريطة بصفة مستقلة عن البقية نلاحظ أنّ المواقع ذات الحجم الصغير تمثّل الأغلبيّة.

بخارطة سيدي الهاني والحنشة وسوسة لا تُعتبر 5000م2 مساحة كبيرة لموقع أثريّ لأنّ المباني في الضيعات تكون متباعدة نسبيا فالمساكن تبعد نسبيا عن المباني الخاصة بالملحقات أو الخاصة بالحيوانات مثلا والمنشآت المائية كذلك. وفي حالة خراب تنتشر اللّقيّ على مساحة أكبر من المساحة الأصليّة عبر الزمن. إنّ وجود هذه المنشآت الصغيرة نسبيا بخريطة سوسة أو سيدي الهاني أو الحنشة يمكن أن يعود إلى أسباب عدّة، فبالنسبة لورقة سوسة يمكن أن يعود ذلك إلى وجود مدينة كبيرة شدّت إليها الملاكين بينما يضمّ الريف منازل العمّال والمنشآت الاقتصادية للضيعة، أمّا بالنسبة لسيدي الهاني ربّما جعلت ملوحة التربة التي لا تصلح لغراسة الأشجار، منطقة فلاحية للزراعات الموسيمية. فهي منطقة فقيرة نسبيا لم تستجلب سوى صغار الفلاحين والذين كانت بناءاتهم بالمواد الهشة وصغيرة الحجم.

أمّا بالنسبة للحنشة فكثافة المواقع ذات الحجم الصغير يمكن أن يكون سببه إنتماء معظم أصحابها إلى الملاكين الصغار أي أنّ التركيبة الاجتماعية تختلف عن جهة سوسة مثلا.

إنّ تواضع هذه الضيعات تدعّمه نوعيّة مكوّناتها واللّقيّ المتواجدة بالموقع ونحن نعتقد أنّ معظمها مساكن متواضعة لصغار المزارعين، بعكس مواقع أو ضيعات جهتي سيدي بوعلي وواد شريطة حيث تتساوى الضيعات الكبيرة والصغيرة في العدد.

بالنسبة لجهة المهدية فالنسب تختلف، فلا نملك من تقديرات المساحة سوى ما يهمّ ثلث(1/3)المواقع، أمّا البقيّة فمن المرجح أنّها صغيرة المساحة. كما أنّ 18 موقع تفوق مساحتها الخمس هكتارات وهذا يدلّ على أنّ جهة المهدية تملك ريفا يختلف نسبيا عن بقيّة جهات الساحل في العصور القديمة. وتمثّل جهة واد شريطة نموذجا للريف الساحلي حيث وقع جمع معلومات عن مساحة 102 موقعا من 135 تتوزّع على النحو التالي:

20 موقعا ذات 5000 م2
25 موقعا ذات 1 هك
28 موقعا ذات 2 هك
25 موقعا تفوق مساحتها 5 هك.

أمّا بالنسبة لخارطة سيدي بوعلي فمساحة المواقع المتراوحة بين 1 هك و2 هك تمثل الأغلبية، ممّا يرجح أنّ معظم فلاحي هذه الجهة هم من الطبقة الميسورة، أي أنّها منطقة الضيعات الكبرى.

إجمالا فإنّ جهتي الساحل الشمالي والجنوبي لهما كثافة إستيطانية هامة، كما أنّ المؤسسات الريفية بها مختلفة الأحجام وهي تتميّز بقلة المدن الكبيرة وكثافة نسبية للقرى.

وفي خلاصة ما جاء في هذا القسم الأوّل من البحث نقول أنّه يمكن أن نعتبر الساحل جهة ريفية بالأساس كانت مؤسستها البلدية محدودة الانتشار، وربّما يعود ذلك للمسار التاريخي الخاص الذي عرفته حيث أنّ القرى القديمة بها تمتّعت طويلا بالاستقلال في العهد الروماني، فربّما اتجهت أغلب أنشطة الرّومان الذين استوطنوا بها للتجارة والابحار.

إنّ قلّة النقائش بالجهة تجعل كلّ التفاصيل موضع إفتراضات. وما يمكن إستنتاجه من خلال المسح الذي قام به فريق الخارطة الأثرية والخاص بحجم المواقع والضيعات بالريف الساحلي هو وجود الحجم الصغير والمتوسط والكبير، لكن تنقصنا معطيات عن جهات أخرى تمكننا من المقارنة وإدراك بعض خصوصيات الساحل ذاته والتنوع الذي يكتسبه ريفه. لكن انطلاقا من المعطيات المتوفرة حاليا يمكننا الآن برمجة أبحاث على قواعد علمية سليمة وذات مردودية مضمونة.

II- تنوع المواقع الأثريّة بالساحل:

بعد تقييم المواقع من حيث الحجم والمساحة يمكن أن نحلل محتوياتها التي تختلف من موقع إلى آخر فهناك :

- مواقع تحتوي على الخزف
- مواقع تحتوي على الخزف والحجارة العادية
- مواقع تحتوى على الخزف والحجارة المهدّمة
- مواقع تحتوى على الخزف وآثار الجدران
- مواقع تحتوى على بعض المباني منها الحمّامات والأحواض والبرك والصهاريج والأضرحة وبقايا الأفران وموضع النّفايات والقبور
- مواقع تحتوي على الفسيفساء والرخام وبالطبع القطع الهندسية

كلّ هذه المكوّنات مكّنتنا من تقديم نتائج حسب كلّ خارطة من خرائط الساحل من مجموع 1315 موقع وقع إحصاءها بالساحل 115 منها لا تحتوي إلاّ على الخزف، ممّا يؤكد أنّ 1/10 من البناءات الريفية شـُيّدت بالطوب دون سواه، وهذه الطريقة في البناء فرضتها طبيعة التضاريس ونوعيتها.

بخارطة سيدي الهاني لم نعثر على الحجارة المهندمة إلاّ بستة مواقع فقط، كمالا يحتوي 44 موقعا إلاّ على الخزف أي أنّ بناءات تلك المواقع هي من الطوب.

أمّا بالنسبة لجهة سيدي بوعلي فإنّ 151 موقعا بها حجارة طبيعية و 86 بها حجارة مهندمة و19 فقط تفتقر إلى الحجارة.

من خلال هذه المعطيات يمكننا أن نستنتج أنّ جزءا من البناءات الريفية شـُيّدتْ بالطوب أمّا الحجارة فقد أستعملت فقط بالأسس وبالتالي يملك الساحل خصوصية إذا ما قارنّاه بالشمال الغربي مثلا.

ويتميّز الساحل بتنوّع بين الجهات فنجد بسيدي بوعلي على سيبيل الذكر 237 موقعا تحتوي على الحجارة.

وربّما تعود هذه النسبة الهامة للمواقع التي تخلو من الحجارة عموما إلى كثافة حجم الحجارة وإعادة إستعمالها في صناعة الجير لقلّتها في الطبيعة.

1- الزخـــرف بالمواقع الريفـــية:

إذا كانت للمباني جدران متواضعة من حيث هشاشة مواد البناء فإنها كانت تحتوي على مكوّنات تؤكد الجمالية التي كانت عليها وبالتالي تثبت مدى ثراء ملكيتها حيث عثرنا على بقايا الرخام والفسيفساء بكميّات هامة.

2 - الرخـــــام:

عثرنا على الرخام بثلاث جهات:

16 موقعا بخارطة سوسة

11 موقعا بخارطة المهدية

14 موقعا بخارطة الحنشة

أمّا سيدي بوعلي وسيدي الهاني وواد شريطة فيوجد بها كميّات أقلّ من ذلك، وربّما يعود هذا لتواجدهم بعيدا نسبيا عن البحر أو إلى التطوّرات المختلفة التي شهدتها هذه المواقع طيلة الحقبات التاريخية المتتالية أو إلى المسالك التجارية لهذه المادة التي إرتبطت بالواجهة البحرية دون غيرها أو إلى إختلاف التركيبة الإجتماعية حيث أنّ المالكين بقوا في المدن الساحلية والمباني المتواجدة بالريف الخاصة بالعمّال والعبيد والطبقات السفلى من صغار الفلاحين.

ويوجد كذلك شقاف من الرخام ضعيفة السمك لأنّ أغلبها كان مستعملا لتبليط الأرضية (Opus sectilae)، وممّا يجلب الانتباه أنّه بالمواقع الأثرية بالشمال الغربي كجهة سراورتان مثلا لا يوجود بها الرخام على الإطلاق، وأحيانا لا نعثر على الرخام بمدن في قيمة Mididi، وبالتالي فإنّ وجود شقف رخام بموقع ريفي بالساحل يكتسي أهميّة كبرى، لكن تقديم التفسيرات الصحيحة والمقنعة عن هذه الظاهرة غير ممكن دون اللّجوء للحفريات الأثرية. فالمسح الأثري وحده غير قادر على تعميق البحث في هاته النقطة.

3- الفسيفساء:

يمثّل وجود قطع الفسيفساء بالريف الساحلي خاصيّة ثانية إذا قورنت بندرتها في الريف بالشمال وبداخل البلاد فمثلا بجهة قصر التليلي من معتمدية العيون قرب تالة لم نعثر إلاّ على بعض المكعبّات البيضاء الكبيرة الحجم الصالحة لتبليط أرضية بسيطة.

أمّا كلّ جهات الساحل فهي لا تخلو من آثار الفسيفساء فبجهة واد شريطة عثرنا على 15 موقعا بآثار فسيفساء ،وبسيدي بوعلي على11 مو قعا، و بسوسة على 10 مواقع وبالمهدية على 7 مواقع وبسيدي الهاني على 6 مواقع. وهذه الفسيفساء التي تمّ العثور عليها تتكوّن من أصناف متعددة منها المكعبات الكبيرة والصغيرة والملونة ونجدها على جدران أحواض الحمّامات الخاصة مثلا.

ويبرز تواجد الفسيفساء بكثافة ثراء الساحل وترتبه في المقام الأول لهذا النوع من التراث وتؤكد على الثراء الفلاحي لهذه الجهة وهو ما يبرهن عن قيام إقتصاد مزدهر في العصور القديمة، رغم أنّنا لا نعرف بوضوح الآن ركائز هذا الثراء الاقتصادي بهذه الجهة .

ومن خلال لقي الرخام والفسيفساء التي عثرنا عليها نتبيّن أنّ البناءات بالريف الساحلي فخمة فجدرانها ولئن بنيت في الأغلب بالطوب فقد كُسيتْ بالرخام وبلّطتْ أرضيتها بالفسيفساء.

III- مكوّنـــات المنشأة الريفــية بالساحــــل:

رغم السرعة التي أُنجز بها المسح الأثري الذي قمنا به فقد تمكنّا من التعرف على مكوّنات المنشأة الريفية الساحلية، فبحكم إنتشار البناءات في كلّ المواقع فلم نتمكّن من تحديد نوعيّتها بدقة دون حفريات خاصة حيث أنّ الجدران بُنيت بالطوب وانهارت وسُوّيت بالأرض، لكن يمكن أن نلاحظ وجودها من خلال الألوان المختلفة للتربة وإختلاطها بالجبس والجير ووجود الخزف.

أمّا البناءات التي شيّدت بالحجارة مثل الصهاريج والمواجل والحمّامات فقد صمدت وأمكن التعرف على الكثير منها. وإذا كانت الصهاريج والمواجل لا تمثّل خاصيّة تنفرد بها جهة دون غيرها فإنّ وجود الحمّامات يمثّل بحق إمتيازا مقارنة بالجهات الأخرى، فالأعمال التي شملت جهة قفصة وبنزرت والوطن القبلي والكاف والقصرين لم تمكنّا من الكشف عن بقايا حمّامات بالوسط الريفي إلاّ في حالات نادرة. وفي هذا الصدد تمّ إحصاء 62 معلما من هذا النوع بريف الساحل:

16 منها بجهة سيدي بوعلي
14 منها بجهة سوسة
11 منها بجهة واد شيطة
7 منها بجهة المهدية
11 منها بجهة الحنشة
و3 منها بسيدي الهاني

إنطلاقا من معطيات بسيطة كبقايا جدران حسنة الصنع أو جزء من قبو أو قطعة فسيفساء ملونة، نلاحظ أهميّة الموقع والثراء المادي لصاحبه ومدى تعلّقه بضيعته وهوما يبرز يسر أحوال كبار الفلاّحين بالساحل، وبالتالي إقتصادا مزدهرا في القديم.

إنّ كثافة تواجد الحمّامات بالريف تبرهن عن الإندماج الحضاري الذي بلغه أهالي الجهة في العصر الروماني، نظرا للأهمية التي يحظى بها هذا النوع من المنشآت في الحياة اليومية.

هل يمكن تفسير ضعف نسبة التمدّن بالساحل بكثافة الحمّامات بالوسط الريفي أي أنّ نمط الحياة بالمدن إنتقل بالساحل إلى الريف حيث أنّه غالبا لا يتناسب الحجم الكبير للحمام مع حجم الضيعة التابع لها. فهل يلعب الحمّام الخاص في هذه الحالة نفس دوره في المدينة أي أنّ إستعماله مشترك بين الأجوار والطبقة الدنيا بالريف وهو بذلك يقوم بربط العلاقات الاجتماعية.

إنّ وجود الحمّامات بنفس الكثافة يجلب الانتباه من حيث الاستعمال فالحمّامات تستهلك كميّة هامة من الحطب ممّا يستوجب وجود غابة كثيفة لتوفير هذه المادة، بمعنى أنه كانت بالساحل فلاحة أشجار هامّة توفّر الوقود الكافي لهذا النشاط.

1- المنشـآت المائية بالساحـل:

إنّ المنشأة المائية أو المعلم المائي لا يمكن أن يقام إلاّ من مواد صلبة، فجدرانها كثيفة وكتيمة، وهذه المعالم تمثّل جزءا هاما من المنشأة الريفية الساحلية،فهناك الأبار والصهاريج والخزّانات (مواجل وفستقيات).

إنّ الأمطار والتضاريس جعلت الساحل عموما يشكو من النقص في المياه ممّا فرض على متساكنيها إستنباط أشكال معمارية لتوفير الماء الضروري لحياتهم منذ العهد القديم.

ورغم أنّ المعطيات الصالحة للمقارنة بين جهات البلاد مفقودة حاليا يمكننا المقارنة بين أجزاء الساحل نفسه حيث نلاحظ بعض التفاوت، فهناك جهات بها منشآت أكثر من غيرها بالنسبة إلى عدد المواقع.

يوجد بسيدي الهاني 35 موقعا من 125 بها منشآت مائية أمّا بالحنشة فهناك 40 موقعا من 230.

في الحالات المثلى بالنسبة لمؤسسة ريفية بالساحل يتوفر صهريج لماء الشراب وبركة للأعمال اليومية والفلاحية وسقو الدواب.

كما أنّنا لم نلاحظ بجهة الساحل سوى 9 مواقع بها معلمين وهي بسيدي بوعلي و6 بخارطة سوسة و27 بالمهدية. ومن الأكيد أنّ المواقع التي بها معلمين هي أكثر ممّا أحصينا لأنه لا يمكن إحصاء المعالم المغمورة.

إنّ المعلم المائي موجود في الغالب بعيدا عن البناءات الأخرى بغرض المحافظة على نقاوة المياه في التلوث وهاته المعالم شهدت تنوعا كبيرا في أشكالها.

2- المدافــن :

لقد مكّننا المسح من إحصاء 106 مقبرة قديمة بالوسط الريفي تتوزّع على النحو التالي: سوسة12 – المهدية 9 – سيدي الهاني 22 – واد شريطة 28 – الحنشة 24 – سيدي بوعلي 8.

يصعب إكتشاف المدافن القديمة لإنعدام المعالم البارزة الدّالة على وجودها مثل الأضرحة، ولكن بما أنّ أغلب المقابر القديمة بالساحل وقع نبشها فقد أمكن التعرّف عليها وخاصة بعد ما أشار إليها الفلاّحون بالجهة.

هناك نوعان من المقابر: واحدة معزولة، وثانية مرتبطة بالمنشآت الريفية، فهل أنّ المقابرالمعزولة وجدت للاستعمال الجماعي؟ وهل أنّ الملاصقة منها للمنشآت الريفية هي ذات إستعمال عائلي؟

بواد شريطة تعرفنا على 10 أضرحة وكلّها موجودة بمواقع كبيرة تفوق مساحتها 4 هك.

إنّ الأضرحة قليلة بالساحل ويعود ذلك إلى ندرة المواد الصلبة لتشييدها. أمّا بالنسبة للعدد الهام للمقابر التي تمّ التعرّفُ عليها فسوف تُمكّن الباحثين من القيام بدراسات أكثر عمق على مراسم الدفن بالساحل في العهد القديم إذا توفرت الإمكانيات لذلك.

VI- الاقتصـــاد الســـاحلي :

من خلال المسح الذي قمنا به ونظرا لقلة المادة للقيام بتحليل للوضع الاقتصادي في العهد القديم بالساحل فيمكن حصرالمعطيات المتوفرة حاليا في ما يلي:

آثار لمسح العقاري بالريف
آثار معاصر الزيت
الخزف
السدود والحنايا والمقاطع والمواني

هذا وقد إهتمّ أطلس المسح العقاري بكامل الجهات وآخر دراسة في هذا الميدان قام بها الأستاذ Trousset أمّا بالنسبة للمسح الذي قامت به الخارطة الأثرية فقد مكّننا من توفير المعطيات حول المعاصر والخزف والمنشآت المائية.

1- الزيت والزيتون بالساحل:

إنّ تقييم غراسة الزيتون وصناعة الزيت بالساحل في العهد القديم ودراستهما تكتسي صعوبة كبيرة لندرة المعالم واللقي المتعلقة بها.

وإنطلاقا من نتائج المسح الذي قام به الفريق نلاحظ ندرة القطع الأثرية لمعاصر الزيتون لكنّ هذه الندرة ليست حجّة كافية لنفي وجود صناعة مزدهرة بالجهة، يمكن أنّها عرفت تقنيات مختلفة عن المألوف بالجهات الأخرى مثل المعاصر (بالبريمة). كما لا يمكن نفي زراعة الزيتون بالساحل لأنّ الصّور الجويّة سجّلت لنا آثار زراعات لأشجار المثمرة.

ويبدو رغم تشعبّ المسائل وندرة اللقي أنّ الساحل ليس أهمّ منطقة لإنتاج الزيت في التاريخ القديم بل تعود المكانة الأولى إلى جهة السباسب أي جهة سبيطلة والقصرين رغم أنّ هذه الزراعة قد تكون دخلت ونمت بالوطن القبلي والساحل منذ اللحضور الفينيقي لكن غابة الزيتون لم تبلغ الحدّ الذي بلغته داخل البلاد.

لقد أسفرت أعمال المسح على النتائج التالية:

الخارطة	المعاصر	المثقال
سيدي بوعلي	35	31
المهدية	2-3	؟
سيدي الهاني	؟	2
سوسة	2	9
الحنشة	5-6	3

ونؤكد أنّنا لم نعثر على أنماط المعاصر المتطورة على غرار ما تمّ العثور عليه في الشمال والوسط بداخل البلاد ممّا يدلّ على تواضع هذه الصناعة بهذه الجهة.

2- <u>الخزف</u> :

يعتبر الخزف الدليل الأساسي المعتمد في التعرّف على المواقع الأثرية القديمة ولكن بما أنّ فريق المسح لم يُكلفْ بدراسة تفصيلية للخزف فإنّ هذا التحليل يقتصر على المعلومات التي تحصلنا عليها بالنسبة للأفران ومصانع الفخار لانتشار هذه الصناعة بكامل جهات الساحل.

عدد الأفران بجهات الساحل:

سيدي بوعلي 2 - سوسة 4 - سيدي الهاني 4 منها 2 من الخزف و2 من الجير – الحنشة 21 منها 2 جير – واد شريط 8 – المهدية 7 .

هناك ما لايقلّ عن 46 فرن أي حوالي 50 موطن لصناعة الخزف بالجهة وكذلك قرابة10 أفران لصناعة الجير وصناعة بعض المعادن.

ومثلما لاحظنا بالنسبة للقطاعات الأخرى فإنّ الساحل يتمتع بخصوصية في ميدان صنع الخزف حيث أنّنا لم نلاحظ هذه الكثافة لأفران صنع الفخار إلاّ بالساحل خاصة بجنوبه، خرائط المهدية (7 أفران) واد شريطة (8أفران) والحنشة (21 فرن) وسوف تؤكد هذه الظاهرة أعمال المسح بالنسبة لبقيّة خرائط الساحل الجنوبي مثل خارطة الجم.

كما أنّنا لم نلاحظ أفران لصناعة الفخار بالوسط الريفي بكلّ من قفصة والوسط الغربي مثلما هو الحال بالساحل فهل أنّ صناعة الفخار صناعة ريفية وليست قروية؟ للأسف تنقصنا المعطيات لتأكيد هذه الظاهرة.

إنّ العدد الهام من الأفران سواء لصناعة الفخار أو الجير يؤكد توفّرالحطب بكميّات كافية وبالتالي وجود غابة هامة ويحيلنا ذلك على تأكيد غراسة الزيتون والأشجار المثمرة بالساحل القديم. ولكن لا يسمح المسح الأثري الذي قمنا به تناول الجوانب الاقتصادية المرتبطة بالأنشطة البحرية والمنشآت بصفة عامة.

الخلاصة:

كان الساحل في العهد القديم منطقة ريفية بالأساس حدّدت خصوصياته العوامل الطبيعية من مناخ وتضاريس، فقد كان الريف ذو كثافة عمرانية مرتفعة لكن هناك تفاوت بين أجزاءه وتنوع كبير بين واجهة البحرية والجهة الغربية وبين الشمال والجنوب والوسط.

كما نلاحظ أهمية المدن الكبرى مثل الجم وسوسة. أمّا المنشأة الريفية فهي غالبا ما تكون متواضعة في عمارتها إذ كانت الجدران تُشيّدُ بمواد هشّة لكنّها ذات أهمية قصوى من ناحية جمال الأرضيات، فالزينة والفسيفساء مثلا ذات أهمية بالغة.


ولا شكّ أنّ تواجد الرخام والحمّامات المهيّئة للأوساط الريفية بأعداد هامة تجلب الإنتباه فيكاد الساحل ينفرد بهذه الظاهرة.

إنّ المنشأة الريفية الساحلية هي مقرّ إقامة ومركز إنتاج فلاحي وحرفي، أهمّها أثريا صناعة الخزف إضافة إلى الفلاحة التي تحتلّ فيها الأشجار المثمرة المكانة الأولى.

الصادق بن بعزيز
(المعهد الوطني للآثار بتونس)

خير الدين العنابي

المسح الأثري بأرياف هرقلة





خيرالدين العنابي (المعهد الوطني للآثار بتونس)

المسح الأثري بأرياف هرقلة

تعود معلوماتنا الأثرية حول هرقلة إلى أواسط القرن التاسع عشر عندما زارها الأثريون الرحالة أمثال قيران GUERIN و تيسو TISSOT . ومع انتصاب الحماية الفرنسية انطلق مشروع إعداد الأطلس الأثري بالاعتماد على المسح الميداني الذي قام به الجيش الفرنسي وبإشراف علمي لأثريين فرنسيين و بالنسبة لمنطقة هرقلة فقد قامت الفرقة العسكرية بالمسح الأثري سنة 1892 بقيادة القبطان مورو MOREAU و تمكنت من حصر 24 موقعا أثريا. أما أطلس السنتورياسيون Centuriations الذي ظهر خلال النصف الأوّل من القرن العشرين فقد أوضح أن هناك نسيجان للتقسيمات الريفية باتجاهين مختلفين تتلاقى خطوط اتماسهما بمدينة هرقلة.

وبعد الاستقلال وعلى إثر اكتشافات عفوية جنوبي المدينة – قام المعهد القومي للآثار والفنون كما كان يسمى سابقا – بحفريات أثرية برزت من خلالها المخازن الساحلية للحبوب، والحي السكني، ثمّ في مرحلة تالية الكنيسة المسيحيّة. وقد تولى الأستاذ الطاهر غالية إعداد أطروحة حول هذه الكنيسة وفسيفسائها. ونشرها المعهد الوطني للتراث سنة 1998. وفي نطاق البرنامج المشترك التونسي الفرنسي لإعداد الأطلس التونسي لعصور ما قبل التاريخ تمّ سنة 1992 نشر الجزء الخاص بجهة سوسة والذي يغطي منطقة هرقلة، كما تولى مشروع الخارطة الوطنية للمواقع الأثرية والمعالم التاريخية مسح أثري لمواقع منطقة هرقلة سنة 1987 .

وأخيرا نذكر أن الفريق المشترك التونسي الفرنسي المكلف بدراسة السواحل التونسية قام بدراسة جغرافية، جيومرفولوجية وأثرية لسواحل هرقلة.

تقديم منـــــطقة هرقـلـة :

نقوم خلال هذه الدراسة بتقديم معلومات حول المواقع الأثرية الموجودة بشبه جزيرة هرقلة وهي منطقة طبيعية يحدّها شرقا البحر

وسبخة عسّة جريبة شمالا وسبخة حلق المجلّ غربا و جنوبا- ويبلغ العدد الجملي للمواقع التي تمّ حصرها 41 موقعا .

- هرقلة في عصور ما قبل التاريخ:

تفيد المعطيات المنشورة بأطلس ما قبل التاريخ وجود 8 مواقع ترجع إلى عصور ما قبل التاريخ أهمها:

* موقع بغابة المدفون حيث عثر على لقى شضايا من الصوّان.

* على طول 10 كم بالساحل الجنوبي لمدينة هرقلة توجد سلسلة من الرماديات تحتوي على عيّنات من الصوّان والرماد والحجارة والأصدفة. ويبلغ عرض أكبر الرماديات 10 أمتار وتحتوي على لقى أثرية هامّة من بينها قطع من بيض النعام .

* رمادية سبخة هرقلة- التي اكتشفها الدكتور قوبار GOBERT تعود إلى ما بين 5000 و 3000 سنة قبل الميلاد.

* رمادية بلاد بورمادة الموجودة جنوب غربي سبخة هرقلة وتمتاز بحجمها الكبير

- المواقع الأثرية القديمة بشبه جزيرة هرقلة :

في نطاق مشروع الخارطة الوطنية للمواقع الأثرية والمعالم التاريخية تمّ مسح ميداني لمنطقة شبه جزيرة هرقلة سنة 1987 ساعدني خلاله بالتداول الزملاء الآتي ذكرهم: الصادق بن بعزيز – المرحوم عزيز عنتيت- نايلية الورتاني – سمير عون الله والمرحوم نجيب البرتاجي .

تمكن هذا الفريق للمسح الأثري من ضبط أكثر من 30 موقعا. وتحتوي هذه المواقع على آثار اضمحل أغلبها، ولم تبق سوى بعض الأسس والجدران والصهاريج وكذلك اللقى المتكونة من الحجارة المصقولة أو المنقوشة وأجزاء من الأعمدة وحجارة صغيرة الحجم مبعثرة، إلى جانب أجزاء من الخزف القديم الفاخر والعادي والمعروف بالسجيل :

قائمة في المواقع الاثرية القديمة بهرقلة :

1 : برج المدفون : تابوتان وعمود.
2 : موقع مندرس (إضمحلت آثاره) به عدد من الحجارة الكبيرة الحجم والمنقوشة وقطع من خزف السجيل.

3 : موقع مندرس به حجارة مبعثرة، وعمود من المرمر وقطع من الخزف القديم .

4 : موقع مندرس به حجارة مبعثرة و قطع من الخزف القديم

5 : موقع مندرس وبه بعض الأسس.

6 : موقع مندرس به قطع من الخزف القديم

7 : موقع مندرس وتظهر به بعض الأسس.

8 : العقلات : موقع به أحواض- وجود خزف قديم.

9 : موقع به حوض مستطيل الشكل.

10 : موقع مندرس به قطع من الخزف القديم.

11 : موقع مندرس به قطع من الخزف القديم .

12 : موقع مندرس به قطع من الخزف القديم .

13 : موقع مندرس به قطع من الخزف القديم وحجارة مبعثرة.

14 : العمبرية: آثار لحمام من العهد الروماني وعلى مقربة منه يوجد معلم سفلي مربع الشكل يحتوي على عشرات من الثقب وكانت تحوي صناديق لرماد الموتى بعد حرقهم وتعرف هذه المعالم باسم كلومباريوم ? COLOMBARIUM

15 : مدينة هرقلة HORREA CAELIA : توجد أنقاذ المدينة الرومانية تحت النسيج العمراني لمدينة هرقلة الحالية وتظهر على سفح المدينة المطل على البحر آثار لجدران وصهاريج وما لا يقلّ على 7 قنوات لصرف المياه ومن بينها قناة يبلغ علوّها الداخلي 1.30م وعرضها 0.55م .

16 : منزل روماني مبلط بالفسيفساء وبه حوض إستحمام .

17 : الموقع الأثري الموجود جنوبي مدينة هرقلة ويتكون من جزئين (من الجنوب إلى الشمال)

أ – مخازن الحبوب وتكسو أرضية بعضها فسيفساء ملونة .

ب – حي سكني به عدّة منازل و أحواض مزخرفة بفسيفساء.

وقد تعاقبت على هذا الحي فترات لاحقة مقبرة.

18 : صهريج.

19 : موقع مندرس.

20 : موقع به معلم مهدّم قد يكون حماما قديما.

21 : هنشير القلة: موقع به صهريج وحوض يحمل بقايا فسيفساء.
22 : موقع مندرس به بعض الأسس: حجارة مبعثرة وخزف قديم.
23 : مزار سيدي الخافي: موجود فوق موقع مندرس به بقايا حجارة وقطع من الخزف القديم.
24 : صهريج.
25 : موقع به بناية مستطيلة الشكل بها حائط نصف دائري.
26 : موقع مندرس به خزف السجّيل.
27 : موقع مندرس به حجارة مبعثرة وقطع من الخزف القديم.
28 : موقع مندرس به حجارة مبعثرة وقطع من الخزف القديم.
29 : موقع مندرس به حجارة مبعثرة، بعض القطع من الخزف القديم ومثقال لمعصرة زيت من العهد الروماني.
30 : صهريج من العهد الحسيني المشيّد ضمن سلسلة الصهاريج الموجودة بطريق مرور المحلة.
31 : الكنيسة المسيحية القديمة بها حوض تعميد ومجموعة من الفسيفساء.
32 : طريق رومانية كانت بارزة إلى أوائل القرن العشرين ثمّ غمرتها رواسب سبخة حلق المجّل.

- **الخلاصة :**

تعتبر أعمال المسح الأثري ذات أهمية قصوى خاصّة في عصرنا الراهن حيث تتغيّر الأوضاع بالأرياف بنسق سريع من جراء النمو العمراني وتطوّر البنية التحتية من طرقات ومسالك وموانيء، ومشاريع سياحية وصناعية وتعصير الفلاحة إلخ ... وقد ينجر عن إنجاز بعض هذه المشاريع ضياع و إتلاف بعض المواقع والمعالم الأثرية ، فتبقى إذن نتائج عمليات المسح الأثري المصادر الأثرية الوحيدة لدينا.

وحيث أن عمليات المسح الأثري تكتسي طابعا سطحيا لا يسمح بتقديم استنتاجات تاريخية وعلمية معمّقة فإنه يتحتّم القيام بأسبار وحفريات أثرية بالمواقع المذكورة أعلاه للتعرّف على نوعية المخزون الموجود تحت الأرض و تأريخه.

ويستوجب هذا العمل توفير طاقات بشرية متعدّدة ومختصّة ووضع خطّة قصد القيام بالحفريات الضرورية وصيانة المواقع وإحيائها وتهيئتها وتجهيزها لاستقبال الزوّار تونسيين كانوا أو أجانب .

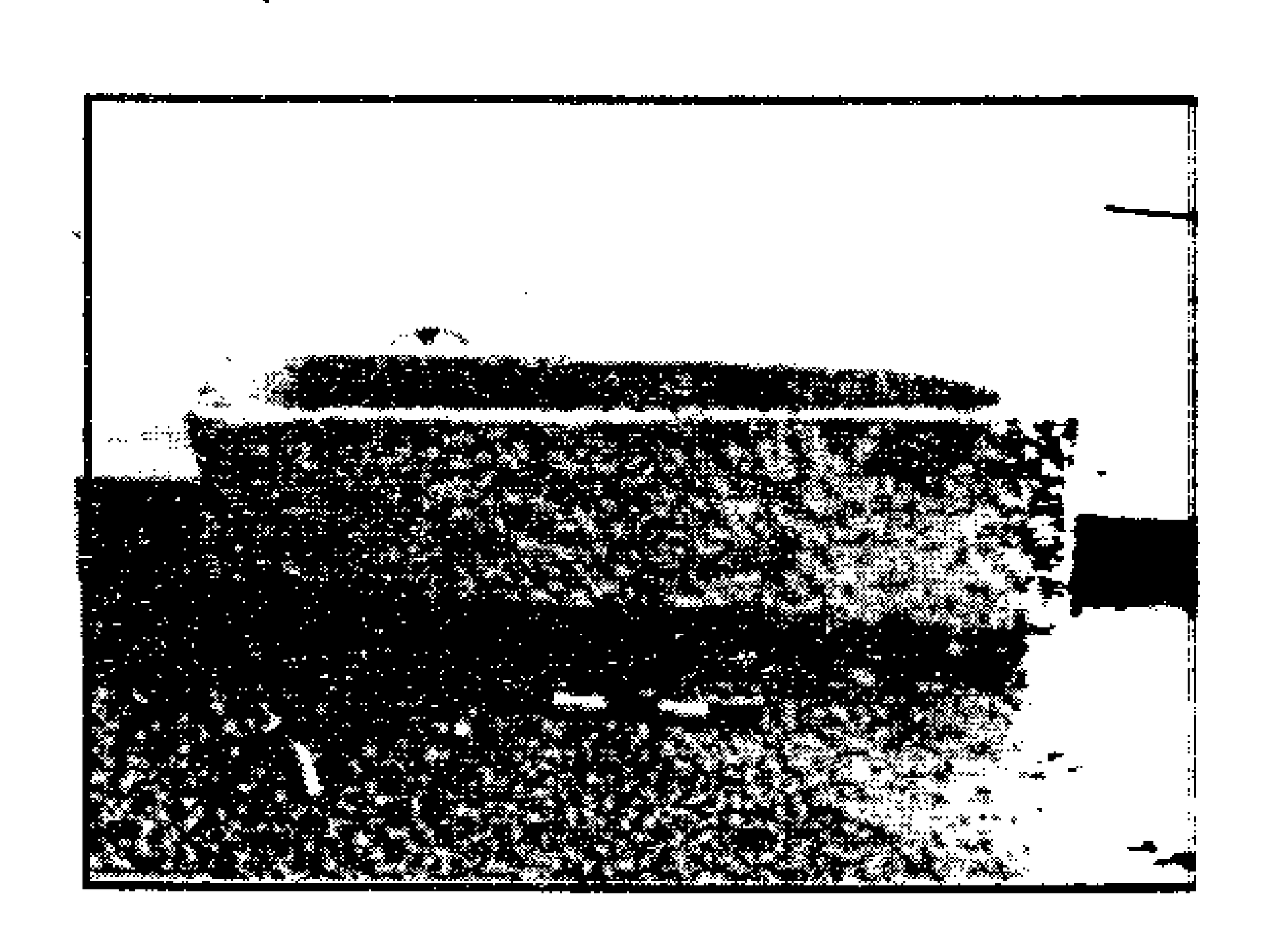
- *بعض المراجع :*

- Atlas archéologique de la Tunisie , feuille au 1/50.000é n°50 (L), Halk el Menzel et n° 49 (IL) , sidi Bou Ali
- Atlas Préhistorique de la Tunisie , feuille au 1/200.000 é n°9, sousse.
- Guérin (V) , Voyages archéologiques dans la Régence de Tunis ,T.I, P. 85 et 86
- Tissot (ch), Géographie comparée de la province romaine d'Afrique , T.II, p. 145
- Ghalia (T) , Hergla et les mosaïques des basiliques chrétiennes de Tunisie .

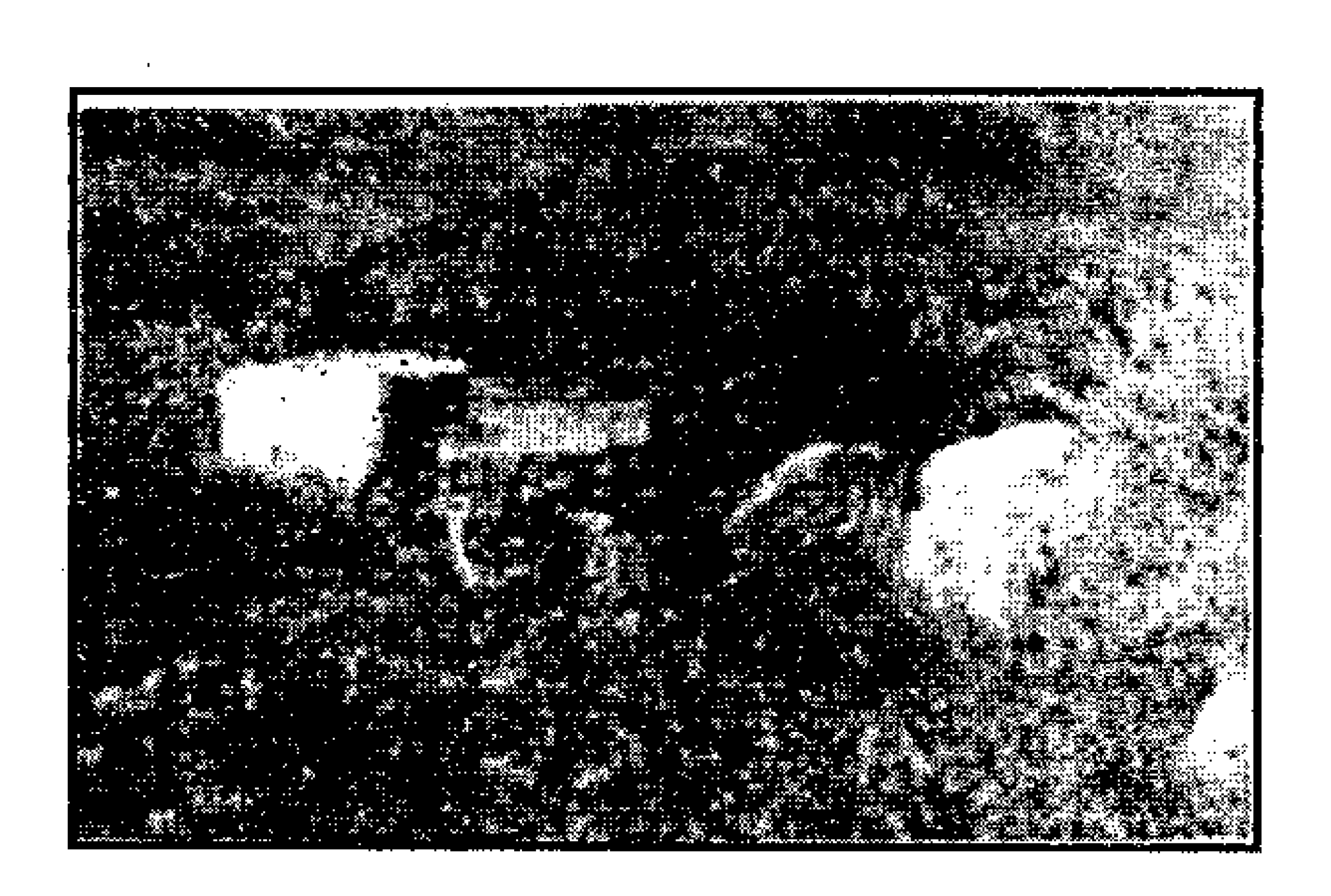
خير الدين العنّابي،

(المعهد الوطني للآثار بتونس)

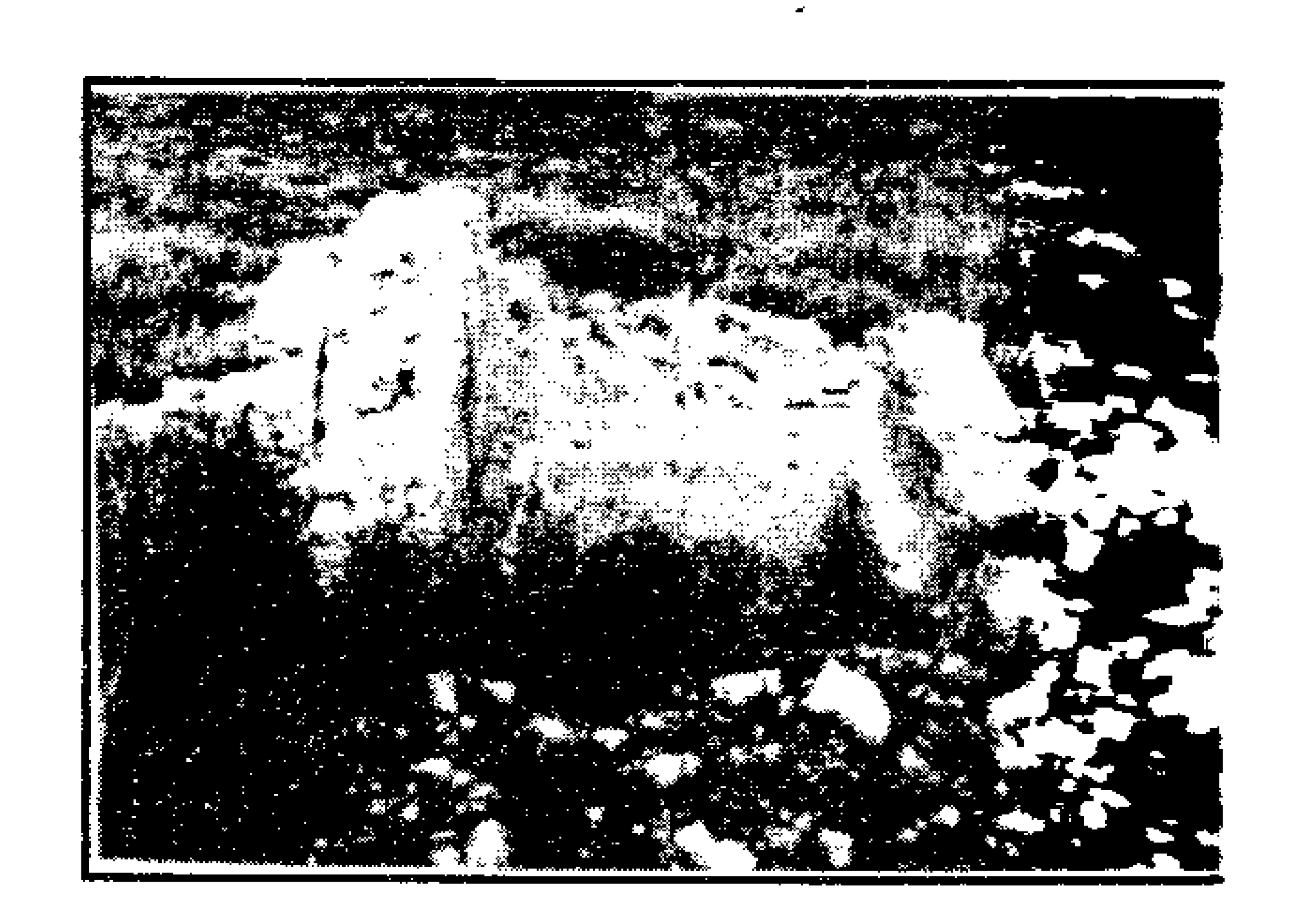




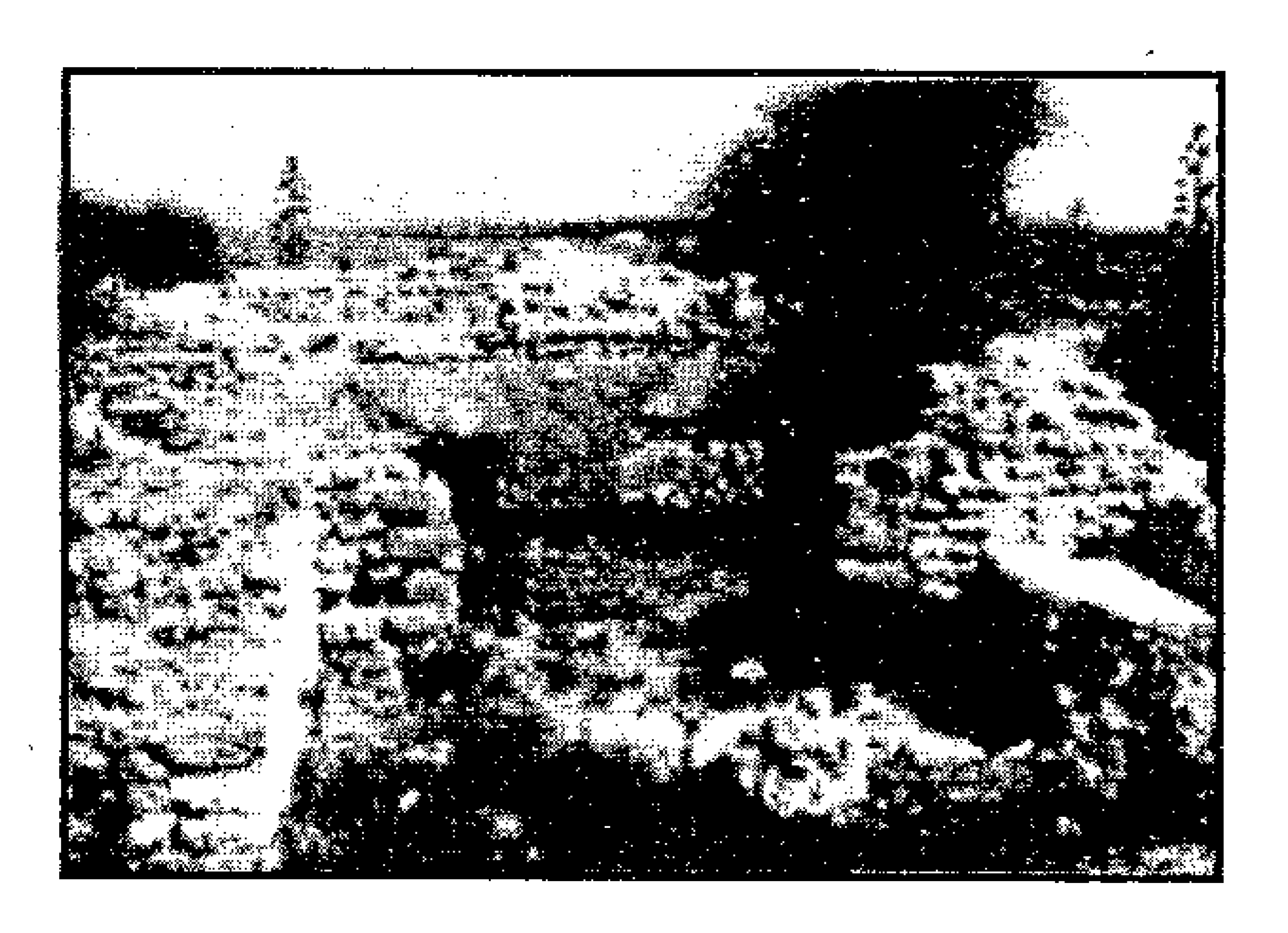
موقع 1 : تابوت



موقع 3 : حجارة مبعثرة



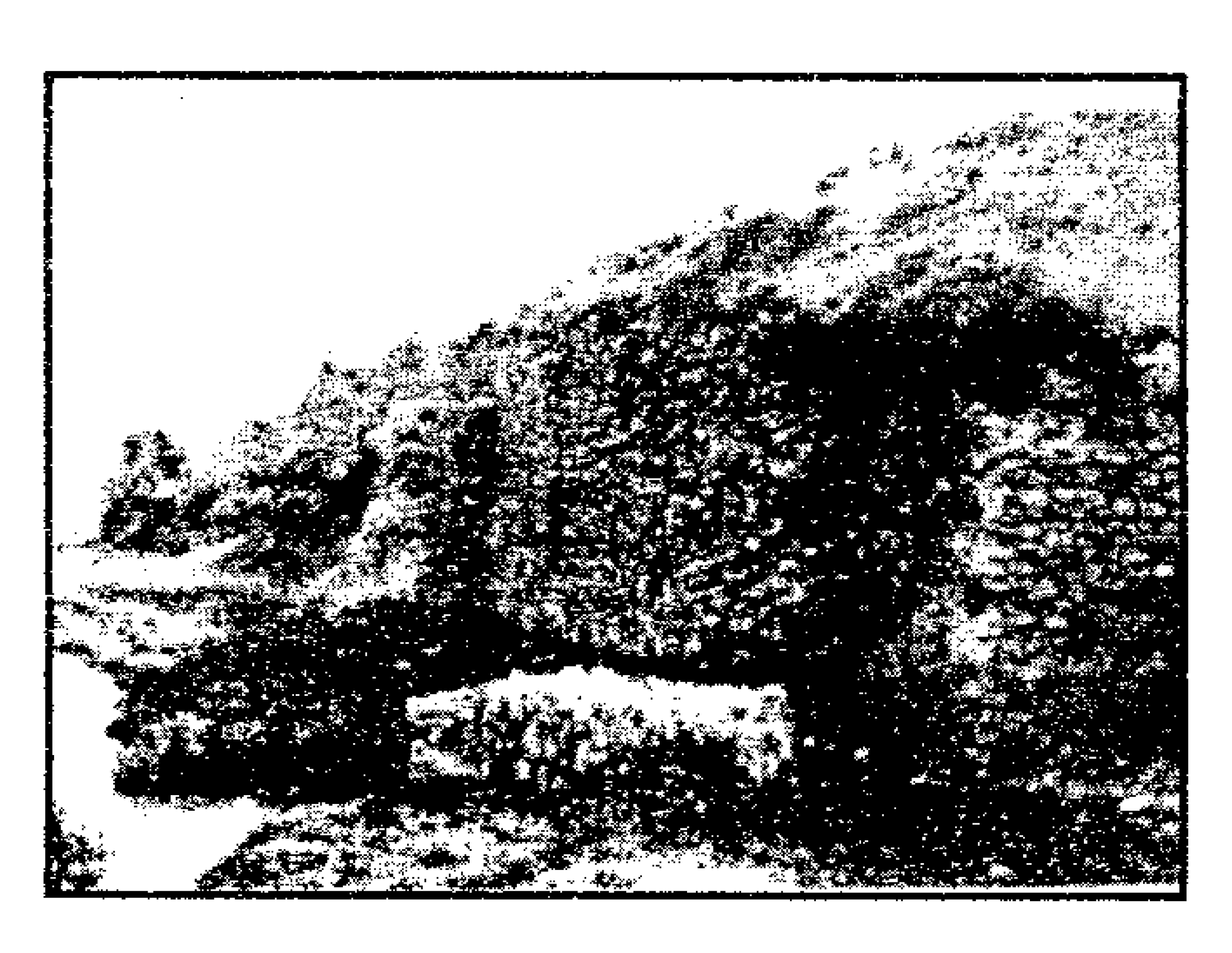
موقع 8 : الحوض



موقع 14 : العمبرية الحمّام



موقع 14 : ثقب مقبرة الـــColombarium



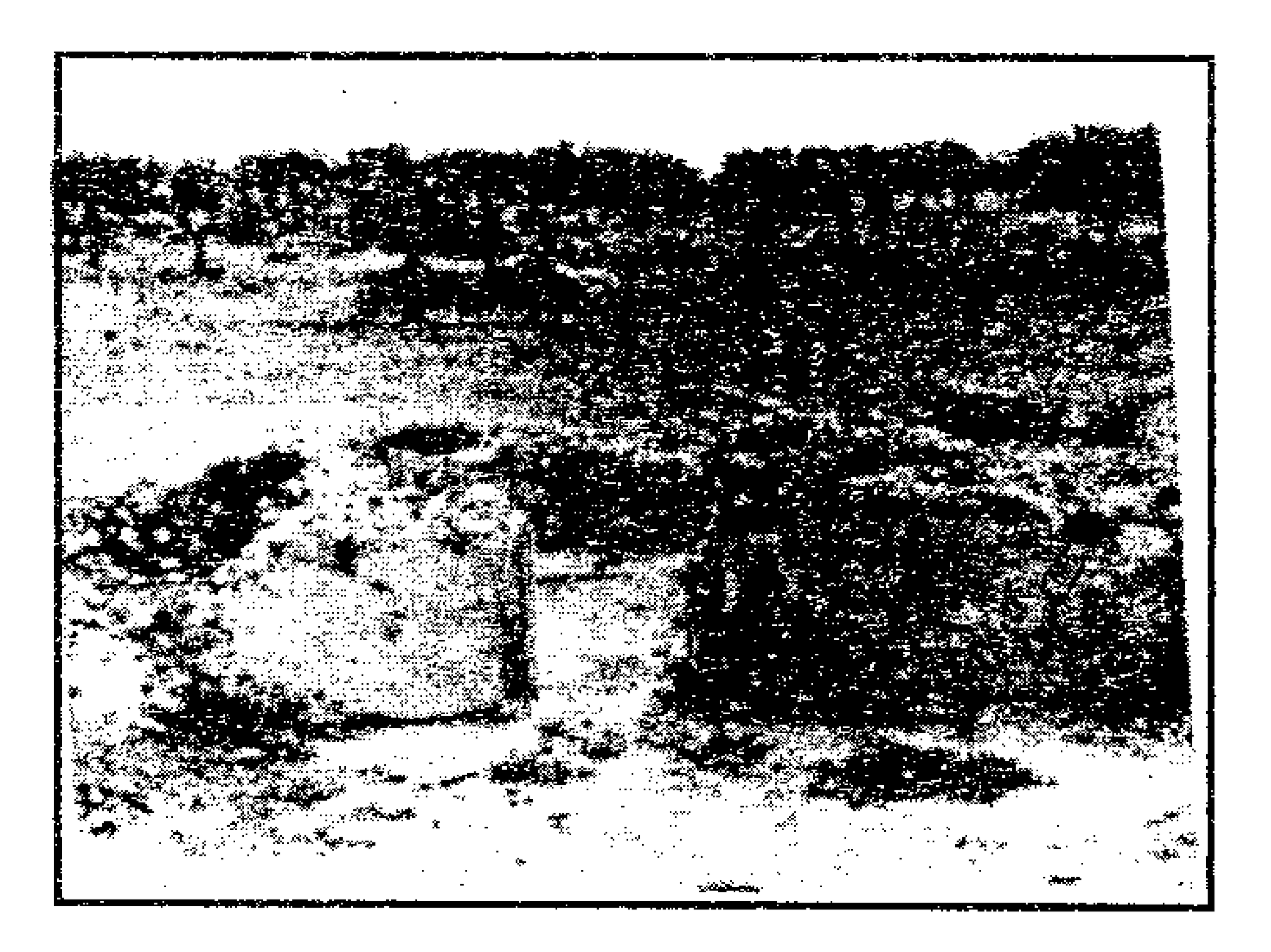
موقع 15 : صهاريج وأسس جدران



موقع 15 : قنوات صرف المياه



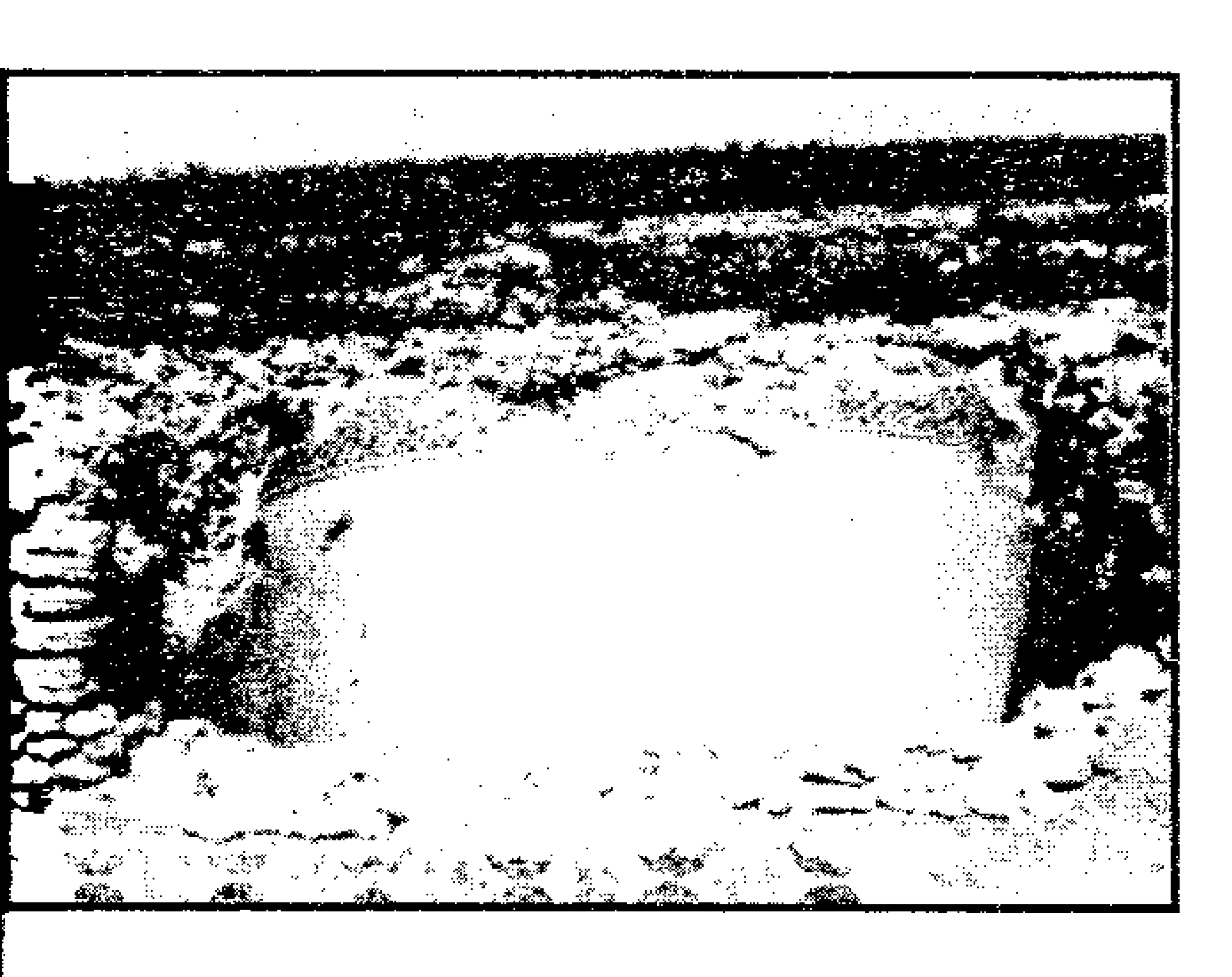
موقع 15 : القناة الرئيسية



موقع 16 : منزل من العهد الروماني



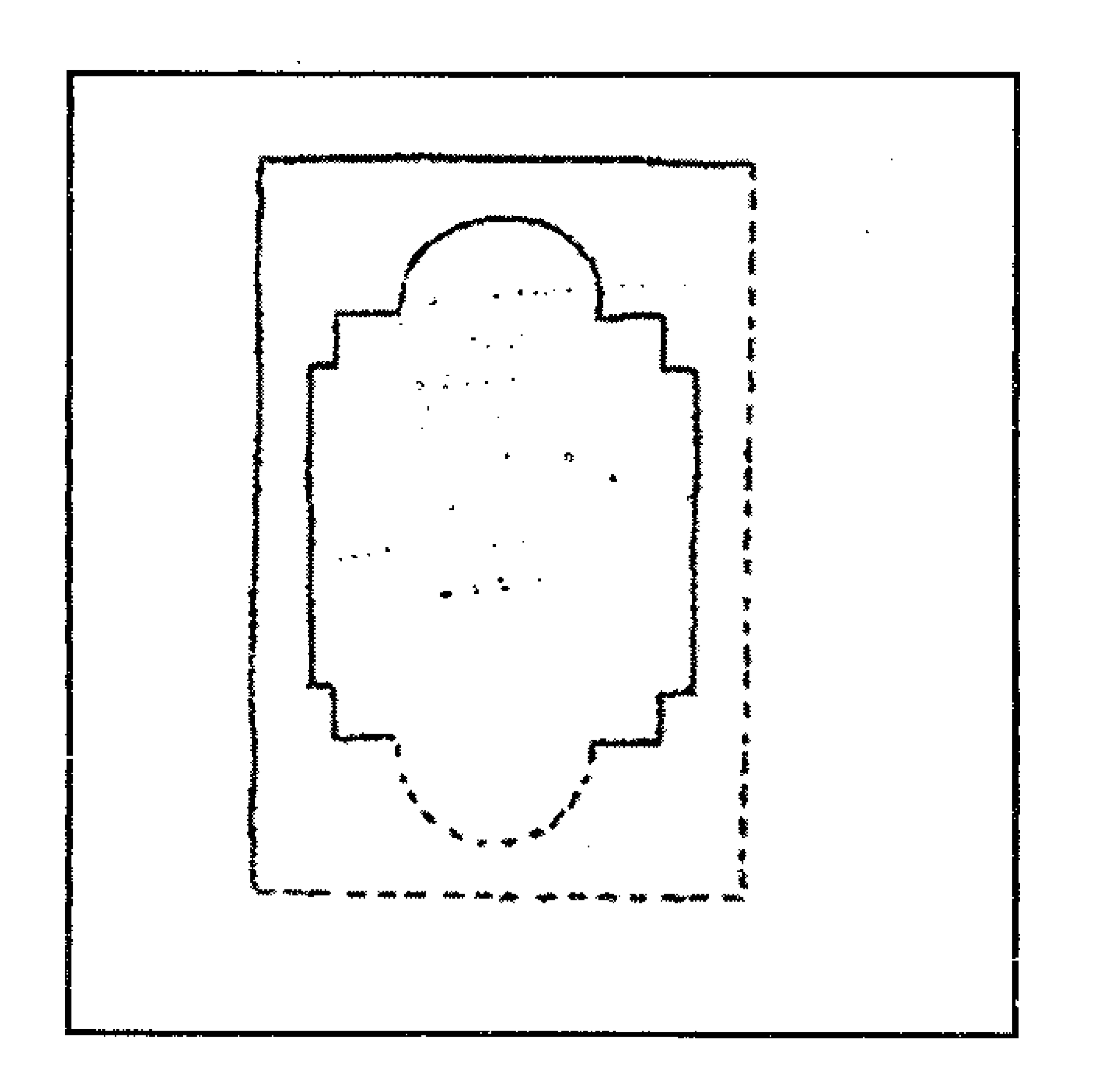
موقع 17 : مخازن الحبوب

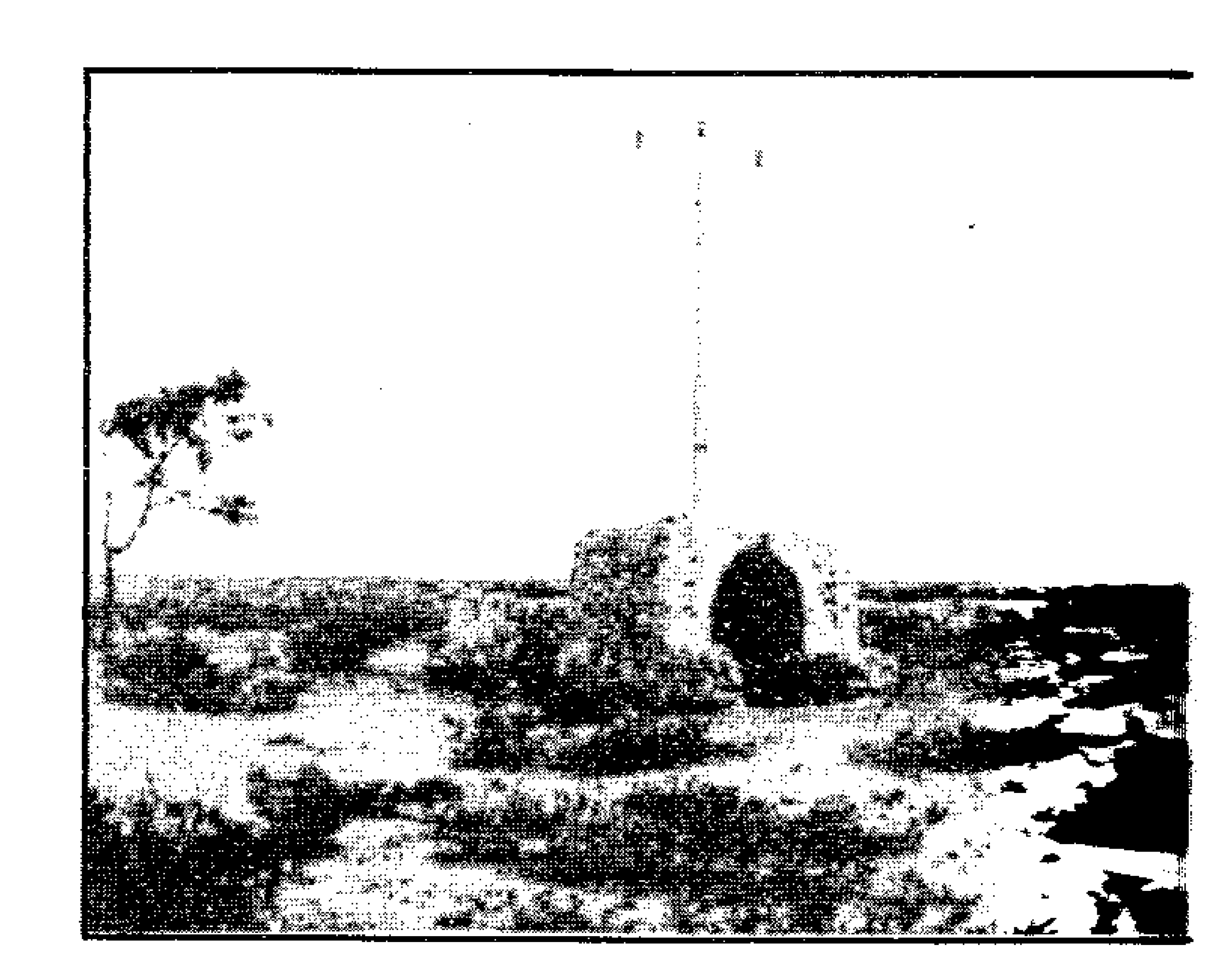


موقع 17 : حوض يعلوه شريط من الفسيفساء



موقع 17 : مقبرة

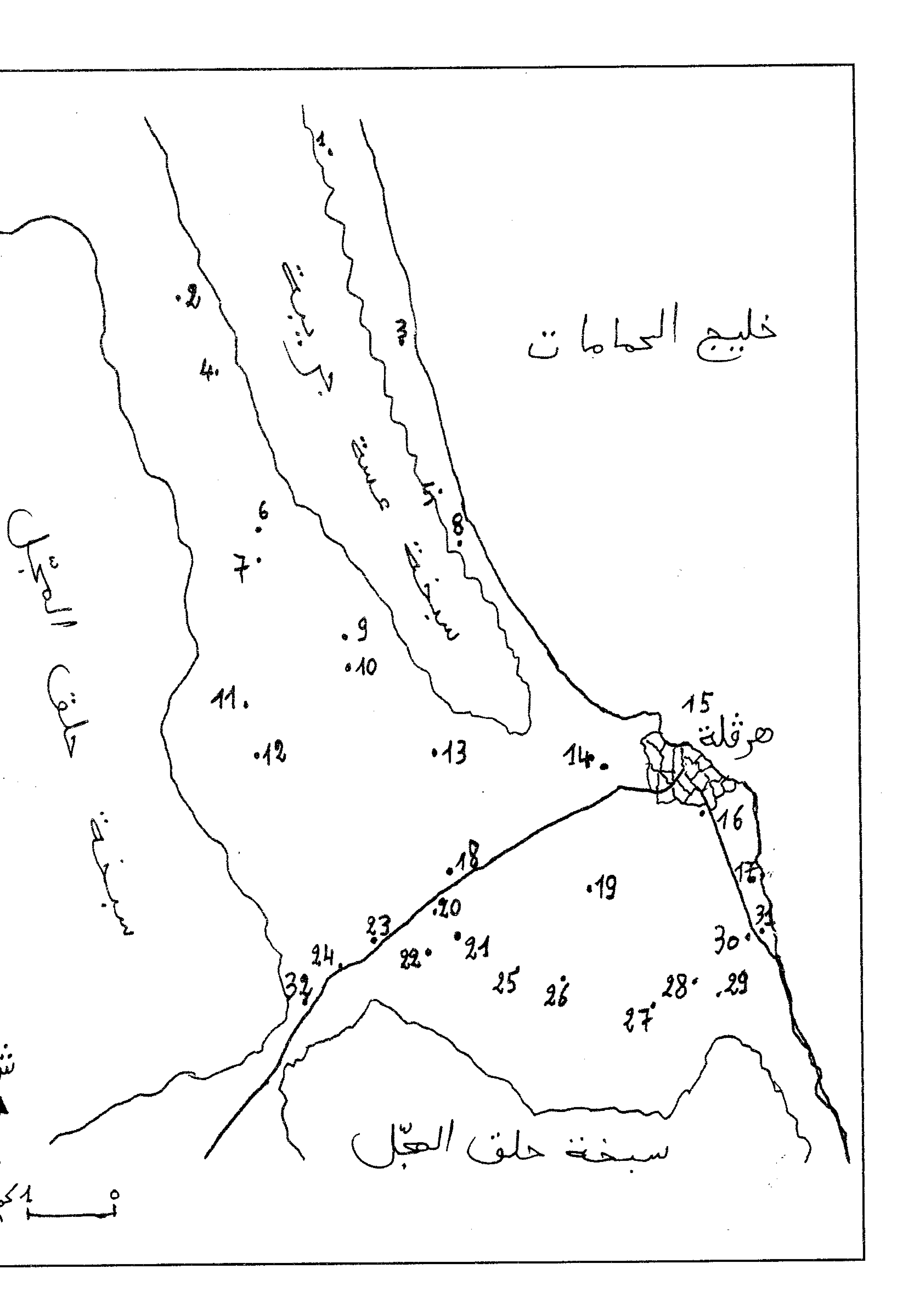




موقع 30 : الصهريج الحسيني



موقع 21 : الحوض



خليج الحمامات
هرقلة
سبخة حلق المجّل
1
2
3
4
5
6
7
8
9
10
11
12
13
14
15
16
17
18
19
20
21
22
23
24
25
26
27
28
29
30
31
32

عبد الحكيم سلامة القفصي

التاريخ الإسلامي لهرقلة

1864-1526





عبدالحكيم سلامة القفصي (المعهد الوطني للآثار بتونس)

مدينة هرقلة بين 1526 و 1864

إلى المرحوم نجيب البرتاجي الذي ساعدنا على القيام بحصر ومسح المعالم التاريخية بهرقلة يومي 25 و 26 نوفمبر 1987.

تعد هرقلة (1) من القرى الساحلية القديمة وقد لعبت دورا هاما طوال قرون عديدة. وسوف تنحصر مساهمتنا على التعرف على هذه المدينة الجميلة بين سنتي 1526 و 1864 كما هو بيّن في حولياتها.

ا- حوليات مدينة هرقلة من خلال الرحّالة والأثريين

* سنة 1526 يتحدث الحسن بن محمد الوزّان الفاسي المعروف بليون الإفريقي في كتابه "وصف افريقيا" الذي أتمه سنة 1526 عن هرقلة. ويشير إلى أنها "مدينة صغيرة بناها الرومان على ربوة البحر وخرّبها الأعراب" (2).

1- هرقلة أو اهرقلية أو هرقلية أو هرقلة أو هوريا كايلا في العصر الروماني، انظر، ادريس الهادي روجي، الدولة الصنهاجية. تاريخ افريقية في عهد بني زيري من القرن 10 إلى القرن 12 م. نقله إلى العربية حمادي الساجلي، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1992، ج 2، ص 45.

برنشفيك روبار، تاريخ افريقية في العهد الحفصي من القرن 13 إلى نهاية القرن 15. تعريب حمادي الساحلي، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1988،ج 1، ص 338. وتسمى هرقلة Erachia عند الحسن بن محمد الوزان الفاسي المعروف بليون الإفريقي، وصف افريقيا، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1983، ج 2، ص 83.

و Heraclia عند Puey Monçon ، انظر

Bigot, H, Les strphes du pélerin Puey Monçon (voyage à la Mecque à la fin du XVIe siècle). Revue tunisienne, 114 (1916) P. 96.

و Heraclia عند Lanfreucci و Bosio، انظر.

Grandchamp, P, rapport maritime, militaire et politique sur la côte de l'Afrique depuis le Nil jusqu'à Cherchell par deux membres de l'odre de Malte (1er septembre 1587), Revue Africaine (1925) P. 130.

Lanfreducci, F, Bosio Jean Othon, costa e discorsi di Barbaria.

Desontaines, J, voyage dans les Régences de Tunis et l'Alger, Paris, Dureau de la Malle, 1838, P. 107.

Erkola' عند الضابط الروسي انظر.

Carnard, M, une description de la côte barbaresque au XVIIIe siècle par un officier de marine russe, Revue Africaine, 426-427 (1951) P. 169.

2- المصدر نفسه.

* سنة 1571 يذكر الكاتب الإسباني Marmol Carvajal في كتابه "افريقيا" أن هرقلة مدينة صغيرة مخرّبة، تقع على بعد 28 مرحلة (3) من تونس. وهي تشرف على البحر و تمتدّ على طرف جبل (4).

* سنة 1587 يثبت التقرير البحري والعسكري والسياسي حول الساحل الإفريقي الممتدّ بين النيل ومدينة شرشال الذي أعده الجاسوسان Lanfreducci و Bosio اللذان ينتميان إلى فرسان القديس يوحنا بمالطة وذلك يوم 1 سبتمبر 1587 أن هرقلة انتصبت فوق جبل بجانب البحر(5).

* سنة 1603 أشار الموريسكي(6) Puey Monçon أو الحاج المنزوني في قصيدته الذي جعلها رحلة إلى هرقلة بهذه الأبيات :

ذهبنا من تونس إلى الحمامات
ومن الحمامات إلى هرقلة
وسوسة ثم المنستير
إلى أن بلغنا المهدية
وركبنا من المهدية البحر
وارتحلنا طيلة ثلاثة أيام
بدون أن نأكل شيئا (7)

* سنة 1625 يعد Jean Baptiste Salvago الجاسوس البندقي الذي قام بمهمة إلى تونس والجزائر سنة 1625 فيصرّح أنّ هرقلة من المدن الهامة التي تقع على الساحل الممتد بين هذين المدينتين (8).

3- تساوي تقريبا 30 كيلومترا.

4-Jean-Léon, l'Africain, Description de l'Afrique. trad de A. Epaulard, Paris, Maisonneuve, 1956, II, P. 390.

5- Grandchamp, P., op. cit, P. 130.

6- العربي المنتصر.

7- عثمان الكعاك، حجاج الأندلس بعد سقوطها، الثريا، عدد 12 سنة 1945، ص ص 18-19 انظر النص الإسباني Puey Monçon, op.citP. 96

8 - Grandchamp, P, une mission délicate en Barbarie au XVIIe siècle, Jean Boptiste Salvago, drogman vénitien à Alger et à Tunis (1625), Revue Tunisienne 30 (1937) P. 494.

* سنة 1686 يذكر الرحّالة الهولندي O. Dapper أنّ هرقلة مدينة صغيرة أنشئت من طرف الرومان وهي تشرف على البحر ويذكر كذلك أنه وقع تهديمها من طرف العرب (9).

* سنة 1776 قام الضابط الرّوسي بوصف دقيق لسواحل شمال افريقيا والساحل التونسي وذكر أن هرقلة مدينة تشبه القلعة وتقع فوق رأس بـــارز (10).

* سنة1783-1786 تعكس الإشارات الواردة في كتاب الرحّالة الفرنسي Des fontaines الذي زار البلاد التونسية بين سنتي 1783 و 1786 أن هرقلة قرية صغيرة تقع على ساحل البحر وتنتصب فوق ربوة صخرية يمكن مشاهدتها من بعيد (11).

* سنة1835 مرّ المشير الألمانيEwal بهرقلة غير أنّه لم يهتمّ بها ولم يصفها بل اعتنى بالريف المحيط بها (12).

* سنة1856 تعرض Tissot الرحالة والأثري الفرنسي إلى هرقلة وأثبت أنها تمتدّ فوق مرتفع يشرف على الشاطىء الذي يشكل ناتئا حادا. و يضيف أن القرية العربية تحتل فقط هذا المرتفع بينما كانت المدينة الرومانية أكبر وأوسع من ذلك. ورغم ذلك فإنه يؤكد أنها جذابة ومثيرة (13).

* سنة 1857 يعتبر الإحصاء الذي أعده طلبة مدرسة باردو الحربية تحت إشراف وزير الحرب أبو محمّد رشيد (14) أنّ هرقلة قرية (15).

- Description de l'Afrique, Amesterdam, 1686, IBLA 114-115 (1966), P. 197.9

10- Canard, M, op.cit., P. 169.

11- Desfontaines, op.cit. P. 107.

12- رحلة المبشر ايفالد من تونس إلى طرابلس في سنة 1835 نقلها من الألمانية إلى العربية منير الفندري، قرطاج، بيت الحكمة، 1991 ، ص ص37، 122.

13- Tissot, C, géographie comparée de la province romaine d'Afrique, Paris, imprimerie nationale, MDCCC LXXX VIII, P. 145.

14- انظر عملنا، أبو محمد رشيد.../ 1867 : مفكر عسكري، المجلة التاريخية المغربية، 57-58 (1990) ص. 346.

15- Djelloul, N, les bourgs maritimes du Sahel au Moyen Age. Etude préliminaire à une monographie du Sahel. Cahiers du C.E.R.E.S., série géographique n° 21 (1999) P. 129.

* سنة 1862: يذكر Guérin الأثري والرحّالة الفرنسي أن هرقلة تقع فوق هضبة (16).

* سنة1864: تعرضت هرقلة للنهب والتخريب أثناء الحملة العسكرية التي قادها زرّوق زمن الإنتفاضة الشعبية إثر مضاعفة المجبى (17).

نتبيّن إذن من خلال هذه الإشارات القصيرة أن مدينة هرقلة كانت تحتل موقعا استراتيجيا منيعا جلب اهتمام العديد من الرحّالة والجواسيس والأثريين.

اا- السور والميناء والتجارة والقرصنة

يتّضح من خلال التقرير الذي أعـدّه كلّ من Lanfreducci وBosio يوم 1 سبتمبر 1587 أن مدينة هرقلة كانت محاطة بسور مشيّد بالصخر. غير أن نفس التقرير يضيف أن فرسان مالطة كانوا ينزلون بأرضها ليلا للإعتداء على سكانها ونهب القوافل التي كانت تتنقل بين تونس وصفاقس (18). ويظهر من خلال رسالة موجهة من طرف التاجر محمد النوري الصفاقسي إلى أخيه بتاريخ 30 نوفمبر 1834 أن هرقلة كانت محطة للقوافل (19). ويذكر الرحّالة Shaw بعد قرنين تقريبا من هذا التقرير أن هرقلة كانت غير مصانة (20). هذا مع العلم وأن الدراسات تؤكد أن هذا السور انقرض في القرن الثامن عشر وأن هرقلة حصّنتها الأغالبة بسور صخري (21).

16- Voyage archéologique dans la Régence de Tunis, Paris, Plon, 1862, I, P. 85.

17- الأرشيف الوطني التونسي، الدفتر رقم 2529.

18- Grandchamp, P, op.cit, P. 130.

19- Zouari, A, Les relations commerciales entre Sfax et le Levant aux XVIIIe et XIX siècles, Tunis, Institut National d'Archéologie et d'Art, 1990, P. 204.

20- Louis, A, villes et villages de Tunisie, Tunis, Radio Télévision Tunisienne, P. 4.

21- ناجي جلول، الرباطات البحرية بافريقية في العصر الوسيط. تونس، مركز الدراسات والبحوث الإقتصادية والإجتماعية، 1999، ص، 97.

ويمكن أن نتساءل في هذا الصدد عن امتداد السور؟ هل كان يحمي فقط المدينة أو جزءا منها؟ وهل كان الميناء داخل السور أو خارجه؟

إن الإجابة على بعض التساؤلات تظهر من خلال ما جاء بالتقرير الذي أعده Lanfreducci و Bosio سنة 1587 والذي يذكر أنّ هرقلة كان بها مرفأ بحري وميناء مهيّأ لإيواء السفن. ويضيف نفس التقرير أن قراصنة مالطة كانوا يلتجئون إليه غالبا للاحتماء به من العواصف (22). ويؤكد الرحالة Shaw من جهة أخرى أن خليج هرقلة منيع جدا ولا يحتوي على الصخر والرمل (23). وبالرغم من هذه المعلومات المتفرقة فلا نعلم هل كان بالميناء رصيف للرسو؟ وهل كانت به أحواض؟

وفضلا عن هذه الإشارات الأدبية، تبرز بعض الوثائق الرسمية المحفوظة بالأرشيف الوطني التونسي وخاصة الدفاتر عدد 276 و296 و2327 المتعلقة بالمداخيل المتأتية من الغنائم بين سنتي 1800 و1810 نتيجة للنشاط القرصني أن يونس بن يونس الجربي الذي قام ببناء جامع سيدي سعيد بومنديل (24) كان يتعاطى هذا النشاط غير أنه لا يمكن أن نثبت أن هرقلة لعبت دورا في القرصنة أو الجهاد البحري خلال هذه الفترة (25). ولكن الدفتر عدد 50 يفيد أنّه تمّ منح إحسان قدره ثلاث ريالات للشخص الذي أعلم بمسك نصارى والقدوم بهم إلى هرقلة وإحسان قدره عشر ريالات للأعراب الذين أمسكوا النصارى(26).

22- Grandchamp, P, rapport..., P. 130.

23- Louis, A,, op.cit

24- انظر النقيشة الموجودة فوق مدخل بيت الصلاة.

25- انظر بحثنا : "الموريسكيون" الأندلسيون والجهاد البحري بالميناء التونسي غار الملح بين 1609 و 1805، أعمال الندوة حول الجهاد البحري في التاريخ العربي الإسلامي، سلا، جمعية أبي رقراق، 1999، ص ص 85-107

26 انظر الوثيقة ص 76-

III- السكان والمساكن والفنادق والزوايا

إن المصادر القديمة تجهل الإحصائيات المضبوطة والأرقام الدقيقة لذلك يستحيل ضبط عدد سكان هرقلة في هذه الفترة. غير أن الإشارات القليلة التي اطلعنا عليها تدل أن هرقلة كانت تعد سنة 1587 بين 400 و500 نسمة من بينهم 100 مقاتل (27). واعتمادا على الإحصاء الذي أعده طلبة مدرسة باردو الحربية سنة 1857 والذي حصر 103 وحدة سكنية بهرقلة، وافتراضا أن كل وحدة تعد خمسة أشخاص فإن عدد سكانها يمكن أن يصل إلى 515 نسمة (28) بينما يقدر الأثري الفرنسي Guerin أن هذا العدد بلغ سنة 1862، 800 نسمة علما وأن نصف المساكن خربة ومهجورة. وهذا يعني أنّ عددها الحقيقي يمكن أن يفوق 1600 نسمة..

وانطلاقا من الإشارة التي قدّمها نفس الأثري حول محيط المدينة والذي بلغ 1300 مترا فيمكن أن نفترض أنّ كلّ ساكن كان يتمتع بمساحة تفوق132 م² (29).ومن بين المعلومات الأخرى التي جمعناها توجد إشارة حول علاقة أهل هرقلة بالأجانب والإستقبال الذي أعده بعضهم للرحالة الفرنسي Desfontaines ونتبيّن من خلال هذه الإشارة أنه لم يقع الترحيب به (30).كذلك من المعلومات الأخرى حول المساكن يفيد الدفتر عدد2529 بأنّ العديد من المساكن بهرقلة كانت تحتوي على مطمورة لخزن المؤن.

- الفنـــــــــادق

بجانب المساكن تبين بعض وثائق الأرشيف أن هرقلة كانت تضم سنة1836 فندقين (31) هذا مع العلم وأن الفنادق كانت محطات لإستراحة الأجانب. فقد قضّى الرحّالة الفرنسي Desfontaines ليلة بفندق بهرقلة(32). وغالبا ما كانت تحتوي الفنادق على طابقين يخصص الأسفل للمخازن لوضع البضائع والأعلى لبيوت الإستراحة والنوم.

27- Grandchamp, P, rapport, P. 130.

28- Djelloul, N, «Proprité foncière, maraboutisme et formation du paysage urbain du Sahel au Moyen- Âge », C.E.R.E.S., P. 61 (sous presse).

29-ibid, P. 85.

30- ibid, P. 107.

31- Chater K, Insurrection et repression dans la Tunisie du XIXe siècle, La Mehalla de Zarouk du Sahel (1864) Tunis, Faculté des Lettres et Sciences Humaines de Tunis, 1978, P. 20.

32-Gelloul (N) “Propriété… » Op.cit, P. 107.

- الزوايـــــــــا

كانت هرقلة تضم ستّ زوايا قبل سنة 1864 (33). ومن المعلوم أنّه إضافة لدورها التعليمي والديني كانت الزوايا تستعمل أيضا لإيواء السكان وخاصة منهم الأجانب والفقراء.

VI- الماء والزيتون والمعاصر والأشجار المثمرة

لدينا بعض الإشارات التي تدلّ على وجود الماء بهرقلة من ذلك ما أكده Desfontaines بأن قراصنة مالطة كانوا يلتجئون إلى هذه المدينة للتزود بالماء الصالح للشراب (34). ومن جهة أخرى فإن الأثري والرحالة الفرنسي Guérin يتحدث عن بئر بسفح الجبل (35) ويذكر ناجي جلول أن بهرقلة ثلاثة أحواض ماء قديمة تستعمل في تزويد السفن بالماء الصالح للشراب (36).

وتفيد بعض المعلومات بأن هرقلة محاطة بحقول صالحة للبستنة وزراعة الزيتون والأشجار المثمرة. ويظهر من خلال بعض الوثائق المحفوظة بالأرشيف الوطني التونسي أن الزياتين تحتل مساحة لا بأس بها وذلك على شكل بقاع معزولة وسط منطقة فلاحية تغلب عليها الزراعات الكبرى وحياة الترحال والبداوة. غير أن هذه الزراعات الكبرى بدأت تتحول شيئا فشيئا إلى زراعة مخصصة للزياتين (37).

وتثبت بعض الدراسات وإحصاء سنة 1857 أن هرقلة كانت تعدّ ستّ معاصر بينما كان عددها أربع فقط سنة 1836 (38) غير أنه

33- Chater, K ,Insurection, op.cit, P. 20.

34- Gelloul (N) "Propriété… » Op.cit, P. 107.

35- Ibid, P. 85.

36- Les bourgs paritimes du Sahel P. 129.

37- Chater, K, Insurection, P.P. 20-22..

38- Djelloul, N, proprité foncière, P. 61, Chater, K, P.P. 20-22.

لا يمكن حاليا أسباب معرفة هذا التطور السريع في عدد المعاصر في مدة لم تتجاوز الربع قرن.

وبجانب الزياتين فإن الريف المحيط بالمدينة كان غنيا وهو ينتج حسب Desfontaines بين سنتي 1783 و 1786 الشعير والعنب والتين والبطيخ والدرع "Dreu' فضلا عن النباتات الغابية. فهذا الكاتب يعلمنا بأنه قام بجمع بعض حبات نبتة Nitraria (39). وأعجب الأثري الفرنسي Guerin بجمال الزياتين والأشجار المثمرة المنتشرة بريف هرقلة. ويذكر في كتابه الصادر سنة 1862 أن البساتين والأجنة المحيطة بهرقلة مصانة "بطوابي الهندي" ويضيف أن الأراضي رملية ويمكن أن تصبح صالحة للزراعة عند استعمال الري (40). ويتحدث الأثري الفرنسي Tissot عن الحدائق والبساتين الواقعة حول هرقلة غير أنّه لم يطنب في وصفها (41).

إن هذا الثراء الظاهر يتعارض مع ما جاء في كتاب "رحلة المبشر ايفالد" الذي يذكر:" وابتداء من هنا بير سالم التي تبعد مسير ساعة من الحمامات على ساحل البحر وطئنا سهلا رحبا لا تحصره العين يبلغ عرضه، انطلاقا من البحر حتى الجبال ما لا يقل عن ميلين، وطوله حتى هرقلة أربعين ميلا. ويسود كامل هذه المنطقة إقفار تام، فلا شجرة تبين ولا منزل، ومن حين لآخر فقط يلوح بعض الجمّالين يسوقون القوافل أو الرعاة مع قطعانهم" (42).

V- المعالم الأثرية بهرقلة

مازالت مدينة هرقلة محافظة رغم بعض التعديلات والتحويرات والإضافات على نسيجها العمراني الأصلي(43) الذي يزخر بالمعالم التارخية التي تضفي على المدينة وخاصة على ساحاتها البهجة والراحة.

39.- Op.cit, P. 109.

40- Op.cit, P. 85.

41- Op.cit, P. 145.

42- المصدر نفسه ص، 37.

43- Hemayed, H, Architecture et développement d'un village du Sahel : Hergla, Tunis, I.T.A.A.U.T., juin 1984.

حسب إحصاء سنة1857 كانت هرقلة تعد جامع خطبة وأربع مقامات وهي: سيدي بومنديل، سيدي صالح، سيدي بوبكر، سيدي الخافي وحوطتين : سيدي علي بن سلام وسيدي الميموني (44). غير أن المسح الذي قمت به بهرقلة يومي25 و26 نوفمبر1987 بمساعدة زميلي بالمعهد الوطني للتراث محي الدين البوغانمي والمتربصين بالخريطة الوطنية للمعالم والمواقع سمير عون الله والمرحوم نجيب البرتاجي وبإعانة السيد الحبيب كشيش الكاتب العام للجنة الثقافية المحلية ومدير دار الثقافة بهرقلة مكن من حصر المعالم التالية: 1- جامع سيدي سعيد بومنديل، 2- زاوية الهيشرية، 3- جامع بيت الله، 4- المقبرة البحرية، 5- مزارة سيدي عمر العريان، 6- مزارة سيدي صالح، 7- مزارة سيدي النجار، 8- مزارة علي بوسلامة، 9- مزارة سيدي بوبكر، 10- مزارة سيدي الخافي، 11- مزارة سيدي علي بوسعدية، 12- القصر.

وفضلا عن إحصاء هذه المعالم ووصفها وقيسها قيسا مبسطا وتصويرها، فقد قمت بجمع بعض المعلومات المتوفرة بالرجوع إلى المصادر والمراجع والروايات الشفوية وخاصة بالإعتماد على المعلومات التي توفرها هذه المعالم من هندسة وتخطيط وبناء وزخرفة.

غير أن القصر هو الذي حظي باهتمام خاص من طرف الرحّالة والأثريين الأجانب الذين زاروا هرقلة (45). واتفق هؤلاء على أن هذا المعلم من آثار البيزنطيين. وقد استـُعْملتْ بقاياه في بناء قنطرة حلق المنجل. ويذكر J.L. Combes أن بعض آثار هذا القصر ما زالت تشاهد بدار قيقة (46).

44- Djelloul, N, les bourgs... P.129.

45- Desfontaines, Op. cit, P. 107, Tissot, C, Op. cit, P. 145, Guerin, Op. cit, P. 85.

46- Hergla inconnue. Bulletin économique et social de la Tunisie, 45 (1950), P. 47.

وحسب بعض الدراسات فإن هذا القصر يرتبط بمؤسسة الرّباط وأنه انقرض مؤخرا ويمكن أن نتعرف على هندسته وشكله من خلال الوصف الذي تركه الدكتور D. Carton وقد كان يشكل بناية مربعة (50 x 50 م) مشيدة بواسطة الحجارة المصقولة. وتدعم السور الخارجي أبراج نصف دائرية باستثناء البرج المربع البارز الذي يحمي المدخل الوحيد ويفضي هذا الباب بدوره إلى باحة سماوية تحف بها الحجرات" (47).

- جامع سيدي بومنديل

يقع هذا الجامع الجميل وسط المدينة وهو يحتل موقعا متميزا وسط النسيج العمراني التقليدي بمدينة هرقلة. وتطلّ كلّ من واجهته الأساسية ومدخله على البحر بينما لا تحتوي واجهته الخلفية المقابلة على أيّة فتحة.

وتذكر النقيشة المثبتة فوق الباب الأساسي المؤدي إلى بيت الصلاة والموجودة تحت الرواق الفاصل بين الصحن وبيت الصلاة أنه بني سنة 1192/ 1930.

وهذا نصّ النقيشة الذي يشير إلى اسم الناشىء وزمن الإنشاء :

الحمد لله والصلاة على رسول الله
هذا ضريح الولي
الصالح سيدي سعيد
بومنديل بناه المحسن
يونس الجربي عام 1192 / 1778
ووقع إصلاحه عام 1349 / 1930
نفعنا الله بركته

ومن جهة أخرى فإن الوثيقة المحفوظة بالأرشيف الوطني التونسي بالدفتر عدد 97 المؤرخ في سنة 1170 / 1765 أنّ " ترك" قانون الشيخ سيدي سعيد بومنديل بلغ 10 دنانير بينما بلغ" ترك" قانون شيخ هرقلة 10 دنانير أيضا. ويدل هذا أن الزاوية بنيت قبل

47- ناجي جلول، المصدر نفسه، ص، 97.

الجامع وأنها استعملت بعد الإنشاء كجامع. ويذكر Guiga و W.Marçais في الكتاب الذي يحمل عنوان Textes arabes e Tekrouna [48] أن سيدي بومنديل حسب الرواية الشفوية المحلية قدم من المغرب في القرن السادس عشر وأن القبة تمّ رفعها بعد موته من طرف محسن أصيل جزيرة جربة اعترافا للولي الذي تدخل لفائدته وتخليصه في قضية تتعلق بتدليس العملة. وقد استقر بهرقلة بعد أدائه فريضة الحج. ويدلّ هذا على التكامل بين النصّ الإنشائي والرواية الشفوية.

وأما فيما يتعلق بيونس الجربي فإنه لعب دورا كبيرا في التجارة التونسية مع الخارج وذلك بين 1821/1801 [49].

عبدالحكيم سلامة القفصي
(المعهد الوطني للآثار بتونس)


-48- Paris, Leroux, MDCCCC XV, P. 281.

-49- نحن بصدد إعداد دراسة حوله بالتعاون مع السيد الجيلاني بالحاج يحيى.



عبد الحميد الفهري
(مركز سرسينا للبحوث
في الجزر المتوسطية
صفاقس / قرقنة)

قراءة في مقال الطبيعة والمعمار .. لهرقلة "لفيليكس فور"





قراءة في مقال " الطبيعة والمعمار والتنظيم الحضري هرقلة الجنة المستردة "* للباحثة " جوديك فيليكس-فور "

استهلّت الباحثة Judich Felix Faure مقالها "الطبيعة والمعمار والتنظيم الحضري: هرقلة الجنّة المستردّة" برأي للمهندس المعماري J. Hargoz يقول فيه: "كلّ ما يقوم به المسلمون متّصل بشكل وطيد بكيفيّة النظر إلى العالم فمعمارهم أصيل جدّا ككلّ معمار تقليدي وراءه تصوّر خصوصي للعالم، والمهمّ ليس التصوّر الإسلامي أو الشرقي أو العربي في حدّ ذاته بل لكلّ سلوك وتمشّ ما دام هناك دليل تعامل، ويضاف إليهما بالخصوص الإلتزام. هذه العلاقة بالعالم هي التي ضاعت منّا وما ضاع لا يعني ضياع دين إنّما يعني ضياع جميع ما هو خصوصي".

ودون مغادرة رؤى "هاركوز" تؤكّد الباحثة " فيليكس فور" على أهمّية موقع هرقلة الشامخ فوق ربوة صخرية تجعلها كدفّة سفينة تخترق البحر ويسندها شريط الساحل ويحدّ من توسّعها في الغرب السباسب السفلى. فتذكّر بأنّ القرية كانت منذ عشرين سنة إلى الوراء تشكّل مشهدا طبيعيا لغابة الزياتين المعمّرة تحيط بها قرى شديدة الكثافة من سيدي بوعلي في الشمال إلى المهدية وقصور الساف في الجنوب الشرقي بينما يغطّي المساحات الغربية على عمق 30 كلم غابة الزيتون. وحسب رأي الكاتبة فإنّ الساحل فقد في الوقت الراهن الكثير من عناصر شخصيّته الخصوصيّة بل من مدلوله بالذات فاضطرب ذلك التناسق والتوازن بين القرى جرّاء التطوّر السريع للعقليّات والاقتصاد والإمكانيّات التقنيّة. لذلك لم تستطع أيّة عبارة للتراث التاريخي أن تحافظ على المدلول الذي يميّز هذه التجمّعات القرويّة ونمطها المعماري التقليدي.

---

* Hergla, paradis retrouvé Revue Architecture Méditerranéenne Tunisie : Revue internationale d'Architecture ISSN0761-7909

ففي غضون العشرين سنة السابقة تطوّر هذا المعمار في اتجاه الإعلان عن نهايته إذ تضخّمت القرى وارتفع حضور السكان على حساب أجنّة كانت بالأمس للفلاحة لا غير.

وعندما تضيف فيليكس أنّ هرقلة تعبّر عن هذا النمط من التطوّر فكأنّ الكاتبة تريد أن تقول بأنّه تطور عفوي وغير معقلن، ذلك أنّها تردف لما سبق مباشرة رأيها بأن القرية تمكّنت لوقت طويل أن تحافظ على نوعيّة معمارها ومشهدها الطبيعي وإطارها الإنساني لكنّها تواجه اليوم تضخّم عمراني سريع، يقطع أكثر فأكثر مع التقاليد المعمارية. فتمّ إبراز العلامات الجديدة في الفضاءات العصرية على حساب المجالات التقليدية. وقد حدّدت "فيليكس- فور" بدقّة بيت الداء وسبب العلّة عندما أبرزت تضارب التوجهات المعمارية الحديثة مع الأسس التي قامت عليها هويّة القرية ممّا إنجرّ عنه تدمير متزايد للهياكل الحضريّة ومحيطها الطبيعي المتميّز بضخامة غابة الزياتين.

لقد تحوّلت هرقلة فعلا من قرية إلى مدينة صغيرة في أوج توسّعها وذلك في لحظة انتقالية من تاريخ تطوّرها. فهرقلة في موقع استراتيجي يسمح لها الانتفاع بمطار تونس الحمّامات المزمع بناءه بسهل النفيضة. لذلك ترى "فيليكس- فور" أن هرقلة بحكم وجودها في صميم المنطقة بإمكانها الانتفاع بالدينامية الاقتصادية للجهة، فمن صالحها أن توفر شروط النقلة الناجحة للحداثة على المدى الطويل في المستوى المحلي بالزيادة في غرس القرية في محيطها الثقافي الساحلي التونسي على الطريقة الغربية، معبّرة عمّا يخالجها من رغبة في أن ترى هرقلة قد انساقت في اتجاه حداثة لم تحدد مقوّماتها.

غير أنّ الكاتبة أحسّت بالتناقض بين ما عبرت عنه من أسف لتدهور هرقلة عندما تركت تقاليدها ونمطها الأصيل ثمّ ما أضافته في فقرة لاحقة عن وجوب اعتناق الحداثة فاستطردت تقول: "إنّ زيارة المعالم الأثرية التقليدية ومزيد فهم العلاقات القائمة بين السكان والنسيج العمراني يمكن أن يسمح بإعادة ربط الصّلة بين الماضي والحاضر ويساعد المدينة على إقامة قواعد جديدة على أسس متينة للمحافظة على تراث المدينة والسيطرة على نموّها". لذلك نجدها تعتنق نفس الموجة التي سيطرت على سائر المدارس الفنيّة والمعمارية من وجوب اتّباع سياسة توفيقيّة بين الأصالة والحداثة وهو ما جعلها تبرّر في الفقرات اللاّحقة سبب إتخاذها هذا الموقف وتسعى لتقديم براهين كافية لصحّة توجهها.

تستنجد الكاتبة بالمهندس Alvaro Siza الذي يدعو إلى "تجميع الأشياء الناشئة حديثا مع تلك التي تسير نحو الاندثار وتقديم حركة البناء المتجدّدة بما هي وكما هي". ثمّ تعود "فيليكس فور" بعد هذا النداء الغامض والمرتبك لتؤكّد على أنّ فضاء هرقلة الحضري يستجيب بطبعه للخاصيّات الأساسية للمدينة العربية الإسلامية على غرار ما نسجه عمرانها طيلة قرون طويلة. لقد غاب على الكاتبة أنّ هرقلة لا تحتاج إلى تجميع للعناصر التراثية بصفة متخفية كما نراه في المدن المركّبة في أوروبا وأمريكا لتحقيق الفرجة، فالاستقرار في ربوع هرقلة عريق عراقة الحضارات التي إنتصبت في الساحل لذلك فإنّ إنسجام المشهد الطبيعي مع نمطيّة البناء التقليدي وما ينتهي إليه من تشكيل مرفولوجيا حضرية بكلّ معاني الكلمة هو شأن أصيل وإفراز لقرون من إنغماس هذه القرية / المدينة في محيطها الريفي/ الحضري وهذه الازدواجية مدججة بالمضامين الإنسانية والتراثية إلى ما لا حدود له.

وتقوم الكاتبة بمحاولة لتقديم صميم النسيج العمراني لقرية هرقلة فترى البيوت المحيطة بشبه الجزيرة على الأطراف كأنها أسوار تؤثث تخومها فلا يتسنّى بلوغ وسطها دون العبور عبر البيوت المبنية بروح ملؤها الودّ.

وعلى عكس تشكّل القرية فالدّار في حدّ ذاتها تمثّل في تركيبتها عنصرا أساسيا في النسيج العمراني بفضل تجديدها وإعادة إدماجها ضمن المنشآت الحديثة مع الإبقاء علىعناصرها المعمارية الأساسية التقليدية بما يستجيب للحاجيات الراهنة للمجتمع وتطوّره، لذلك تمكّنت هرقلة من توفير شروط التطوّر المتناسق والمستديم مع احترام تراثها ومحيطها.

ودون ربط واضح بين المسائل المطروحة تنتقل الباحثة للحديث عن تاريخ العلاقة بين المدينة وغابة الزياتين فرجعت "فيليكس فور" إلى العصور القديمة عندما استقبلت البلاد "الضيوف" القادمين عبر البحر وتعني بهم الفنيقيين الذين أعطوا الدفع الأوّل للبلاد وأسّسوا مصارفهم التجارية وكانت هذه المصارف بدورها قاعدة ضخمة أحسن استغلالها الرومان. لكن بالنسبة "لفليكس-فور" كانت المرحلة العربية من الفتوحات إلى قدوم الهلاليين أسوء المراحل وأعسرها على القرية إذ خلّفت البداوة والتدمير. وبهذا فإنّ

الكاتبة تجازف بتقديم حكم معياري على العرب والإسلام دون أن ترتقي إلى فهم ما حصل من مواجهات حضارية بين النماذج والأنماط المتصارعة في مستويات تتجاوز أبعاد المعارك العسكرية. المهمّ أنها تصل إلى نتيجة واحدة وهو أن هرقلة تقلبت طيلة 2500 سنة في أنماط متعددة من الحياة.

وبديهي أن تلاحظ الكاتبة أنّ هرقلة استمدّت تاريخها المحلّي الخصوصي كسائر مدن الساحل من مخزونها التراثي الطويل ونظّمت فضاءها دون الانفتاح على الخارج بقوقعتها على نفسها. غير أنّه من المفروض أن تذكّر بأنّ القرية لم تكن على طريق رئيسي بين الوسط والشمال وهو سبب عزلتها واكتفاءها بالبحر ليحلّ حصارها لذلك فإنّ علاقات هرقلة في القديم كانت تماما كأهل الجزر قوية مع قرى الساحل البحرية أكثر منه مع سكان الداخل.

وحتى تبرهن على عمق الأثر المعماري لهرقلة أكّدت "فيليكس فور" على انتماء هرقلة للساحل المعروف بعراقة سكانه وكثافتهم وقدم استقرارهم مع ضعف نسبيّ لظاهرة البداوة والترحال. وتفسرّ ذلك بوجود عدّة عوامل ساهمت في تدعيم الحياة المستقرة الحضرية رغم قلّة الأمطار ورطوبة الهواء البحري. فكان السكن في الأصل يميل بصفة طبيعية للتشتّت والتباعد.

أمّا اقتصاديا فتربط الكاتبة بين المناخ شبه الجاف وقيام فلاحة كثيفة لقلّة موارد المياه ونضب الآبار المعتمدة في سقي الأجنة. وفي رأي "فليكس" لم تكن هذه العوامل الطبيعية تشجّع على تجمّع السكان بل إنّ الصدام بين السكان الرّحل والمستقرين وغياب الأمن الناجم عن هذه الهجومات هو الذي يفسّر تجمّع هذا الخليط من السكان في قرى مكتضّة. ولا يفوت متتبّع ما تقدمه الكاتبة غياب الدقّة في البعد الكرونولوجي عند تقديم ظواهر مرتبطة في الأصل بمراحل تاريخية دقيقة لا يستقيم دون ضبطها فهم مقاصد الكاتبة حتى أنّ القارىء يخال الحديث عن الصراع بين البدو والمستقرين في هرقلة مازال ناجزا للوقت الراهن .

تضيف "فيليكس" في نفس السياق أنّه رغم الاستقرار الضخم في هذه المنطقة من الساحل ووفرة الكروم فإنّ الإسلام – مرّة أخرى- دفع إلى العناية أكثر بزراعة الحبوب وتربية الماشية. لكن تبقى شجرة الزيتون عند "فيليكس" هي سبب شدّ الناس إلى الأرض

ودفعهم إلى الاستقرار. فالزيتونة تبقى هي خطّ الوصل التاريخي للساحل. ولا نخال ما تقدمه الكاتبة حول عناية أهل هرقلة بالكروم صادر عن دراسة ثاقبة فالتاريخ الشفوي ووثائق الأرشيف المدونة لبيع الزبيب في القرن التاسع عشر وفي فترة ما بين الحربين لا تتوافق مع ما ذهبت إليه الكاتبة من آراء لا تخلو من مجانية.

كلّ هذه الصور والأشكال جعلت الباحثة تنظر إلى هرقلة كمدينة بين البحر والزياتين فحدودها الطبيعية تجعل منها شبه جزيرة بعيدة عن المحاور الأساسية للمواصلات ومضغوطة فوق مجالها الصخري في أقصى خليج الحمّامات. أمّا من الجنوب والغرب فإن المدينة محاطة بمجال تضاريسي إلتوائي تكسوه غابات الزيتون. وفي المنخفضات سباخ وأوحال كثيرة يربطها جميعا قناة تغمرها المياه بصفة دورية، إذ تحيط بالمدينة إمتدادات السباسب الجافة بما فيها من بحيرات مالحة وسباخ. وتحفّ بهذه المجالات الوعرة مباشرة غابة الزياتين كحزام يطوّق المدينة تتخللها من حين لآخر أجنّة البقول والزراعات السقويّة المحاطة بعناية بطوابي وحواجز من الهندي.

ويبقى حزام الزيتون إحدى خصوصيات هذه الربوع. شجرة يعتني بها أهلها لزيتها. والزيت في منظومة إقتصاد الساحل التقليدي هو الدرّ والتبرّ الحقيقيين. إنّ ما عجزت "فيلكس فور" على النفاد إليه هو أنّ هذه الشجرة قد أعطت لمدّة طويلة الاستقرار للقرية بل للساحل بأكمله. فالزيتونة هي ركيزة دورة الإقتصاد الفلاحي البري، تشكّل محورا لجملة من الأنشطة والحرف اليدوية المتصلة بصناعة الشامية والسلاليم وغرابيل التذرية والمفروشات والأكياس وعربات الجرّ وجرار الفخار للخزن والتسويق... وقد كان ذلك وراء البحث على مواد كانت بالأمس القريب ركيزة إقتصاد الساحل كالحلفاء والفخّار والكتان والجلود والخشب هذا علاوة على التنشيط المباشر لصناعة المصوغ إستجابة لعقلية كاملة تعتبر أنّ المصوغ المحفوظ في البيوت هو ضمان وأمن للأسرة عند الحاجة في الأفراح وفي الأتراح.

وتواصل الكاتبة تتبع تطور التاريخ المحلي لهرقلة بأكثر حذر ممّا كانت في الفقرات السابقة. وتبلغ طور الثمانينات من القرن المنصرم فتبيّن أنّ الأهالي كانوا يعيشون بقدر هام من مردود الحلفاء وصناعةالشامية وهو ما يحدث توازن وتناسق في نمط العيش فيتوزّع مردود الزيتونة بين جموع ضخمة. وهي ظاهرة زالت تدريجيا

لدخول القرية عصر تعدّد الحرف والمهن. ومع ذلك تبقى الزيتونة في المستوى الفلاحي أحد الموارد الأساسية في الساحل عامة.

في متابعة تطوّر هرقلة ركّزت الكاتبة على اللّمحة الأخيرة من التحول من المشهد الفلاحي إلى المشهد الحضري، فعمدت إلى ربط شدة العناية بالتخوم وتحديد الأراضي بتقاليد إسلامية قائمة في البلاد العربية. غير أنّه لا يخفى على "فيليكس" أن مسألة التحديد هي أقرب إلى الفكر الوسيطي للمتوسط الشمالي وحضاراته منه إلى جنوبه. فمعلوم أنّ الغرب اللاّتيني والسكسوني على وجه الخصوص قد شهد حروبا كاملة جراء رسم التخوم في مراحل عديدة من العهود الإقطاعية وهي أطوار تزامنت مع إشتداد النظام الضرائبي ولا يهمّ أوروبا فحسب إنّما ظهر كذلك مع الفراعنة واليونانيين والرومان ثمّ برز بخصوصيات أخرى مع العرب والمسلمين وهذه مسائل لا تجدر إثارتها دون التسلّح بأدوات التحليل الكافية للسيطرة عليها بدل اتهام العرب والمسلمين بما لا تعلم.

وفي المقابل أصابت "فيليكس" في التنويه باتباع فلاحي هرقلة طريقة "البعلي الصفاقسية" في غراسة الزيتون باستبعاد الأشجار اثنى عشر مترا على الأقلّ حتّى تتمكّن الشجرة من النموّ بيسر والاكتفاء بمياه الأمطار واعتماد تهيئة بسيطة للانتفاع بالمياه المجمّعة وغراسة الأشجار. ثمّ تنتقل إلى فكرة أخرى تتعلّق بالتناسق بين ارتفاع الأشجار والمباني التي كانت في أقصى الأحوال لا تتجاوز علوّ الزيتونة ممّا يجعل النسيج العمراني مواصلة لغابة الزيتون فلا يحدث انقطاع للناظر في جمال المدينة لذلك فهي ترى أن التوسّع الحديث أقلّ انسجام مع محيطه ويهدّد باختلال التوازن في المشهد الفلاحي وعلاقته بالهيكلة الداخلية للنسيج الحضري.

أمّا حول تشكّل الفضاء الحضري فتعود الكاتبة إلى الحقبة الرومانية حين أسّست عائلة "كاييلي" Caeli المعروفة ببعث منشآت ضخمة لخزن الحبوب ومنه جاءت تسمية المكان بـHorrea Caelia بمعنى مخازن كاييلي، وذلك خلال القرن الثاني الميلادي فكانت هذه القرية تمثل حدّا بين "البيزاسان"(الساحل الكبير) و"الزوجيتان" (حاضرتي حضرموت -وهي سوسة فيما بعد- وقرطاج). وقد كان البيزسيوم مطمورة من مطامير روما لأهمية قموحها و نوعيته الجيدة. فقد كانت السفن تنطلق من الميناء القديم نحو روما محملة

بالزيوت وقموح سهول النفيضة الشاسعة. وكانت قبل ذلك تُدفن في حفر ضخمة في الغطاء الكلسي. والجدير بالذكر في هذا السياق أنّ تقنيات البحوث الأثرية سمحت بالكشف عن الكثير منها وما زالت هذه الإكتشافات الأولى تنتظر دعم جهود الباحثين لترفع عنها مزيدا من غبار القرون وهي دعوة نرفعها لأصحاب القرار للتسريع بإعادة الحفريات بين هرقلة والنفيضة.

وتضيف "فيليكس" أنّ البيزنطيين قاموا في القرن الرابع ببناء قلعة على قمّة الجرف ثم أحاطوها بالمباني، لكن أثناء الغزو العربي تمّ سحق كل المنشآت وإبادة السكان(هكذا). وتواصل الكاتبة دون الإشارة لمصادرها ومراجعها حوصلة تاريخ هرقلة فتذكّر أنّه في القرن التاسع في عهد الأغالبة تمّ ربط هرقلة بالمنظومة الدفاعية لرباطات السواحل، وأعيد بناء القرية بشكل بطيء حول الرباط مكان القلعة البيزنطية.

لقد ساهم الموقع الجغرافي لهرقلة في عزلها وانطوائها على نفسها فكانت تعوّل على طاقاتها المحلية لضمان البقاء واسترسال الحياة. وقد كان كل حيّ في القرية لعائلة يحمل اسمها. ويحتوي فضاء الحيّ على رحبة يتجمّع فيها الأهالي في سائر المناسبات ومقهى للرجال وآري للدواب على اختلاف أنواعها. وفي مكان الرباط القديم نجد ساحة "باب البلاد" بجامعها، في بوتقة شديدة الكثافة تشكّل في مجملها وسط المدينة وقلبها النابض وذلك إلى حدّ بناء الجامع الكبير في القرن السابع عشر ميلادي فكان ذلك وراء إنشاء المركز الجديد للقرية بساحة أوسع تحتضن في الوقت الراهن كلّ الأنشطة الإدارية والتجارية والتجمعات في المناسبات الدينية والاجتماعية.

في الأسفل على طول ضفاف البحر وعلى مدخل المدينة في إتجاه الميناء الجديد الذي تمّ تشييده في الثمانينات تبرز توسّعات عمرانية حديثة وهو ما يشكّل في نظر الكاتبة قطيعة مع النسق المعماري التقليدي، وفي الواقع فإنّ الأحياء الجديدة التي ظهرت نحو الجنوب الغربي لا تحجب النواة القديمة ولا تزاحمها في الفضاء لكنّ الإشكال يكمن في عدم إحترامها في كثير من الحالات للنمط المعماري المحلي.

وتعود "فيليكس فور" مرة أخرى للحديث عن النسيج الحضري لهرقلة، فتقرّ بأنّ تنظيم فضاء هرقلة يتضمّن مجمل

الخصوصيات الأساسية للمدينة العربية التقليدية، فعلى غرار "المدينة العتيقة" في تونس وسوسة تمثل الدار العنصر الأساسي في النّسيج العمراني لشبه الجزيرة مع شيء من الإختلاف بين مركز المدينة وريفها. ورغم هذا الاختلاف في المظاهر بين بعض الدور فإنها تتقاسم نفس الثوابت الأساسية:

- غرف للسكن تتميز بالطول مستقلة عن بعضها ندخلها عبر الفناء.

- فناء (وسط دار) تفتح عليه الغرف وهو فضاء ضروري يميل إلى التربيع في المدن وأكثر اتساعا ودون شكل هندسي دقيق في الأرياف. وعموما لا يسمح الاطلاع على السقيفة من بابها الرئيسي اكتشاف ما بداخل المنزل.

المهمّ أنّ الفروق بين نمطية دور المدينة وريفها ثانوي، فهيكل التخطيط السكني يبقى هو ذاته مع اختلاف بسيط يتمثل في المخطط. ومع ذلك يبقى التصميم غير منتظم في ديار الريف رغم إحتواءه على كلّ العناصر التي نجدها في المدينة.

وحول المشهد الحضري التقليدي لهرقلة، أرادت "فيليكس" أن تبيّن تحت هذا العنوان أنّ المدينة العتيقة تستقلّ بطابعها "الرّاقي" فالمساكن التقليدية عامّة تكون متداخلة وتمثل فيما بينها مدّا متواصلا من المباني التي تحفّ بالمدينة. فالفضاء الحضري يستمدّ خصوصيته حسب "فيليكس فور" من انفصاله في نمطه وطابعه عن النواة العتيقة للقرية. فقد أخذ الضغط يتزايد تدريجيا باستعمال مكثّف للفضاء ممّا أدّى إلى ظهور أعداد متكاثرة من المباني، فأضحى كأنّه معمور من الخارج على الطريق ويصبّ نحو الداخل. فيمكن أن نقرأ تاريخ النسيج العمراني للقرية من خلال درجة احتلال مختلف الأقسام التي تشكّله.

ثمّ تعود الكاتبة مرة أخرى للمجال القديم فترى بعين أخرى أنّه يمثّل فضاء متنوّعا ومنسجما في ذات الوقت. فالمنازل كانت غير متشابهة تماما لكنّها تتفق في الارتفاع والحجم فإلى حدّ خمس عشرة سنة إلى الوراء لم تكن هناك عديد البيوت بالطوابق إذ كانت المباني متواصلة ومبنية بنفس المواد تقريبا علاوة على قيام كافة العناصر الهندسية في السقف والمنافذ وترتيب عناصر البيت ممّا يخلق بين هذه المساكن انسجاما كبيرا. أمّا سور المنازل فكان يربط البيوت ويوحّد بينها وهو في الغالب بناء يؤكّد على أهمّية المشهد الحضري.

في قرى الساحل كانت قاعدة التعامل تقتضي استعمال المواد المتوفرة في نفس المحيط، لذلك كانت المنازل في هرقلة مبنيّة بالحجارة الكلسية وكانت في الغالب محميّة من الرطوبة بملاط من الجير ثم تطلى كذلك بالجير مما يسمح بحماية انخرام الجدران عبر السنين. أمّا الصخور الحثيّة grés البحرية فتستعمل لبناء أقواس الأبواب والقباب.

وفي المقابل تشكّل الجدران الخارجية الحجرية امتدادا لا يقطعه سوى الأبواب الجميلة من الخشب الكثيف فتضفي على القرية نبلا ووقارا.

وبعد أن فككت "فيليكس- فور" النسيج العمراني بكل جزءياته من الخارج انتبهت في الطور الأخير من بحثها للتنظيم الداخلي للدار التقليدية بهرقلة، فلاحظت الكاتبة أنّ تهيئة البيوت تتمّ على نفس المخطّط في كلّ المباني تقريبا بقطع النظر عن أصل ومكانة صاحب المنزل، فالمخطّط لا يستجيب للإمكانيات الاقتصادية وإنما هو نتيجة لواقع حضاري ريفي وحضري في ذات الوقت.

بخلاف شكله وتنظيمه للفضاء فالمنزل هو مصدر الظاهرة العمرانية فيعطي نمطه للنسيج الحضري. فهذه الدار هي في ذات الوقت مفتوحة على الحياة الجماعية بصلتها المباشرة بالطريق العام. كما أنها منغلقة أيضا على نفسها تستر الحياة العائلية. ويتمّ الانتقال من الخارج إلى الداخل تدريجيا عبر أسوار متعاقبة وحدود لا تظهر أحيانا فتحافظ على الودّ الداخلي للأسرة.

يكون الفناء (وسط الدار) عاريا وتبنى حوله كلّ عناصر المنزل لكن هذا الفناء ليس خصوصية المعمار العربي فالمنزل الروماني والاغريقي ينتظمان أيضا حول فضاء داخلي وسطي. وكان من المفروض هنا أن تضيف الكاتبة أنّ الفرق بين المنزل الإغريقي والروماني من جهة والمنزل العربي الإسلامي من جهة أخرى هو الدور الإجتماعي ذلك أن البيت الأول أسريّ ضيق في سياق معمار عسكري يتوسع عند الإقتضاء بالبناء العمودي بينما يشكّل المنزل العربي وحدة فضائية عائلية مدنية مستقلة بصفة كاملة عن سائر الأدوار الدفاعية وغيرها كما يمتاز بشديدة الإتساع ويضم أحيانا ثلاثة أجيال في مجال واحد.

ومن موقع اختصاصها، تحدّد "فيليكس" نوع المعمار الهرقلي فتصنفه ضمن التصوّر "الباتريياركالي" (الأبوي) وهو الذي يذكّر بتجمع النواة العائلية حول الجدّ أو الأب في فضاء موحّد. وهي نظرة إلى الفضاء نحو الداخل الموسوم بالودّ في البيت الإسلامي وتنتهي الكاتبة إلى نتيجة غريبة وهي أنّ هذا فضاء يستجيب للظروف المناخية ويتلاءم مع الفصول الأربعة. وكان حريّ بالكاتبة أن تجد مصدر هذا الودّ في بعد الحنين والعلاقات الإنسانية والمدنية على عكس المدينة الرومانية العسكرية المتأزمة بحكم إرتباط بقاءها بشرط دوام المجتمع الحربي.

تقليديا يضمّ هذا المنزل عديد الأجيال من نفس العائلة وتكون غرفة السكن طويلة وقليلة العرض تحيط بالفناء ويتزايد عدد الغرف كلما ازدادت أسر العائلة. فبمجرد اقتناء قطعة أرض يبني المالك جدار السور الذي يحدّد فضاءه الخاص ويشيّد مباشرة الجناح الأوّل للمنزل. ثمّ عند بلوغ الابن سنّ الزواج يبني غرفته وهي عبارة عن جناح آخر... وهكذا مع كلّ جيل إلى أن تغلق الغرف دائرة الفناء. وفي الحقيقة يتمّ تصوّر السكن التقليدي منذ البدء كفضاء غير مكتمل قابل للتوسّع ويكون المنزل قائم الذات منذ بناء الجدار الخارجي. فهو الحاجز بين الفضاء العمومي والفضاء الخاص فيعطي للساكن الراحة والودّ والأمن.

إن التنظيم الإجمالي لفضاء المنزل يعكس تنظيم المجموعة العائلية في حدّ ذاتها ويمتاز بتعدّد وظائفه.

أما في الفصل الموالي من هذا البحث فإنّ "فيليكس-فور" ستهتمّ بعناصر الدار بشكل دقيق فتؤكّد أنّ كلّ منزل يحتوي بالضرورة على :

- مدخل في الغالب يكون وحيدا ويؤدّي إلى "السقيفة" وهو فضاء مغطى يؤدّي بدوره إلى الفناء (وسط الدار) من فتحة تبنى بطريقة تمنع الفضوليين من الاطّلاع من الخارج على ما في الدار تماما. وقد تقتصر السقيفة على جدار يمنع الرؤيا إلى الداخل. أمّا إذا كان الاقتصاد العائلي فلاحي فإن السقيفة تأخذ حجما هاما فيوفر مخابئ للحيوانات والمعدّات مع المحافظة على دوره في ضمان البون مع العالم الخارجي.

والفناء (وسط الدار) هو فضاء اجتماعي بدرجة أولى يمثّل مكان الالتقاء الجماعي العائلي. فكلّ الأعمال التي تقوم بها المرأة أثناء النهار من غسيل وإعداد الأطعمة وصنع "الشامية" وغيرها من الأعمال الحرفية كانت تدرو في هذا المجال. فهناك عائلات كثيرة كانت لا تملك سوى غرفة واحدة للوالدين والأبناء فيتمّ الالتجاء إليها عند نزول الأمطار أو عند اشتداد الحرارة. وليس هناك نظام واحد لترتيب الغرف حول الفناء فيمكن أن تحتلّ واجهة أو اثنان أو حتى أربعة واجهات وعلى هذه الغرف يتمّ تزويق الواجهات برسوم تنقش بالملاط أو بأنواع من المربعات المطلية (الزليج المزخرف).

في الغالب لا يكون الفناء مربعا وتبقى عادة غير مبلّطة لا سيّما في الأوساط الريفية. كما أن مساحة وسط الدار تكون هامة وكثيرا ما يتمّ اقتطاع جزء منها لوضع واقي للحيوانات.

في ركن من الفناء فضاء مسقف يصلح مطحنا وآخر مرصف بأعواد الأشجار خاصة الزيتون يصلح اصطبلا للبقرة والحصان وكذلك الجمل، كما يمكن بناء مساقف تصلح لخزن التبن والعلف ومعدّات الفلاحة وهي غير المخزن المعدّ بصورة أساسية لخزن الزيوت والحبوب.

يبنى المخزن عادة في أحد الأركان ملاصقا للغرف خاصة غرفة الأب ويمكن أن تقدر ثروة العائلة من خلال حجم مخزنها. فتهيئة وسط الدار وتزويق واجهة الغرف مع حجم الفناء والمخزن هي علامات تطويع للمحيط.

أمّا جناح النظافة والطبخ، فيقتصر على فضاء محدود لبيت راحة ومطبخ في أحد أركان الفناء بعيدا عن غرف السكن. وبالنسبة لهذه الغرف فتكون طويلة بين 6 و10 أمتار ولا يتجاوز عرضها المترين أو الثلاثة وترجع قلّة العرض لقصر خشب الزيتون الذي يحمل السقف. نجد داخل الغرفة في كلّ ركن سدّة ودكّانة الأولى للمؤونة والثانية للنوم. يكون الباب في الوسط ونجد عادة في كل جهة شباكا صغيرا من الحدادة الفنية التقليدية ويتمّ غلق النوافذ من الداخل بأبواب خشبية وغالبا ما يستعمل الأهالي ستائر على كلّ النوافذ لتيسير حركة الهواء.

يحتلّ وسط الغرفة أثاث خفيف الحمل :حصائر وجلود خرفان ووسادات ويمكن بسهولة توظيف هذا الفضاء لعدّة أهداف حسب الظروف والمناسبات.

لحفظ الأمتعة والأدبشة وتنظيمها نجد خزائن مبنيّة في الجدار. كما يعتمد السكان "التاج" وهو عود من الخشب يتمّ وضعه في الدكّانة لتعليق الأغطية الصوفية وغيرها.

قد يعتمد بعض السكان إقامة مبنى يطلّ على الخارج في أحد أركان المنزل ليكون حانوتا للتجارة أو ورشة أو مكتبا وربّما تكون غرفة استقبال للضيوف الغرباء ممن لا يمكن أن يندمجوا في الحياة العائلية. إنها غرفة خارجية تجسّم مكونات المسكن الهرقلي.

بالنسبة للسقف هناك نموذجين يميزان كامل الساحل ففي الاصل كان السكان يعتمدون خشب الزيتون و العرعر ويبسط فوقها الغصون والحصى ثم يُردف بأفق من الأتربة فيتمّ سبطها بشدّة ويُطلى جميعها بقشرة سمكة من جير الأفران المحلية. وتتمّ صيانة السقوف بإضافة غشاء من الجير المميع ذلك أن أتربة السقوف تكون عرضة للتفكك لشدّة الحرارة والجفاف. في الوقت الراهن احتلّ الآجر المطبوخ وأركان الاسمنت المسلّح مكان السقوف العتيقة. كما أنّ اعتماد السقف المقبب رائج رغم أنه لا يظهر دائما إذ يختفي وراء جدران السطوح وهذا السقف المقبب مبنيّ في الغالب بالحصى المندمج في ميلاط الجير وأحيانا بالآجر أو قطع الكلس المورّق.

قطعا فإنّ تكاليف هذا السقف أرفع من الأولى لكنّها تمتاز بقدرتها على تكييف الهواء وتلطيفه. في كلّ الحالات فإنّ فنّ بناء السقوف لا يعتبر عنصرا معماريا متميّزا وخارجا عن المنظومة.

أمّا في القسم الموالي من بحثها في معمار هرقلة فإن "فيليكس- فور" تدعو إلى إعادة التصالح مع الهوية. فهي ترى أنّ هناك أزمة هويّة نحسّ بها في نطاق الإبداع المعماري. هذه الظاهرة تبدو جليّة في البناءات الحديثة أو عند ترميم البيوت القديمة. ففي المركز القديم للقرية يظهر البناء بالطوابق كمظهر رئيسي لفقدان الوضوح في انسجام المشهد الحضري. هذه الطوابق العلوية المبنية حديثا خلقت قطيعة مع الشارع والمسجد والمباني الأخرى التي بقيت ملتزمة بالأفق الأوحد.

إن هذا التمشّي حسب الكاتبة سينتهي بفقدان وحدة الهندسة المعمارية مع ما تقدّمه المواد الحديثة للبناء في لونها وطبيعتها وشكل سقوفها، مما يؤدّي إلى تشويه الواجهات. فهذا التطوّر في تناقض تام مع المعمار التقليدي. فلم يبق إلى حدّ اللحظة سوى تلك الأبواب الخشبية لتضفي على الفضاء زينة وتمثّل "العلامة" الوحيدة مع الجدران المطلية بالجير الأبيض لارتباط المدينة بماضيها.

وفي الختام ترى الكاتبة أنّه في مجتمع تونسي آخذ نحو التحول فإن تغيير العقليات يتوجه بالمجموعة نحو "انفرادية" حديثة لذلك فإن الوضع الاجتماعي الاقتصادي الذي يتطوّر نحو تنوّع الأنشطة وبالتالي المداخيل إلى جانب درجة التمدرس العالية للأجيال الجديدة وما أتت به التقنيات الحديثة، كلّها عوامل تؤثر على الدار الهرقلية وتنزع عن الفرد تلك السيطرة على كيفية بناء منزله.

فمظهر القدم وانعدام الرفاهية للمنزل التقليدي بالفناء الواسع في طريقه إلى الانقراض مقابل ظهور نمطية جديدة للمنازل "العصرية" المبنية على النموذج الغربي وهي سبب هذه القطيعة فقد انتهى الشأن لاختيار بيوت غير ملصقة من الجهات الأربعة بتخصيص ما لا يقلّ عن متر ونصف المتر ليكون حديقة. هذه الفيلات المقتبسة عن النماذج الأجنبية. ورغم ذلك فإنّ ظاهرة التباهي بالواجهات ومفهوم وسط الدار قد عاد في التنظيم الجديد للفيلات باسم "الوسطية" حيث أن غرفة الصالون التي تسيطر على كافة الغرف الأخرى تتّجه نحو تعويض "وسط الدار العربي" لكن دون الارتقاء إلى لعب كافة وظائفه خاصة وأن البيت القديم مفتوح على السماء من الداخل كفضاء الصحراء الرحب المنفتح على قبة الكواكب حسب قول "د. سيبوني". إننا نحسّ بالعودة لهذا الميل في الأحياء الجديدة الشعبية أكثر منه في الأحياء التي احتلها المصطافون على مقربة من الشاطئ. وهذا التوجه أيضا ملموس في مركز "المدينة" العتيقة الذي نسفت جماليته التوسعات الأفقية والاستغناء على المنازل القديمة أو إعادة بناءها على النمط الجديد.

إن الفقدان التدريجي لهذا التراث الحضري والمعماري هو تهديد لتوازن التجمع السكني ولمستقبله. لذلك يتعيّن بالضرورة قلب هذه التوجهات والوعي بأن نجاح الجهة في نهضتها السياحية الراهنة يخضع لمدى إيلاء العناية لتنوع هذا المشهد الحضري المعماري وليس بنسفه. لذلك لا بدّ من إعادة الاعتبار للمدينة لتكون في مستوى رفيع. فيكفي المحافظة على طابعها الذي انبنت عليه هويتها مع السعي لإيجاد تصور عصري لجمال هندسية معمارية تقليدية حتى يتحقق الاندماج بين القرية الموروثة عن الأجداد والمدينة الحديثة التي نحلم بها.

وتتساءل الكاتبة في الأخير إذا كانت هرقلة ستنجح في صيانة تراثها من الضياع غير القابل للعلاج والإصلاح وذلك بالعمل على الأخذ من معين هندستها المعمارية المحلية بما فيها من خصال تهيئتها لتنمية راقية ؟

وهل ستتمكن هرقلة من إنجاز تنمية سياحية لتكون عماد دعم هويتها والتأكيد على طابعها الاستثنائي المحلي؟

إنّ هرقلة التي يدعونها "سيدي بوسعيد" الساحل تتمتع بمحيط رائع محمي من السياحة الكثيفة، فهي قادرة على تقديم النموذج في هذه المنطقة من البلاد التونسية. لكنّها كغيرها من أقاليم الساحل المتوسطي تتجه شيئا فشيئا نحو فقدان أصالة الخصوصية التي كانت تتميّز بها.

ولعلّ الكاتبة بهذه الخاتمة ترفع عقيرتها لتصيح في آذان من لهم سلطة القرار فيما يهمّ المصير المعماري لهرقلة بأن يراعوا عند وضع برامج التهيئة وعند إسناد الرخص المحافظة على ما تبقى للقرية / المدينة من جمالية رسمتها القرون الطويلة في إبداع فيه تناسق بين البناء والبيئة البحرية والفلاحية.

وبعد، هل يمكن أن ترتقي ريشة أيّ فنّان مهما كانت كفاءته لرسم تلك السنفونية وذلك التجانس بين مختلف عناصر المعمار التراثي لهرقلة وهي تتباهى على ربوتها فتضفي مسحة من الحنين المشحون بالحبّ والصدق على أهاليها.


وإذا ورد في بحث "فيليكس-فور" ما استوجب التعقيب والتعليق فإنّ جوهر هذا العمل رصين وصائب ينفذ إلى أعماق الداء الذي ينخر قُرانا ومدننا العتيقة وهي تشكو من الاعتداء على مكوّنات شخصيتها بتشويهها وإدماج عناصر لاتوافق بنيتها وجسمها. فإذا كان ما تقدمه الكاتبة صالحا في هذه المرة في معالجة واقع هرقلة المعماري فإنّه صالح ألف مرّة لتقديم وصفة الشفاء لسائر أقاليم الساحل المعمور بل لكلّ أرجاء بلادنا الزاخرة بقرى ومدن هي بحق مخازن للتراث العربي الإسلامي والإنساني عامة.

عبدالحميد الفهري
مركز سرسينا للبحوث
في الجزر المتوسطية



محمّد الطاهر المنصوري

مدينة هرقلة التونسية في العصر الوسيط





محمّد الطاهر المنصوري،(كلية الآداب بمنوبة)

مدينة هرقلة التونسية في العصر الوسيط

إنّ تاريخ هرقلة كمدينة صغيرة وفي إطار ندوة محليّة يضعنا أمام مسألة من المسائل الحسّاسة وهي مسألة التاريخ المحلّي إذ ينظر إليه الباحثون على أساس أنّه تاريخ كاشف لأمجاد الماضي الضيّق، فما من أحد يتحدث مدينة عن إنتسب إليها أو عن تاريخ مجموعة بشرية منها إنحدر منها إلاّ وسعى إلى إبراز جوانب يعتقد أنّها من الجوانب الناصعة التي يجب إبراز إشاعتها بين الناس. وفي كثير من الحالات يختلط الأسطوري بالحقيقي ويختلط الموقف العاطفي بالواقع في الماضي. وما من أحد حاول أن ينظر إلى التاريخ المحلّي بنظرة المؤرخ الأكاديمي الذي يسعى من جهته إلى إستكشاف الماضي بصورة عامة باعتماد آليات أكاديمية تسعى إلى مساءلة الماضي بدون أن تتحلى بالعواطف المساندة أوغيرها، إلاّ ووجد نفسه في بعض الحالات أمام مواقف السامعين أو القرّاء الرافضة للتاريخ كعلم ينبش الماضي ويسعى ليستلهم منه العبر والدروس.

وهذه المواقف الملطّفة للماضي تعبّر عن خطورة التاريخ المحلّي وعن صعوبة إقتحامه. فمن الناحية العاطفية يرى أهل القرية أو المدينة أو المجموعة البشرية المعنية بالبحث أنّ التاريخ المبحوث فيه هو تاريخ الرضا والنعمة والصورة البيضاء الناصعة. إذ كثيرا ما نبحث في التاريخ المحلّي وفي التاريخ عموما عمّا هو محبب لتزيين الحاضر وهو ما يجعل المؤرخ الأكاديمي في موقف صعب، إذ عليه أن يتلائم بين ما يجب أن يقال إعتمادا على المصادر وما يراد له أن يقال. ومن هنا نجد أنفسنا عموما وعند دراسة تاريخنا في موقع الملامس لهذا الماضي إنطلاقا من مبدإ "وأذكروا موتاكم بخير" كما لو أنّنا، عندما ننظر لهذا الماضي، يجب أن لا ننسى هذا الأمر الأخلاقي الذي يدفع ببعض الناس حتما بصورة واعية أو لا واعية إلى تقديم صورة ناصعة عن الماضي دون محاولة نبشه واستقراءه واستنطاقه بجرأة وموضوعية على غرار ما يقول المفكّر الفرنسي

دي فنيلون(De Fénelon) " لا ينتمي المؤرخ إلى مكان أو زمان محددين، وهو أن أحبّ بلاده فلا يجب أن يزيّف تاريخها"[1].

تتطرح مسألة ومسألة التاريخ المحلي الإنتماء إلى المجال الضيّق والانتساب إلى رقعة محددة هي الجهة، المدينة والقرية أو القبيلة في المناطق ذات البنى القبلية الموروثة والتي لم تستطع أن تنصهر في إطار جغرافي وإنّما حافظت على الشعور بالإنتماء للدم الواحد. لذلك نلاحظ أنّه كلّما وقع حديث عن مدينة أو جهة إلاّ وكان النّاس ينتظرون حديثا متوقعا يسعى إلى تلميع صورة المدينة أو المجموعة أو العائلة وذلك في إطار المنافسات المحليّة وتشبّث الناس بهذا الإنتماء الضيّق أو ذاك، حتى أنّ تاريخ المدينة الواحدة أو القرية أصبح يلعب دور المعرّف للفرد أو للجماعة.

ولعلّ مسألة حضور المدن أو غيابها من المصادر يجعل البعض يتسائل عن مثل ذلك، فمدينة كهرقلة، رغم عراقتها ورغم تجذّرها في أعماق التاريخ المتوسطي والتونسي تبدو قليلة الحضور في نصوصنا الوسيطية. ولا يعني ذلك أنّها عديمة الوجود المادي وإنّما ذلك راجع إلى إهتمامات الروّاة وطبيعة الكتابة التاريخية. فلو نظرنا للروايات التاريخية فهي في أغلبها روايات مهتمّة بالتاريخ السلطاني أي أنها تكتب كلّ ما يتعلّق بتحركات السلطان سواء كانت عسكرية أو حتى ترفيهية، لذلك لا تهتمّ بما يحدث في المناطق والمدن إلاّ إذا كان ذلك مرتبطا بحركة السلطان وبانجازاته وحروبه وجبايته إلى غير ذلك من الأمور.

أمّا إذا تصفحنا كتب الرحلة فتجدنا أمام أمرين: أوّلا أنّ الرحّالة لا يتحدّث إلاّ عن المناطق التي مرّ منها أو التي بلغه ذكرها، ثانيا فهو لا يستطيع تقديم صورة حقيقية عن المناطق التي مرّ منها، وإنّما يقدم إنطباعا كثيرا ما يكون محفوفا بالظروف التي حملته على هذا المكان أو ذاك. وبالتالي تبقى أخبار الرحّالة من باب أخبار الإنطباع أكثر منها من باب الاطّلاع.

---

[1] « l'historien n'est d'aucun temps ni d'aucun pays, quoiqu'il aime sa patrie il ne la ménage en rien »

ولعلّ الرحّالة التيجاني(أبو محمّد عبدالله محمد بن أحمد)[2]هو من الذين تحدثوا بإطناب عن مدينة هرقلة أو كما يسميها "أهريقيلية". وعند حديثه عن هرقلة يورد التجاني جملة من المعلومات المتعلقة بالمدينة من حيث الموقع والسكّان والتاريخ. فهو يقول" وهي قرية كبيرة على سفح جبل، مشرف على البحر وأهلها يزعمون أنهم من العرب"[3]. فهو الذي زار المنطقة ويحدّد موقها الجغرافي بين البحر وما سمّاه الجبل. كما يصفها بأنها قرية كبيرة ووصفه قد لا يختلف عن الوصف العام الذي قدّمه الرحالة المغربي المعروف بالعبدري، والذي تحدّث عن أغلب مدن البلاد واصفا إيّاها بأنّها قرى أو بليدة مثلما هو الشأن عند حديثه عن مدينة الحمّامات التي مرّ بالقرب منها ولم يدخلها لما "سمع من الضعف عنها"[4].

ومن بين ما يثير الأنتباه ما قاله التجاني أنّ سكّانها يزعمون أنهم من العرب. وهذا الرأي فيه تلميح إلى إنتشار ظاهرة الإنساب إلى البربر لما لهم من سلطان مرتبط بالعائلة الحفصية والإنتساب إلى العرب لما لهم في ذهن الناس من فضل في أسلمة وتعريب البلاد. أمّا ما بقي من نصّ التيجاني فهو تذكير بفصل من فصول تاريخ البلاد الذي لعبت فيه هرقلة دور المسرح الذي دارت فيه بعض الأحداث الدامية والتي كادت أن تغيّر مجرى الأحداث، وهي مرحلة الصراع الخارجي-الشيعي والمتمثّل في ثورة أبي يزيد صاحب الحمار ضدّ سلطة الخليفة الفاطفي، أبوالقاسم القائم بأمر الله[5]. ومن بين الفصول الهامة لهذه الحقبة هي إعتصام القائد الفاطفي، بشري الصقلبي بقلعة مدينة هرقلة وتمكّنه من الانتصار على القائد الخوارجي أيوب بن خيران الزويلي[6].

وممّا يجب إستنتاجه من هذه الأحداث هو أنّ المدينة، وإن لم تكن طرفا في الصراع إلاّ أنّ الظروف فرضت عليها ذلك. وقد تكون هرقلة تضررت بشريا واقتصاديا ونفسيا من ذلك. ولعلّ ذلك يفسّر

2ـ أنظر تعريفه في تقديم حسن حسني عبد الوهاب"رحلة التيجاني، تونس- ليبيا، 1981 ، ص كه- كو".

3- التيجاني ، رحلة ، سبق ذكره، ص 24.

4- العبدري، الرحلة المغريبية، تحقيق أحمد الفاسي، الرباط، 1968.

5ـ التيجاني، الرحلة، ص 24-25.

6- التيجاني، الرحلة، ص 25.

مساهمة سكّان المدينة في آخر الأحداث وذلك بقتل الأسرى الخوارج بالعصيّي على حدّ تعبير التيجاني[7]. وهو موقف قد لا يكون إراديا بقدر ما يمكن إعتباره موقفا وقائيا. وبعد إنتهاء المعركة وهزيمة جيش أبي يزيد، زار هذا الأخير المدينة لمشاهدة مكان المعركة والتّرحم على أرواح الذين ماتوا من جيشه ودفنهم[8]. ويتصوّر المؤرخ صعوبة الموقف الذي قد يكون عليه الأهالي سواء أثناء المعركة أو بعد إنتهاءها.

فما نلاحظه هو رغم بعد المدينة نسبيا عن المسالك الكبرى، فقد فرضت الأحداث بروزها والمشاركة فيها وهو ما جعل التيجاني يذكّرنا بما جدّ بها من وقائع كلّما سمح السياق بذلك.

ولعلّ كتب الجغرافيا هي التي فسحت المجال لمدينة هرقلة للبروز، فالبكري وفي معرض حديثه عن المراسي الموجودة على سواحل إفريقية يذكر مرسى مدينة قليبية التي يصفها بأنّها "مدينة كبيرة آهلة ثمّ المرسى المدفون وهو بحر صعب وكثيرا ما تعطف فيه السفن ثمّ مرسى قصر ابن عمر الأغلبي ثمّ مرسى مدينة سوسة..."[9]. فما نلاحظه هو أنّ البكري لا يتحدّث عن مرسى مدينة مثل ما هو الشأن بالنسبة لقليبية أو سوسة وهما المدينتان الهامتان على الساحل الشرقي لافريقية، وإنّما يتحدث عن مرسى هرقلة ومرسى مدفون. وقد يكون عدم تعرضه لوصف أو لذكر بعض ما يميّز هذه المراسي دليلا على صغر هذه المدن التي انتسبت إليها هذه المراسي. ولعلّ هذا الذكر المستعجل لمرسى هرقلة دليل على أنّ المناطق أو القرى التي ذكرها ما تزال قرى صغيرة لم تبلغ من الأهمية العمرانية ما بلغته مدن أخرى. كما أنّ أهميّة الملاحة لم تكن ذات بال وهذا ما يظهر من خلال المرشدات البحرية فيما سيأتي من الزمن.

وقد إهتمت المرشدات البحرية الأوروبية والعربية بأماكن الارساء وهي إن تتحدث عن مواني ومدن الساحل التونسي اليوم مثل المهدية وصفاقس وسوسة وقليبية، فهي تغافلت عن ذكر بعض المدن الصغيرة والمراسي المحلية التي لم تكن مقصدا من مقاصد السفن

7- التيجاني، الرحلة، ص 25.

8- التيجاني، الرحلة، ص 25

9- أبو عبيد البكري ص 84.

لأسباب عديدة منها ما هو سياسي إذ كثيرا ما كانت الدولة تحدّد للسفن الأوروبية القادمة لإفريقية موانيء الإرساء بصورة مسبّقة حتى تستطيع التحكّم فيها ومراقبتها وهو ما يجعل صناع المرشدات البحرية لا يهتمّون بمواني ليس لهم فيها حقّ الإرساء[10]. كما أنّ عدم ذكر مثل هذه الموانيء ربّما لأنها لم تكن تملك الفضاء الضروري لإرساء سفن التجّار أو حتى سفن القراصنة. كما يمكن أن نلاحظ أنّ مدينة هرقلة منحصرة بين مدينتان تبدوّان وهما مدينة الحمّامات – والتي تطلق عليها النصوص الأوروبية محمّدة/Moamétta[11]- في الشمال ومدينة سوسة في الجنوب. وإذا كانت مدينة الحمّامات أو مرسى الحمّامات تقع قرب الطريق الرابطة بين تونس وسوسة فهي محطة إرساء ثانوية ولكنها كانت في بعض الأحيان تلعب دور الميناء الشرقي لمدينة تونس، إذ كثيرا ما ينزل المسافرون القادمين من الشرق بمدينة الحمّامات ويواصلون رحلتهم برّا إلى تونس مثلما ذكر ذلك خالد ابن عيسى في بداية القرن الرابع عشر[12]. كما كانت تؤمّها بعض السفن الإطالية والقلطانية لجوءا من عواصف البحر أو هجوما قرصاني، بحثا عن الربح خاصّة في القرن الثالث والرابع عشر.

في حين كانت سوسة ميناء هاما منذ العهود القديمة، وتميّزت في العصر الوسيط بانطلاق الحملات العربية الإسلامية في إتجاه صقلية وجنوب إيطاليا وغيرها من جزر المتوسط. كما كانت ميناء هاما ومقصدا من مقاصد السفن بأنواعها المختلفة. وبهذه الصورة وقع تغييب المدن الصغيرة والقرى مثل هرقلة، أي أنها خضعت لذيوع أسماء المدن الهامة وهيمنتها. ولم يكن هذا الصمت خاصا بالمرشدات البحرية الأوروبية الغربية، بل نجده أيضا لدى نفس النوعية من المصادر ذات الأصول البيزنطية. فهذه الأخيرة تحدثت عن مدن مختلفة من الساحل الشرقي لإفريقية من أقصى الجنوب إلى أقصى

10- Cf. M. Tahar Mansouri, « Sousse et ses relations avec le monde méditerranéen au Moyen-Age » in Colloque du *Bysacium au Sahel* :Itinéraire d'une région tunisienne, organisé par le Département de la Faculté de Lettres de Sousse (4-5-6décembre 1996) ,l'Or du Temps ,Tunis 2000.

11- Cf. M.Taher Mansouri, Hammamet Histoire d'une cité méditerranéenne, Med édition, Tunis 2000.

12 –Ibidem.

الشمال، وتعرضت لها في كثير من الحالات بالوصف الطبيعي والاقتصادي كما هو الشأن بالنسبة لجرجيس، وقابس وصفاقس ورأس كبودية والمهدية وسوسة والحمامات وقليبية وقرطاج وراس الجبل وبنزرت وطبرقة وغيرها من مدن الساحل. ولعلّ المرشدات البحرية كانت تعيد في بعض الأحيان ما ورد في النصوص التاريخية من أخبار موروثة كالحديث عن راس كبودية (Caput Vada) وهو موقع في الإنزال العسكري الذي قام به الجينيرال البزنطي بليزار (Bélisaire) [13] سنة 533. ولا يمكن أن يكون ذلك إلاّ بفعل الذاكرة التي تحتفظ في أغلب الأحيان بالأخبار المجيدة متناسية ما لا يروق لا للسامع ولا للقارىء.

أمّا الإدريسي فهو يتحدث عن اهرقلية[14] وهو ما يتماشى وما سيذكره التيجاني عند حديثه عن الصراع الفاطمي الخوارجي وهو يدلّ على وجود حصن أو رباط بالمدينة هذا إذا لم تكن المدينة محصّنة بأسرها. كما يذكر مقديش وهو ينقل عن الإدريسي حرفيا أو يكاد، بأنّ حصون المغرب الأدنى حصن هرقلة[15]. وهذه الصورة التي تركها ليون الأفريقي تدلّ على التدرج الذي عرفته المدينة منذ العهود القديمة إلى القرن السادس عشر، فيقول "بأنّها مدينة صغيرة بناها الرومان على ربوة قرب البحر وخرّبها الأعراب"[16]. فلئن نسب ليون الافريقي بناء المدينة إلى الرومان ونسب خرابها إلى الأعراب فهو أمر يحتاج إلى تعليق. فمن ناحية الحجم هي مدينة صغيرة وبالطبع لا يمكننا أن نفهم صغر حجمها إلا بالقياس لما كان يعتبره صاحب النص حجما صغيرا. ولكن واقع الأمر أنّ المسألة تبقى نسبية من ناحية المرجعية العمرانية الأوروبية التي يستند إليها ليون الافريقي ولعلّها هي التي تتماشى مع ما ورد عند سابقيه من العرب الذين وصفوها بالحصن وبالمدينة والمرسى. وكلّ ذلك يعكس اهتمامات مختلفة ومرجهيات متعدّدة للذين تحدّثوا عن هرقلة. وهو ما لا ييسر مهمّة الباحث في رسم صورة مقاربة لواقع المدينة التاريخي. كما أنّ ليون

---

13 – M. Taher Mansouri, « Présence bysantine en Afrique »in Dossier d'Archéologie, n° 268,Dijon, novembre 2001.pp.2- 11.

14– الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الأفاق، طبعة ليدن، ص125..

15– محمود مقديش، نزهة الأنظار في عجائب الأخبار، تحقيق البشير البكوش دار الغرب الاسلامي ، بيروت 1983. ص415.

16– ليون الافريقي، وصف افريقيا، ج2،ص83.

الافريقي يكتب من زاوية أوروبية مسيحية لم تكن لتعترف للثقافات الأخرى بحقها في الندية ولا حتى بحقها في الوجود في ذلك العصر وربّما حتى في عصرنا هذا.

ففي كلّ الحالات لا تبدو مدينة هرقلة اليوم مدينة هامة في العصر الوسيط وهو ما يسمح بالقول بأنّ الظاهرة العمرانية التي كانت مزدهرة في العصور القديمة قد تقلصت بفعل التغييرات التي عرفتها منطقة إفريقية وغيرها من المناطق الأخرى من بلاد المغرب خاصة فيما سمي بالعصر الوسيط المتأخر. ولعلّ قلّة ذكرها من طرف الرواة راجع أساسا إلى عدم احتلالها موقعا متميّزا ضمن شبكة المسالك البرية والبحرية وهو ما غيّبها من نصوص أغلب الرحّالة. كما أنّ غيابها من الرويات التاريخية قد يكون راجعا إلى عدم تعرّضها إلى هزّات سياسية أو عسكرية سواء في فترة الفتوحات أو في الفترات اللاحقة وخاصة تلك التي عرفت بعض مظاهر الفوضى والاضطراب مثلما رواه عنها التجاني في العهد الفاطمي. وحتى مؤرخي الرجال مثل المالكي فهو يذكرها لماما إذ ترد مرّتين في "رياض النفوس" ففي المرّة الأولى ورد ذكرها عند الحديث عن اسماعيل الجزري وهو عابد خرج من سوسة إلى أن وصل على قدميه حتى صار بين المدفون وهرقلة17. والهدف من الرواية التي رواها المالكي ليس الحديث عن هرقلة وإنّما عن كرمات إسماعيل الجزوري الذي طوى مسافة هامة على القدمين ونام ومرافق له بدون غطاء في ليلة باردة فلم يشعرا بالبرد لأنّ غطاء لقهما من حيث لا يعلما. كما ينسب نفس المصدر أحد العلماء الزهاد إلى مدينة هرقلة ولو أنّ الرجل من أصل أندلسي وهو أبو زكرياء الهرقلي الذي عايش سحنون وصاحبه ولم يفارقه إلاّ لأنّه تقلّد القضاء18.

مهما كانت المعلومات المحدودة التي نتقلصها من مختلف النصوص، فإنّ واقع العصر الوسيط تميّز في أغلب مراحله بانكماش الحياة السواحلية. ففي الفترة الأولى، خاصة في عهد الأغالبة، تميّزت حياة السواحل بالاحتراس وبناء الرباطات، لمراقبة البحر وما قد يأتي منه من عداء غير منتظر وإن كان متوقعا. وفي الفترة المتأخرة

17_ المالكي ، رياض النفوس، تحقيق لبشير البكوش، دار الغرب الاسلامي، بيروت، 1983، ج1ص340.

18_ المالكي رياض انفوس، ج1،ص415.

تميّزت الحياة بالمناطق القريبة من البحر بالخوف والركود نتيجة تعرّض هذه المناطق إلى غارات متتالية يشنها من حين إلى آخر القراصنة القطلانيون أساسا[19]، لذلك تظلّ الفترة الوسيطية، لا في هرقلة فحسب، وإنما في أغلب المدن والقرى التي حجبت عنّا النصوص أخبارها نظرا لظروف الكتابة ونوعيتها، في حاجة إلى العلوم السائدة مثل التنقيب والحفريات الأثرية التي يقودها باحثون من ذوي الاختصاص والخبرة، لكي تكشف هذه المدينة بذاتها عن ذاتها.

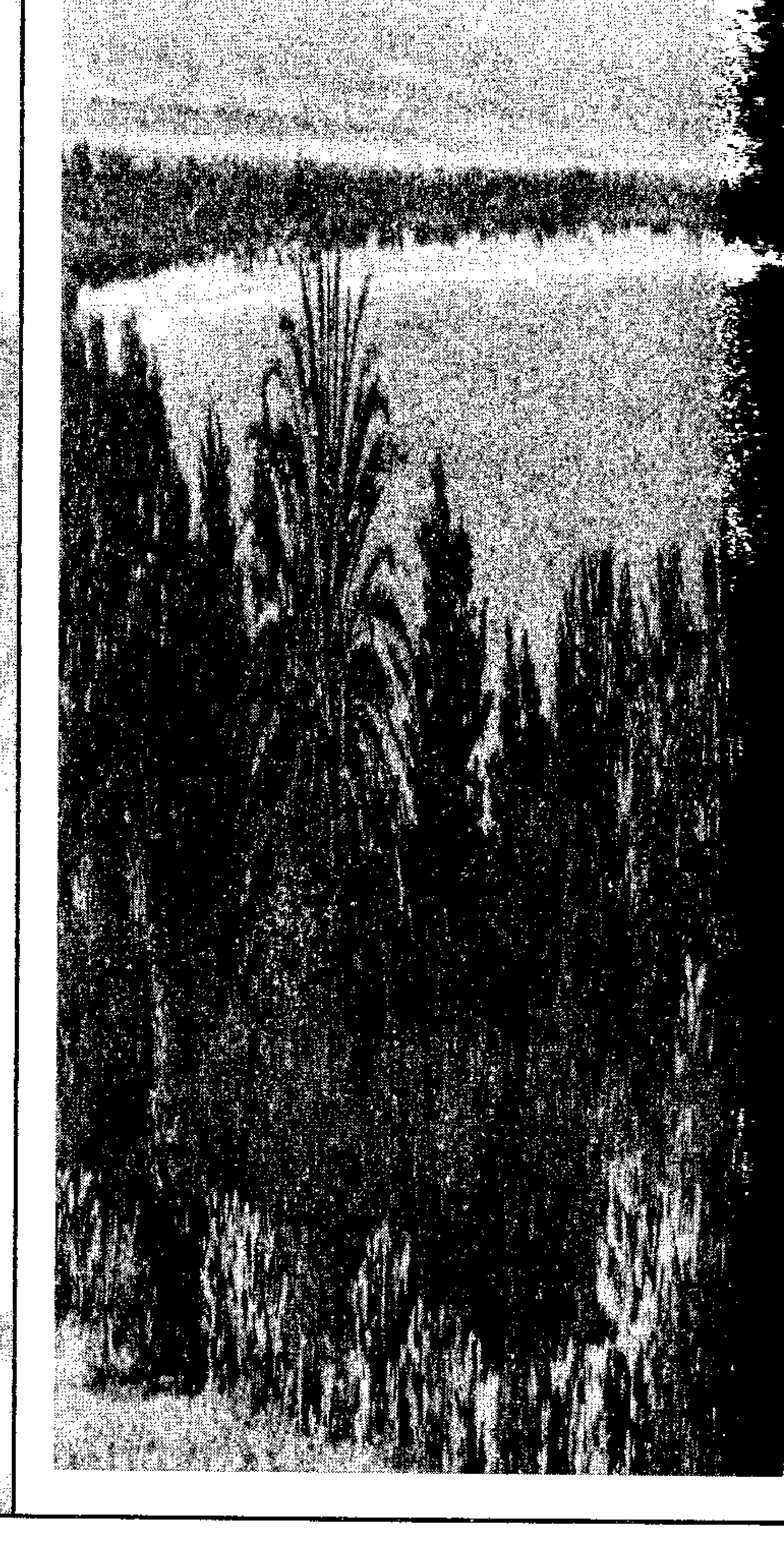
محمد الطاهر المنصوري
(كلية الآداب بمنوبة)

---

[19] M. Tahar Mansouri, « le Maghreb médiéval face aux expéditions occidentales » in Congrés International d'Histoire du Maghreb, *Guerres et paix dans l'histoire du Maghreb* ,organisé par la Société Tunisiennes des Historiens Universitaires. (Tunis,décembre 1993)

مبروك الباهي

في علاقة المستقرين والرحل بالساحل في العهد الحديث هرقلة نموذجا





مبروك الباهي (كليّة الآداب والعلوم الانسانية بصفاقس/ قسم التاريخ)

في علاقة المستقرين والرحل بالساحل في العهد الحديث: هرقلة نموذجا

لقد شارك كل من المؤرّخ وعالم الإجتماع والجغرافي وعالم الإقتصاد والأنثروبولوجي وغيرهم في الجدل حول طبيعة العلاقة بين البدو والمستقرين في المغرب العربي الحديث. وإذا كان إتهام الأعراب بالعدوانية المتجددة والمدمّرة لمواطن العمران والحضارة عموما في العصر الوسيط قد شكل الأطروحة السائدة لدى العلم الإستشراقي الذي وجد في مصنفات الإخباريين المحليين والرحّالة الأجانب على حدّ السواء المبررات الكافية في ما ذهب إليه، فهل يمكن سحب ذلك الإتهام على أعراب العصر الحديث عندما شكّل التوسع الزراعي وترسيخ الإستقرار أبرز خصائص هذا الطور التاريخي لاسيما حول المراكز الحضرية القديمة كمنطقة الساحل؟

ولئن واصل إخباريو العهد الحديث تأكيدهم على سوء العلاقة بين الأعراب والمزارعين المستقرين في إيالة تونس دون أدنى تنسيب فلعلّ ما يبرر ذلك الموقف انتماءاتهم الاجتماعية والثقافية وتمترّسهم السياسي في معسكر السلطة وأعيان الحضر الذين كان يقلقهم عناد بعض العروش والقبائل كأولاد سعيد حتى منتصف القرن الثامن عشر.

تتنزّل تلك الإتهامات في تقديرنا في رؤية اختزالية ثنائية الحدود: التمرد/ الخضوع. غير أن المسار التاريخي للعلاقة بين البدو و المستقرين لاسيّما في محاور الإلتقاء كما هو شأن هذا المثال الذي نعرض له تتراكب فيه عوامل متنوعة كالعلاقة بالأرض وأشكال الإنتفاع الزراعي وثقافة الاستغلال الرعوي وعلاقات تبادل الخدمات بين التجمعين كخزن الحبوب والزيوت وتأمين مراعي ماشية أهالي القرى فضلا على انضواء كلّ من اللفيفين تحت منظومة ولائية متشابهة المعايير وإنْ تعدّدت زواياها وشيوخها. فالصراع موجود وتبادل الخدمات حسب الفصول الزراعية أمر متواتر، كما أنّ تداخل مجالات الإستغلال ما انفك يتقدّم خاصة في محاور الإلتقاء بين نمطي العيش بما يفنّد كل محاولة تنميطية لهذه السيرورة التاريخية المعقدة التي ما انفك فيها البدوي يتأهّل للإستقرار.

لقد دارت إشكالية الإستقرار و الحضارة، في العصر الوسيط حيث راوح نفوذ السلطة بين التراجع وقلة الفاعلية لدى جلّ الباحثين المعاصرين حول نظرية الخوف والأمن. فلم يكن أمام الضعفاء من أصحاب العصبيات الواهنة والمهمشين والوافدين وغيرهم وفق تلك المقاربة غير التراصف في تجمعات قروية تضمن لذاتها إمكانيات الدفاع والأمن. فهل بقي هذا المبدأ فاعلا حاضرا في تشكّل قرية العهد الحديث لاسيما ونحن نعلم أن المراديين قد أكدوا تحيّز نفوذهم منذ منتصف القرن17 وأخضعوا مراكز "الفساد و النفاق" من البدو؟ كما تدعّم واستقرّ حضور السلطة منذ بداية القرن18 بواسطة آلياتها المتنوعة: المحلة، القيادة والشيوخ، فضلا على الإعتبار الخاص الذي أولته إلى مراكز الإستقرار التي من بينها الساحل؟

وقبل أن نتطوح في تفاصيل المسألة نرى من المفيد التذكير بأنّ هدف هذه الدراسة لا يتضمن تحديد مفهوم القرية الساحلية وكيفية انبثاقها وارتسام مخططها العمراني وتشكّل وظائفها الأساسية[1]، إلا أن التوقّف عند بعض خصائصها اللصيقة بالإقتصاد الفلاحي أمر لا مفرّ منه في تقديرنا لا بهدف تسليط الأضواء على التراكب بين الحضري والقروي بل بغاية مزيد فهم تمفصلات العالمين القروي والبدوي.

إنّ احتواء القرية على الرّحبة والمعاصر العائلية ومخازن الحبوب واستغلال الأهالي روث الحيوان كمادة لاحمة لبناء المساكن القروية وافتقار القرية للفرن المشترك(مخبزة) دون أن تفتقر إلىالمسجد والزاوية يحمل على التفكير بأنّ قرية الساحل الداخلي قد مثلت في العهد الحديث منطقة التقاء بين تخوم البداوة والإستقرار.

أما إذا إعتمدنا المؤشر الجبائي للقرنين 17 و18 فإنّ الاقتطاعات التي استمرت تُرسم بعنوان أهل (القرية) أو بني (فلان) قد تعايشت مع الجباية ذات العنوان العائلي كقانون الزيتون. فإذا كان ثالوث المجموعة- الملك- الجباية هي حوامل التواصل بين أهالي قرية الساحل والسلطة فأي الحوامل كانت ذات القرية تلتقي عبرها بعالم البدو المتاخم؟

---

[1] Ben Adjmia (M) « Structure des villages et origine de leur population dans le Sahel septentrional », Les Cahiers de Tunisie,n° 47-48. Tunis 1964, pp :101-108.

Bachrouch(T) « Le Sahel, essai de définition d'un espace citadin ». Les Cahiers de Tunisie,n° 138-137/1986

من نافلة القول بأن منطقة الساحل مركز استقرار زراعي قديم، غير أن صراعه مع بداوة أولاد سعيد والسواسي والمثاليث منذ نهاية العهد الوسيط قد ترجمها تشكل حزام قروي داخلي يظاهر بلاد السباسب وعروشها. فقرى أكودة وسيدي بوعلي التي يفترض بروزها مابين القرنين 15 و16 وقرى الجبيبينة والداموس التي تنتمي في نشأتها إلى القرن18 تؤكد الإندحار البطيء للنمط البدوي الصرف أمام الزراعة. فكيف كانت مثل تلك القرى تنسج علاقاتها مع الفرق المجاورة لها دون أن يكون ذلك على حساب مسيرة الإستقرار القروي؟

مع أنّ هرقلة تنتمي إلى النسيج القروي القديم في الساحل إلا أن طرفيتها و مواجهتها لعالم البدو في شمال الساحل يمكّن في تقديرنا من تسليط الضوء على تاريخ هذه المسألة الهامة.

1- هرقلة قرية حاجزة-Un village tampon:

تشكل هرقلة مثالا بيّنا عن مجتمع تماس بين المستقرين و البدو وتختزل ما طرأ من تحولات لافتة في صلب هذا النموذج القروي لاسيما منذ بداية القرن 18 حيث تبلورت في قاعدة معيش سكانها ظاهرة المزاوجة بين الإقتصاد الزيتوني والحبوبي من ناحية وتربية الماشية من ناحية ثانية.

يتفق الإخباريون والجغرافيون والرحالة على أن قرية هرقلة تشكل مدخل الساحل الشمالي، ويبدو أنّ المظاهر الطبوغرافية المحيطة بهذا التجمع بما تضمنته من امتداد السبخات والسهول المنخفضة قد أوحت بهذا التحديد. غير أن الهام في تقديرنا هو أنّ هرقلة كتجمع قروي روماني النشأة قد ترجم عن انتمائه لجهة الساحل بملكية أهاليه الزيتون وإن بأعداد محدودة و تجمع المساكن حول مؤسسات الوظيفية المشتركة مثل المسجد والزاوية والميناء والسوق[2] هذا فضلا على أن القرية قد شكلت بما مثلته من نمط عيش وتنظيم

---

2 لقد تنوعت مقاربات تشكل التجمعات القروية في المغرب الحديث منذ العهد الوسيط و لعل أهمها المقاربة الأمنية التي وجدت فيما نسب للهلاليين من فوضى سياسية واجتماعية ما يدعمها
Monchicourt(CH), Etudes kairouanaises : Kairouan et les Chabbia(1450-1592, Tunis,1939.
Despois(J), La Tunisie orientale, Sahel et basse steppe,P.U.F.1955.

اجتماعي[3] يخالف أسلوب الحياة الذي يواجهها في الشمال والغرب لدى بدو النفيضة حدّا تاريخيا لإقليم المستقرين في الساحل.

لقد بقيت هرقلة في تقديرنا، رغم الأزمنة العصيبة الممتدة من نهايات القرن 15 وحتى بدايات القرن 18 حيث كان عليها مواجهة خطر الهجوم المسيحي من البحر وقلاقل السلطة والبدو من البر، وفية لأغلب مقومات التجمع القروي الساحلي[4]. فهي وإنْ انتمت إلى نمط عيش جهوي تشكلت قاعدته الإقتصادية في العهد الحديث من ثنائية الإقتصاد الكفافي وجيوب الإقتصاد السلعي المتوسع بفضل تجارة الزيت المتوسطية فإنها تمتعت باستقلال نسبي إزاء مجتمعها الجهوي الذي أمنت له دور القرية الحاجزة -Le village tampon- منذ العهد الحفصي على الأقل ضد بدو أولاد سعيد وجلاص العنيدين.

وهي من ناحية أخرى تبدو أكثر قرى الساحل محافظة على الموازنة بين ثالوث الحبوب وملكية الزيتون وتربية المواشي في حين أصبح اقتصاد الزيت- إنتاجا و تصديرا- منذ منتصف القرن18 يهيمن على موارد قرى الساحل القديم[5]. قد يكون ذلك جراء التمسك بالإستقرار والحيطة التي أبداها الهراقلة إزاء صروف القرن 18 المدمرة. كما يمكن أن يكون مردّه مستلزمات بل ضغوطات الموقع

---

[3] Mendras(H), Sociétés paysannes, A. Col. Paris.1976.

[4] مع أن التجمعات القروية تشترك في خصائص عامة حول التنظيم و التشكل التاريخي إلا أن أساليب العيش فيها تدفع إلى القول بوجود أكثر من نموذج قروي في تونس في العهد الحديث حيث يمكن الإشارة باختزال واضح إلى النماذج التالية:

*القرية الواحية، أنظر حولها:

Henia(A), Le Grid, ses rapports avec le Beylic de Tunis 1676-1840. Tunis, 1980.

Dakhlia(J), L'oubli de la cité : la mémoire collective dans le Jérid tunisien. Ed. la découverte, Paris,1990.

*القرية الموريسكية:

Hoppkins(N), « Notes sur l'histoire de Testour ». R. d'histoire Maghrébine, n°9. Tunis,1977,pp :294-313.

Saadaoui(A), Testour du XVIIIé au XIXé siècle. Histoire architecturale d'une ville morisque de Tunisie. Tunis 199

*قرية الساحل:

Ben Ajmia(M), Op, cit

[5] Valensi(L), Fellahs tunisiens, l'économie rurale et la vie des campagnes aux XVIIIé et XIXé siècles. Mouton. Paris. La Haye,1977,p129.

التماسي مع نمط العيش البدوي. و يبدو أن تأثير هذا و ذاك قد التقيا في عادة المحافظة على اعتماد مواقف ملزمة للمجموعة كالموقف من الحرب الباشية وكذلك مواجهة الأعباء الجبائية بنفس التعبيرة كما هو شأن العديد من المجتمعات القروية في تونس [6].

إن هذه الخطوط العريضة تكشف على أن هرقلة كانت قرية متمفصلة في الآن ذاته بين المحلي والجهوي وبين الجهوي والمركزي وهذا ما هيأ لها التأثر بحركية الأحداث المتراكبة في صلب تلك السياقات في القرن 18 وذلك رغم مظهر التهميش الذي توحي به بعض الملاحظات و الإخباريات:

فإذا اعتمدنا بعض أوجه وصف الرحّالة الأجانب والإخباريين المحليين سوف لا نمتنع عن القول بأن تاريخ هرقلة الحديث لم يفلت من لوثة سوء الطالع التي قد يكون ورثها كما هو شأن بلاد المغرب عموما جراء حلول العرب بإفريقية كما ذهب إلى ذلك لفيف من المؤرخين الأوروبيين مثل مارسيه(جورج) - Marçais (G) و قوتييه(فيليكس)-Gautier(F) و غيرهما ممن وجد في بعض ما كتبه الإخباريون المحليون على فقره واختزاله مبررا لمقارباتهم الإستشراقية المغالية.

لقد كانت هرقلة "قرية كبيرة...أهلها يزعمون أنهم من العرب" على حد قول التيجاني في القرن الثالث عشر[7] ثمّ أصبحت "مدينة صغيرة خربها الأعراب..." كما جاء في وصف ليون الإفريقي في القرن السادس عشر[8].

---

6 Henia(A), « Mécanisme d'articulation des communautés oasiennes du Jérid avec le pouvoir central de Tunis au cours du XVIIIé et de la première moitié du XIXé siècles » R. Bourqia et Hoppkins(N). Ed, le Maghreb : Approches des mécanismes d'articulation. Al- Kalam. Casablanca,1991,pp : 153-172.

7 التيجاني(أبو محمد بن أحمد)، رحلة التيجاني، قدم لها عبدالوهاب(حسن حسني)، المطبعة الرسمية، تونس، 1958، ص:24.

8 الوزان الفاسي(الحسن بن محمد) المعروف بليون الإفريقي، وصف إفريقيا، ترجمه عن الفرنسية حجي(محمد) و الأخضر(محمد)، دار الغرب الإسلامي، بيروت،1983، ج2، ص:83.

أما بيسونال-Peyssonnel(J.A) فقد وصفها سنة 1724 با"القرية الرديئة"-[9] Un mauvais village وكان قد تناول فيها غذاءه إثر مغادرته سوسة قافلا لتونس. و تتواصل الصورة قاتمة حتى مشارف منتصف القرن 19 حيث يؤكد لنا بليسييه Pellissier(E)- أنها قرية فقيرة لا يتجاوز عدد سكانها في أفضل الحالات الألف نسمة[10]. مع أنّها ملاحظات وصفية تحوم حول الشكل إلا أنها قد تكون حمّالة أوجه مختلفة.

يتقابل هذا التاريخ المتدهور إذا أخذنا بما جاء في الروايات الآنفة مع ما كانت تشهده قرى الساحل الأوسط و حتى بعض قرى الساحل الشمالي التي تنزلت نشأتها في مرحلة إعادة البناء الحفصي في القرن14 و تركزت مع ظاهرة "تزيتن" النشاط الزراعي في الساحل منذ القرن17. فهي تحيل على صورة التجمعات المتوسعة التي يزداد اقتصادها انفتاحا على المتوسط[11]. غير أن مؤشر النشاط الفلاحي و الجباية الخاص بهرقلة يقلص من تلك الصور الظليلة التي قدمتها لنا الكتابات الآنفة ، فهو يؤكد أن تاريخ هرقلة الحديث لم يكن قط بمعزل عن محيطها الساحلي العام و تحولاته الهيكلية.

2- هرقلة قبل القرن18:

شكّلت بدايات العصر الحديث، رغم الإضطراب السياسي و الأزمة الاجتماعية العامة في تونس، انطلاق عملية ترميم الشبكة القروية و من ثمّة توسعها في الساحل. غير أن حركية التعمير الزراعي والاستقرار السكني قد تركزت كما يتبيّن من بعض عقود الملك الخاص واستغلال الأرض في اتجاه السباسب في الساحل الأوسط انطلاقا من الساحل القديم: ظهير سوسة الساحلين المنستير نحو بلاد السواسي وأولاد الهاني و خاصة عبر محور سوسة القيروان. و قد تميز هذا النمو ببطء اكتساحه لمنتجعات الرعي في

[9] Peyssonnel (J.A), Voyages dans les Régences de Tunis et d'Alger. Ed. La découverte.Paris,1987,p :64.

[10] Pellissier (E),Description de la Régence de Tunis ,2é Ed. Bouslama. Tunis, 1980,p :87.

[11] Chérif (M.H), « Propriété des oliviers au Sahel des débuts du XVIIé à ceux du XIXé siècle », Actes du premier congrès d'Histoire et de Civilisation du Maghreb. Uni. De Tunis, 1979, t2, pp :209-252.

السبايب رغم تشجيع سلطة البايليك وإن عرضيا لهذه المسيرة بموقفها المساند للمستقرين من ناحية وبعدم إعاقة تلك الظاهرة بالإقتطاعات الجبائية المرهقة قبل 1840[12]، وهي سياسة ساهمت في تقديرنا في تسريع وتيرة نمو قرى الحزام الداخلي مثل البرجين ومنزل كامل والكنايس وأكودة وسيدي بوعلي بما يتجاوز أحيانا وتيرة نظيرتها من القرى الداخلية و القديمة في الجهة.

أما محيط هرقلة فقد استمر على ما يبدو وفيا للأنشطة الفلاحية الخليطة: زراعة الحبوب وتربية الماشية فضلا عن غراسة الزيتون[13] فملاحظات الرحّالة تكاد تجمع على هذا النشاط الثلاثي في هرقلة والذي يتنزّل في تقديرنا في ثقافة الموروث الفلاحي بالساحل عموما، فنحن إذا صدقنا استنتاجات الهولندي دابر-Dapper(D.M) غير المباشرة فانّ ريف سوسة قد كان يؤمّن منذ القرن 16 إنتاج الثالوث الفلاحي: الزيتون وزراعة الحبوب وخاصة الشعير والمراعي لمواشي أهالي المنطقة[14]، بينما ضمّت لوحة الإنتاج التي قدمها ديفونتان -Desfontaines والخاصة بهرقلة الشعير والذرة والدرع والعنب والتين والبطيخ الممتاز. في حين لا يذكر الزيتون[15] وهو ما لا يتفق مع وثائق جباية القرن 18. على أنّه لا يجب أن يفوت الباحث أنّ مجمل هذه الملاحظات قد التقت حول ثنائية الأرض النافعة وبدائية الأهالي: خصوبة الأرض وتنوع إنتاج في مقابل وقاحة السكان ودونيتهم.

ومن ناحية أخرى فإن ظاهرة التحبيس كمؤشر على استقرار الملك بغض النظر عن دوافعها و التي تطالعنا في عقود زيتونية أو لأرض بيضاء في قرى البرجين والمسعدين على سبيل البيان منذ نهاية القرن 18 لا نظير لها إلى حدّ الآن على الأقل في هرقلة مع احتواء القرية على زوايا وفي مقدمتها زاوية سيدي بومنديل كما هو شأن بقية التجمعات القروية.

---

12 ابن أبي الضياف(أحمد)، اتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس و عهد الأمان، الدار التونسية للنشر، تونس، 1989، ج5،ص:

13 صنفت غابة هرقلة في القرن 17 ضمن المجموعة المتوسطة الإمتداد (مجموعة الألف شجرة) على غرار غابت قرى تكرونة في شمالها و سيدي عيسى في الساحل. Valensi(L), op, cit, p, 161. وقد كانت تلك الغابة محل اقتطاع جبائي منذ العهد المرادي، دفتر عدد:1،

14 Dapper(D.M)K Description de l’Afrique 1686, p :196.

15 Desfontaines, voyages, p107.

تؤكد هذه الملاحظات أن هرقلة قد توافرت على خصوصيات القرية الطرفية في إقليمها فهي من ناحية منخرطة في غراسة الزيتون الذي هيأت له حقولا داخلية محمية نسبيا عن برّ المراعي وهي من ناحية ثانية قرية تنشر نفوذها على مزدرعات الحبوب التي تمتدّ وراء حلقة السباخ الشمالية والغربية للقرية وهي من ناحية ثالثة تحافظ على تربية الأغنام وقليل من الأبقار والجمال التي يلائمها النبات السبخي والانفتاح نحو عالم البدو الشمالي والغربي. ولعلّ الأمن الذي نعمت به جهة الساحل جراء الجهود المرادية في ردّ هجمات القراصنة المسيحيين[16] من أهمّ عوامل هذه القاعدة الاقتصادية العريضة في القرية.

وفي مستوى ثان فقد شكلت العناصر الوافدة على الساحل منذ منتصف القرن17مظهرا وعاملا في الآن ذاته لحركية هذا الإقليم، فالطرابلسية وطياش القبائل والجزر التونسيةنشّطتْ أساليب الإستغلال التشاركي لاسيّما أنظمة المغارسة والمزارعة وشركات الحيوان مع البدو شبه المستقرين، و هيأت من ناحية أخرى لظاهرة التجدد السكاني، ففي حين بقي عدد سكان هرقلة حتى مغيب القرن18 دون الألف نسمة تجاوزت أكودة على سبيل البيان ضعف ذلك.

لقد كان تشكّل قرى الساحل الشمالي مثل سيدي بوعلي وأكودة في الفترة الفاصلة بين العهدين الوسيط والحديث في علاقة وثيقة بعالم البدو السباسبي وكان دور الصلحاء كسيدي فرج بأكودة في تلك النشأة حمال أوجه: فمن ناحية ضمن لها الحدّ الأدنى من الأمن ضدّ هجمات البدو التي كثيرا ما كانت تتكرّر على مراكز المستقرين ومن ناحية أخرى ضمنت تلك الزوايا تقديم المسافات الضرورية للهائمين والفقراء الوافدين وهيأت لهم فرصة تشكيل مجتمع محلي مستقر بإمكانه تقديم قوّة عمله والدخول في علاقات إنتاج تشاركية مع أهالي الساحل[17]. فلا غرابة إذن أن تتكاثر المغارسات منذ بداية القرن 18 في هنشير الحضنة و مغارس البرجين و تتدعّم المزارعات في شرقي

---

[16] Pignon(J), « Aperçu sur les relations entre Malte et la côte orientale de la Tunisie au début du XVIIeme siècle», les Cahiers de Tunisie, 1964,p64.

[17] لقد جذبت ملكية الزيتون في الساحل بعض العائلات الصفاقسية الميسورة مثل عائلة الجلولي و السلامي و الفندري و ذلك قبل أن تولي وجهها شطر أرياف المثاليث الصفاقسية منذ بداية القرن 19. أرشيف أملاك الدولة – صفاقس وثائق ملك.

بلاد أولاد الهاني. ولئن ذهب البعض إلى أن تشكل هذاالحزام الداخلي قد ضمن أمن القرى الداخلية القديمة كهرقلة فإننا نعتقد أن ترسيخ وامتداد الإقتصاد الزراعي في اتجاه السباسب في العهد الحديث قد كسب ولاشك من انتصاب الحسينيين من ناحية وتقدّم انفتاح الساحل على المتوسط من ناحية ثانية[18].

ولئن لم تكن هرقلة على نفس تلك الدرجة من الحركية الإجتماعية فقد كانت منفتحة أمام بدو أولاد سعيد وطياش المهاذبة الذين شاركوا الهراقلة زراعة الحبوب و تربية الماشية فضلا على اقتسامهم مراعي وسباخ المنطقة التي لائمت تربية رؤوس الإبل القليلة التي كانت على ملك القرويين والجماعات البدوية على حدّ السواء، غير أن ذلك لم يكن يمرّ دائما دون منازعات ومشاحنات كانت تفصح عن ذاتها خاصة زمن الإضطراب السياسي كما هو شأن أزمة الربع الأخير للقرن17.

لقد هاجم بدو أولاد سعيد مراكز الساحل الشمالي زاعمين أن تلك التجمعات قد توسعت في استغلالها فيما كان يعود إليهم بالنظر، وراثة من العهد الحفصي ثم تأكيدا من المراديين، في تحصيل الجبايات [19].

و مهما يكن من أمر فإن هذا النزر من المؤشرات الاقتصادية والإجتماعية يسمح بالتفكير في أن تلك المراكز القروية الناشئة في الساحل الشمالي قد شكلت مع قرية هرقلة التي تتميّزت عنها بأسبقيتها التاريخية في حقوق الإستغلال و الحوز منطقة استقرار تواجه العالم البدوي و تكثف أساليب الانتفاع بالأرض غراسة و زراعة ورعيا.

18على امتداد القرن18 كان ميناء سوسة أول مصدر للزيوت و إذا كانت الكميات المصدرة تتضخم فإن التجار الأوروبيون قد هيمنوا على هذا القطاع المربح ودعموا تبعية الإقتصاد الساحلي لمركانتيلية المتوسط:

EL Bahi(M) « Le commerce de l'huile tunisienne pendant la première moitié du XIXè »Mésogeios, Méditerranée9-10(2000),Paris,2001,pp110-126.

19 الرعيني القيرواني(محمد ابن أبي القاسم) المعروف بابن أبي دينار، المؤنس في أخبار إفرقية و تونس، تحقيق و تعليق شمام(محمد)،المكتبة العتيقة، تونس،1967.

اقتصاد زراعي قروي متمدد في اتجاه السباسب:

ساهم الإستقرار السياسي والإجتماعي في الثلث الأول من القرن18 في انتعاشة المراكز القروية بالساحل عموما بعد أن كانت قد مثلت إحدى حلبات الصراع المرادي على امتداد الربع الأخير من القرن17، و من بين المظاهر البارزة لهذا الوضع المستجد الناقع يمكن أن تستوقفنا الملاحظات التالية :

* بداية انتشار غراسات الزيتون في الساحل الشمالي: إذا كان البعض قد أكّد أن زياتين هرقلة قد شكّلت رقعة متقدمة نحو الشمال حسب خريطة ثمانينات القرن19 فإن وجود تلك الغراسات قد ارتسمت في مجابي القرن18، فكل من أكودة والبرجين والداموس وهرقلة كانت تدفع القانون كمعظم قرى الساحل الداخلية في منصب سوسة ووطن المنستير[20] وهذا يعني أن غراسات تلك القرى تعود في نشأتها قبل حلول الأمن الحسيني[21] منذ بداية القرن18.

* تجذر تبعيّة أولاد سعيد لمؤسسة المخزن: ينفتح مجال الإستغلال الزراعي للساحل الشمالي على أراضي النفيضة التي سعت فرق أولاد سعيد إلى تأكيد حقوق استنزالها وحوزها لها رسميا منذ عهد حسين بن علي مستندين في ذلك إلى أكثر من مبرر تاريخي لعل أهمّها انتماء تلك الربوع إلى الإمتياز الجبائي الذي نعموا به في عهد الحفصيين.

لقد أصبح السعيدية يزوّدون البايليك بالمزارقية منذ العشرية الأولى للقرن 18 ثمّ والوا علي باشا- في نطاق التمسّك بالشرعية- وعادوا إلى حضيرة أولاد حسين بن علي إثر ذلك. لقد كلّفت ولاشك هذه المراوحة أولاد سعيد كثيرا من ذلك تدمير دار بالواعر مركز القبيلة بما دفعها أكثر إلى التمسّك بالأرض سيّما وقد ولّى عهدها بمناورات الإرتحال وجوب البرور الشاغرة والنائية. لقد كان على السعيدية أيضا الإنضباط تجاه مراكز الإستقرار القريبة في الساحل حيث كاد القرن 18 يخلو من الهجمات والإغارة عليها من قبيلة أكثر ما حفظ لها تاريخها الحديث الحرابة والغزو[22]، بينما استمرّ مثل ذلك

---

20 الأرشيف الوطني التونسي ،دفتر عدد:3

21 ابن أبي الضياف(أحمد)، نفس المصدر، ج3،ص:130.

22 إن أولاد سعيد الذين جسدوا التمرد والعصيان في العهد المرادي إذا ما أخذنا بتقدير الإخباريين التونسيين قد التزموا بعقد المخزنة الحسيني إلى درجة أنهم سيدفعون إلى المساهمة في

المسلك لدى قبائل أخرى لاسيّما الهمّامة التي لا تتصل مباشرة بقرى الساحل.

لقد ساهمت هذه المستجدات في تقليص ضغوطات الإستغلال البدوي سواء في المراعي التي تنتجعها حيوانات أهالي هرقلة وسيدي بوعلي أو في المستغلات الأخرى، بل إن هذا الوضع الجديد لأولاد سعيد سيهيئ إلى تشكل علاقات تشارك حيواني وزراعي مع المستقرين. فالقرية لم تنتصر في نشر مظاهر اقتصادها فقط بل نشرت وإن نسبيا شروط الإستقرار كالأمن والتبادل.

* الحرب الباشية- حلقة تقريب بين المجموعتين: كان موقف هرقلة وبعض القرى الأخرى من أحداث التمرّد الباشي مقابلا لاختيار أولاد سعيد فلا غرابة أن تتواصل معاناة أكودة وزر موقفها حتى الربع الأخير من القرن18 حيث كانت قد لقيت التدمير شبه الكامل من الباشية. ونحن لا نعلم هل كان ذلك الموقف مجرد ردّ فعل إزاء الفريق السابق أم هو اختيار استُلهم من الموقف العام لأغلب المراكز الساحلية. و كيفما كان الأمر فإن الولاء للحسينية قد مكّن تلك القرى من التواجد في صفّ المنتصرين منذ نهاية الأزمة بما أهلها لأن تنعم ببعض الإعفاءات الهامة على غرار بعض المجموعات الأخرى[23]، فضلا على اعتبار زياتين تلك القرى ضمن الغابة المحدثة التي لم يقرّر البايليك بعد توضيف اقتطاعاته الجبائية الثقيلة عليها. أفلا يُعدّ هذا "تنفيلا" (un bonus) لنمط العيش القروي من شأنه المساهمة في دعمه و تصليبه إزاء نظيره البدوي؟

تساعدنا هذه الملاحظات المقتضبة على الميْل إلى افتراض بداية تشكل مشهد ريفي في العهد الحديث لا يلغي بل يختزل مقاربة التقابل-البدو/ المستقرون- إلى حدودها الدنيا فيما اصطلح الجغرافيون على تسميته بالسباسب السفلى، وما القول بأن ثنائية- القيروان / الساحل- المتعاضدة لما كانت القيروان عاصمة قد عوضها مزدوج- البدو/الساحل- المتقابلة[24] إثر انتقال العاصمة إلى تونس، بما تتضمّن

أحداث انتقاضة 1864. وثائق تونسية، ثورة علي بن غذاهم 1864،ج الدار التونسية للنشر، تونس، 1964.

23 ابن عبد العزيز(حمودة)، الكتاب الباشي، تحقيق ماضور(محمد)، الدار التونسية للنشر،تونس 1970،ص:364.

24 Bachrouch(T), Op, cit, p :239.

من افتراضات الإحتراب والتدمير وبالتالي استمرارية عوامل الشدّ إلى الخلف في تخوم الساحل والسباسب إلا زعْم مبالغ فيه تفنّده مسيرة تاريخ العلاقات بين المستقرين والبدو في العصر الحديث في تلك الربوع. على أنّه يجب ألا يغرب عن البال أن ذلك التقابل قد حافظ على بريقه ولمعانه في الذاكرة الشعبية بما لا يتقايس مع بصمته في المكتوب[25].

3-المشهد الريفي الحديث:

تكاثرت منذ ثلاثينات القرن 18الأدفاق الوافدة على الأرياف المتاخمة للمراكز القروية الداخلية وبلاد السواسي من داخل البلاد ممّا دعّم تلك المراكز التي تعود نشأتها إلى بواكير العهد الحديث والتي يزعم أن فضل بروزها يعود إلى الصلحاء الوافدين من المغرب أو من الجريد، بل حتى تلك الموجودة فعلا كان عليها أن تشبب نشأتها باحتضان ولي محمود الأعمال، ففي هرقلة أدمجت الذاكرة الشعبية استقرار سيدي بومنديل بها في القرن16.

لا يمكن التقليل في تقديرنا من دور الصلحاء في هذا الشأن كقوّة ردع سلمية عن طريق ترسانة الكرامات والعطاء وأساليب الإعلاء النفسي(بما يشبه التحكم في اللبيدو لدى الفرويدية) بما يضمن الحد الأدنى من الأمن والنظام في ظلّ غياب سلطة سياسية فاعلة أو في نطاق تقاسم مجالات النفوذ معها.

لقد ساهمت لفائف عديدة بما فيه الساحلية بتعمير تلك القرى لاسيّما إثر أزمات القرن17 ومنتصف القرن18، فعلى سبيل البيان استقرت عائلات الشايب القادمة من القلعة الكبرى حول زاوية سيدي بوعلي ومن ثمّ جاءت عائلات الشمسي من الحمام والكناني من أكودة. على أن التوافد الطرابلسي منذ القرن17 وتكثفه جراء الأزمة القرمنلية كان لافتا، حيث انتشر الأوّلون منهم بالساحل القديم و نشط من توجّه منهم للريف خدمات المغارسة و الرعي بينما استقرّ التالون منهم في القرن18 بالخصوص بمناطق الجبيبينة والداموس[26].

---

25 من الأمثلة التي احتفظت بها الذاكرة
Guiga(T)&Marçais(J),L'inscription de Takrouna, T.

26 لقد كان حضور هذه الفئة منذ القرن 17 في النشاط الزراعي بالساحل لافتا لاسيما في علاقات المغارسة و الزارعة حيث" تسحل" الكثير منهم بتحوله إلى ملاك . Cherif(M.H), Op, Cit.

أمّا "طياش" القبائل التونسية فنذكر منهم المهاذبة الذين تجمعوا غربي هرقلة وشمال سيدي بوعلي فضلا على الذين اندمجوا مع السواسي وأولاد سعيد[27] و كذا الشأن ببعض العائلات الجلاصية والهمامية التي وجدت في علاقات المزارعة وتربية المواشي أنموذجا مواتيا لوضعها الجديد.

ولئن سعت بعض قرى الساحل القديم إلى امتلاك مساحات للإستغلال الزراعي والرعوي خارج نطاق الزياتين معتمدة في ذلك أسلوب التحبيس في شكل هناشر عائلية (ملك علىالشياع) كما هو الشأن بالنسبة لأهل الساحلين ومساكن[28] علىسبيل البيان منذ منتصف القرن18، فإن قرى الأطراف كهرقلة لم تكن على ما يبدو في حاجة إلى مثل هذا المسعى. لقد ضمن لها موقعها المتاخم لسهول النفيضة وأولاد الهاني إمكانية الإستغلال التي أمّنها في تقديرنا ذلك المشهد الجديد الذي وقر فرص الإستغلال المشترك بين الوافدين والمستقرين و ذلك دون أن يشكل ضغطا تنافسيا علي الأرض. لقد ضمن الطرف الأول مبدأ الإعتراف بهم كنزلاء حائزين يتمتعون بحقوق الإنتفاع بينما كسب الطرف الثاني مزيد الإنفتاح على فضاءات نافعة لتوسعه وأنشطته الفلاحية الخليطة.

نتبيّن إذا أنّ الإقدام على حوز هناشر تخوم السباسب مسلك اشتركت فيه معظم قرى الساحل، حيث كان استغلالها جماعيا- على الشياع- وقد حول البعض منها إلى أحباس لاسيما في النصف الثاني من القرن18. لقد كانت تلك الملكيات تستغل في زراعة الحبوب ورعي المواشي بعد أن ضيقت الزيتونة أفقها في الساحل القديم ولهذه الظاهرة أكثر من دلالة:

* إن اقتصاد الزيت الذي ما انفك يهيمن على اقتصاد القرية الساحلية قد يكون وفر- رغم أشكال التلاعب و الإكراهاتّ التي كان يخضع لها المنتج في سوق يتحكم فيه وسطاء البايليك والأجانب معا- بعض الأموال التي مكنت الأسر من تعهد زراعتها ومواشيها

---

27 يرد ذكر هؤلاء في وثائق البايليك منذ بداية القرن18 ضمن تجمعات جنوب النفيضة- جرادو - تكرونة- الجبيبينة. أ. و. ت. دفتر:

28 أرشيف أملاك الدولة ، صندوق أحباس ولاية سوسة.

والمساهمة في شراء أرض خارج توابع القرية 29، فعلى سبيل البيان يمكن ذكر هنشير الحنيّة الذي استغله أهالي القلعة الكبرى في الزراعة قبل أن تنتشر فيه مغارساتهم مع بدو السواسي و كذا الشأن بالنسبة لهنشير المسلان، أمّا الهراقلة وأهالي سيدي بوعلي فإنّ انفتاح قراهم على سهول النفيضة ضمن لهم ذلك الإستغلال المشترك مع السعيدية و فريق المهاذبة.

مع تقدم اعتماد القرية على ذلك الإقتصاد فإنّها بقيت مرتبطة بمظاهر الإقتصاد المعاشي الذي استمرّ يضمن للأسرة القروية مواد الإستهلاك الأساسية-الحبوب،الصوف- التي تساهم في إنتاجها مباشرة أو بالشراكة. وقد قبلت تلك العائلة بالملك على الشياع رغم تقاليد الملك الخاص لديها و ليس لنا أن نفهم هذا المسعى إلاّ في نطاق ضمان حقوق الإستغلال الجماعي في فضاء لم يترسخ فيه بعد وجود الملك الخاص ولم يؤمن حرمته ضدّ تعديات البدو والرعاة، لذلك فإنّ الإستغلال على الشياع يشكل والحالة هذه الأسلوب الأكثر نفعا في تقديرنا لاسيّما وأن أعباء المراقبة ومصاريف التعهد تضمنها المجموعة المالكة.

لقد شكّل ذلك المشهد الجديد أوّلا حزاما بين الرّعاة والمغامرين ساهم في ترسيخ حقوق المستقرين على الأرض جنوب هنشير النفيضة والحنيّة وغيرها، ولهذا لا غرابة أن يكون أهالي هرقلة من بين المحتجين في نهاية القرن19 على مشاريع سياسة التسجيل الفرنسية التي بدأت تهتمّ بالنفيضة منذ1896.

نخلصُ في النهاية إلى أنّ عدم اكتمال التجهيزات الجماعية في قرية الساحل الداخلي كغياب السوق الدائم والفندق والحمام والفران حتى القرن19 كما هو الشأن في هرقلة و أكودة و سيدي بوعلي يحيل إلى الملاحظات التالية:

---

29 يخلص البرقاوي(سامي) في دراسته حول تشكل غابة الساحل إلى أن الغراسات منذ النصف الثاني من القرن18 قد بدأت تلتهم المساحات البينية حول القرى وأن تلك السيرورة قد تكون من العوامل التي دفعت بالسواحلية إلى البحث عن الأرض خارج الإقليم القديم في بلاد الفرق والعروش المجاورة:

Bergaoui(S) « La constitution de la forêt sahélienne : le cas des deux Hinchir-s à l'époque moderne »Du Byzacium au Sahel ; Itinéraire historique d'une région tunisienne , Pub. de la F.L.SC.H de Sousse, 1999,pp :225-241.

* استمرار مركزية الإقتصاد الكفافي بتلك المراكز القروية المواجهة للعالم البدوي واعتماد العائلة القروية على عادات الخزن الغذائي بما يفت في حركية التبادل و إلزامها درجة التبادل الدوري في الرحاب (ج رحبة) بدل التبادل اليومي في الأسواق.

* ضعف المدخول النقدي الذي يهيأ لاستعمال خدمات جماعية كالحمام والفران حيث تبقى تلك الخدمات من اختصاص المنزل القروي والمرأة وحتى المعصرة الحجرية(القرقيبة) العائلية هذا فضلا على حضور مواد أولية كالحلفاء لصناعة الشوامي والحبال والحصير و الصوف للنسيج العائلي.

تؤكد هذه الملاحظات التراكب النسبي بين قرى الساحل الداخلي مع أكثر البدو تأهلا للاستقرار ولكنّه تراكب يتّجه غربا مكتسحا و إن ببطء البداوة.

مبروك الباهي
(كليّة الآداب والعلوم الانسانية بصفاقس/ قسم التاريخ)



عبد الواحد المكني

ملامح من التاريخ الاجتماعي المعاصر لهرقلة



عبدالواحد المكني (كليّة الآداب والعلوم الانسانية بصفاقس/ قسم التاريخ)

ملامح من التاريخ الاجتماعي المعاصر لهرقلة

(الساحل التونسي)

تطرح هذه الورقة الخوض في دراسة جوانب من إشكاليات التاريخ الاجتماعي المعاصر للبلاد التونسية من خلال نموذج محلّي مصغّر (ميكروتاريخي) يخصّ هرقلة، تلك البلدة الشاطئية الواقعة في موضع متميز (تلّة بين البحر والسبخة) وفي واجهة أمامية لما كان يسمّى "بوطن سوسة" ومنها يبتدئ فضاء الساحل التونسي بخصائصه التاريخية و العمرانية والاجتماعية والاقتصادية.

ونحاول في هذا المبحث التعرّض إلى أهمّ ملامح التاريخ الاجتماعي لهرقلة وذلك بتعريف النمط الإنتاجي السائد وطبيعة التشكيلة الاجتماعية وشبكة العلاقات البشرية والإلمام بأنساق التطورات الحاصلة في مستوى الحراك الاجتماعي.

تتقيّد هذه المقاربة بالفترة المعاصرة وهي تقريبا الفترة الاستعمارية (1881-1956) وما يسبقها أو يلحقها ببعض السنوات وتستند في مادتها الأساسية إلى وثيقتين هامتين تتعلقان "بالمجتمع الهرقلي" : الأولى تعود إلى سنة1864 والثانية إلي سنة 1955 وتساعدنا هاتان الوثيقتان على رصد عديد الملامح من التاريخ الاجتماعي المحلّي طيلة قرن تقريبا (91 سنة)، وهي فترة هامة امتدّت من انتفاضة 1864 وسقوط البلاد تحت نير الاحتلال والحماية إلي حدود 1955 أي عشية الاستقلال.

I- الأوضاع الاجتماعية بهرقلة قبيل الحمايةالفرنسة: أو" سوسيولوجية إغارة "

جدّت هذه الإغارة في " أواسط ربيع الثاني من عام واحد وثمانين ومائتين وألف" (1281 هـ) ما يتوافق مع منتصف شهر أوت من سنة 1864 وهو ظرف تميّز بدخول البلاد التونسية طور انتفاضة عارمة اشتهرت بانتفاضة بن غذاهم لكنها كانت انتفاضة

أغلب سكان البلاد في مواجهة النهب المخزني والجبائي المجحف والتدخل الأوروبي المالي والسياسي السافر وقد كان الساحل التونسي أحد بؤر هذه الانتفاضة التي انطلقت منذ الربيع و تواصلت إلي حدّ خريف سنة 1864. في هذا الخضم حدثت عملية الإغارة على بلدة هرقلة يوم19 ربيع الثاني الموافق لـ 22 أوت وكانت الأطراف التي أغارت على البلدة تتكون أساسا من "إعراب جلاص وأهل القلعة الكبرى" وسرعان ما بلغ صدى هذه الواقعة للسلط الجهوية(قايد سوسة)[1]، مثلما بلغ بصفة أدقّ وأسرع لاستخبارات العون القنصلي الفرنسي بسوسة "جدّ أمس اشتباك عنيف بين جلاص وأولاد سعيد بمشارف هرقلة ولجأ سكّان هذه القرية بحرا إلى مدينتنا ..."[2] وعلى كلّ حال فأهالي هرقلة لم يتردّدوا في إثبات ما تعرضوا إليه من اعتداء إذ سارعوا بتسجيل شكواهم ودعواهم ودعموا ذلك بالقرائن والحجج عند عدلين من عدول الحمامات(محمد بن حمودة بوسلامة وعبد الله الشريف) وبإذن من قاضي تلك المدينة وهذه الحجّة العدلية هي وثيقتنا الأساسية وهي عبارة عن شكوى مفصلة (26 صفحة) بها كشف لطور الإغارة وتفصيل للأرزاق المنهوبة والممتلكات المتلفة [3].

كانت هذه الإغارة واحدة من سلسلة اغارات متبادلة بين أهل القلعة الكبرى وحلفائهم من فرسان جلاص من جهة- وهو شقّ مصنّف آنذاك كنصير لمحلة زروق وبالتالي لمصطفى خزندار والباي الحاكم محمد الصادق (1859-1882)- وبين أهالي هرقلة وفرسان أولاد سعيد وهو شقّ مضاد متحالف مع أكودة والقلعة الصغرى وحمام سوسة وسائر في ركب الانتفاضة[4]. هذا إن أردنا التبسيط نذكر ذلك لأن المدقق والمتمعّن في تاريخ البلاد في تلك

---

[1] – الأرشيف الوطني التونسي (أ– و– ت):السلسلة التاريخية ، صندوق 53 ،ملف 579 ، وثيقة 12.

[2] – مراسلة بين العون القنصلي لفرنسا بسوسة اسبيا و دي بوفال قنصل فرنسا بتونس أوت 1864 انظر :

– وثائق تونسية ،ثورة بن غذاهم 1864 ، الدار التونسية للنشر ، 1969، ج2 ،ص 10-11

[3] – أ– و– ت : الدفتر 2529 ، ص 1- 26 بتاريخ 1281 ه / 1864 م.

[4]– CHATER (K) : la M'hella de Zarrouk au Sahel (1864),Tunis,1978,pp121-136.

الحقبة بالذات يعلم أن الاغارات كانت عبارة عن ظاهرة مسترسلة في حياة المجموعات الريفية و القروية و حتى عند سكان المدن و كانت هذه الاغارات (تنعتها المصادر بـ: غارة و فساد و هرج و مقتلة...) تتكاثر في سنوات الجدب وزمن الانتفاضات عندما ينخرم الأمن وتقلّ الرقابة والردع وهي نتيجة للتضاد والصراع والانقسام الذي كان يشق البلاد (ريف ضد حضر أو الحسينية ضد الباشية أو قرية ضدّ أخرى) وهي صراعات متكررة حول الموارد والمجال الحيوي (ماء، أراضي، أرزاق، نعمة..).

والملفت للانتباه إن هذه الإغارة حدثت في وقت كانت فيه محلّة زرّوق ترابط بدار الخلي على مشارف هرقلة وكانت مهمّتها المعلنة رسميا هي تمهيد سبل الأمن وحماية الأرزاق والأرواح. غير أنّ عملية نهب البلدة كانت عبارة عن حملة تأديب حمائية ومسبقة لأهاليها لأنّ زرّوق سيرابط بها بمحلته (قرابة 5 آلاف عسكريّ) أسبوعا بعد الإغارة عليها من 29 أوت إلى 6 أكتوبر 1864 وهي "بليّة" أخرى نزلت على سكان هرقلة ربّما كانت خطورتها أشدّ من إغارة القلعة الكبرى وجلاص.

أخذت هذه الواقعة بعدا خطيرا عند الأهالي إذ "هجموا على بلدهم واكسروا أبواب ديارها و بيوتها وانتهبوا جميع أرزاقها... وأكسروا فخارها كبيرا وصغيرا...على سبيل الظلم والتعدي والاستطالة تكرّر ذلك منهم مرتين .."[5]. كانت غاية المغيرين تتمثل في نهب كلّ ما أمكن حمله من متاع خفيف وثمين وإتلاف وكسر وإراقة كل ما لم يكن بالامكان حمله إلى درجة أنّ "الزيت المراق ...نفذ من الحيوط إلى الطريق". لقد التجأ السكّان إلى قاضي الحمّامات وعدولها لتسجيل شكواهم ومنهم من فرّ إلى سوسة بحرا وهذا يدلّ على أنّ كلّ الطريق البرية كانت تؤدّي إلى الساحل وكانت الفوضى تعمّ الجهة فاضطرّ السّكان إلي التشكّي في الحمامات وهي منطقة آمنة وقتذاك وهذا يدلّ أيضا على أنّ هرقلة لم تكن فقط متجهة نحو الساحل بل كانت في مجال انتقالي بين الساحل والوطن القبلي تترجمه هذه العلاقة القضائية الاستثنائية.

---

5 - أي أيام 19 و 22 أوت 1864 .

تتضمن الشكوى قائمة مفصّلة لمنازل المتضررين وأسمائهم و تفصيلا لممتلكاتهم المنهوبة والمتلفة وهي بذلك ترشدنا على الملامح البشرية العائلية بهرقلة وعلى الإمكانيات الإنتاجية الاقتصادية من ناحية أخرى.

1- الملامح البشرية و العائلية للمجتمع الهرقلي قبيل الحماية:

المنهوب	الكمية	المنهوب	الكمية	المنهوب	الكمية	المنهوب	الكمية
قمح	556 قفيز	جمال	3	بطاطن صوف	23	قمايج	16
شعير	910 ق	حمير	17	جزة صوف	850	طعمة	2 قنطار 71 رطل
زيت	1358 مطر	أموال	9250 ريال	احرمة	9	قيام	52 رطل
كسكسي ومحمص	5 ق	مكاحل	13	برانس	9	نحايس	64
درع	50 ق	حلي ذهب	25 قطعة	جبايب	3	قزانات	2
قطانية	5 ق	حلي فضة	22 قطعة	كشاطي	5	قصاع	128
حمص	1 ق	حصر	666	شواشي	5	رحى	60
بقر	48	حلفاء	500 ظفيرة	محارم	22	انوال	54
أغنام	140	شوامي	721	بخنوق	27	دلو سني	59
محراث	113	مسحة	25	غراير	30	كتب	54

جدول خاص بقائمة الأملاك المنهوبة لأهالي هرقلة اثر إغارة أوت 1864 [6]

بلغ عدد "الديار" المنهوبة وهي عبارة على منازل محاطة بأسوار وأبواب 109 أغلبها " شرقية أو قبلية المفتح" وستة منها على ملك نساء (دار المرأة تونس بنت فرحات أوساسية بنت الحاج عبدالله

6- تم تأليف الجدول من خلال معطيات الوثيقة المذكورة.

عبّاس..)، وأصحاب هذه الدور هم أرباب الأسر التي تحتوي في المعدل على خمسة أو ستة رقاب و هو ما يعطينا فكرة عن إجمالي سكان البلدة الذي يقارب 600 أو 700 نسمة وهي معطيات تتقارب مع تقارير ضباط المدرسة الحربية حول البلدة في ستينات القرن 19 حيث كانت تعد 103 من المنازل ومسجد جامع و6 مقامات للأولياء وكان عدد دافعي ضريبة المجبى (الذكورالبالغين) سنة 1863 يقارب 194 نفرا 7 ويتراءى لنا بعد فحص خاطف للأسماء والألقاب تواتر اسم عبد القادر وسعيد في البلدة وذلك في علاقة أكيدة مع الرموز المرابطية والصوفية كما يتراءى لنا أهمية النسيج الأسري إذ تتواتر ألقاب عائلات بن رجب (ومنها شيخ البلدة آنذاك) وبوعجيلة والكامل وعاشور وبن غالية ومرزوق وبن حمودة وميلاد اكثر من بقية العائلات الأخرى (مراد، الصيد، معتوق، الغناي، الوكواك...) ويتضح بسهولة إنّ الغالبية العدديّة تحتكرها عائلتي كشيش (11 ربّ عائلة من جملة 109 أي قرابة 10%) وعباس 16 ربّ عائلة (قرابة 15%).

وانضمت إلى مجتمع هرقلة مجموعات أخرى أبرزها عائلات أصيلة من أولاد سعيد القبيلة المجاورة (5 رؤساء عائلات) منهم من اندمج في البلدة وهي حالة الساسي بن محمد بن سعيد الذي كان له "حانوت عطار به سلعة قيمتها 600 ريال "إضافةإلى مجموعات من قبيلة المهاذبة التي كانت تأتي إلى الجهة في فصل جني الزيتون والحصاد وكانت علاقتهم بأهالي هرقلة علاقات تعاون و تشارك فلاحي في الرعيّ والحصاد وصيانة الزياتين ويتّضح ذلك من عدد الودائع "الأمانات" المتروكة عند أعيان هرقلة والمتمثلة في "الخيام وبيوت الشعر والغراير والوسايد ومطامر الحبوب وبعض الأموال و المصوغ ".

ومن هؤلاء المهاذبة من انطلق في مرحلة استقرار نهائي سواء بهرقلة أو بظهيرها واتسع المجتمع الهرقلي لفئات أخرى تنعت بـ "العشراوة" (جمع عشير) منهم من هو أصيل جبل وسلات والحمارنة أو طرابلس...

---

7 – أ.و.ت: الدفتر عدد 897 حول الاعانة بوطن سوسة سنة 1863. ص 82-86.

ويجب أن نؤكّد على ظاهرة الفوارق الاجتماعية عند سكان هرقلة فهي وإن لم تكن فاضحة حيث يتشابه اكثر من 70°/° من أرباب العائلات في الإمكانيات المادية والأملاك-دائما من خلال عريضة الدعوى- فإنها موجودة وثابتة إذ هناك بعض الفئات الفقيرة جدّا التي لا تكاد تمتلك ما تسدّ به الرمق من احتياطي الزيت والحبوب وأحيانا تسكن بيت فقط (6 حالات أي5°/°) وهي مجموعات لا تملك الزياتين ولا الأراضي وقد تكون حديثة الاستقرار بالبلدة أو ضحية الفقر والتداين خاصة "للمركانتية" اليهود المستقرين بسوسة من أمثال زكي كوسطة واسحاق يونس وأمثالهم الذين اختصوا في الانشطة الربوية مما مكنهم من الهيمنة على تجارة الزيت واشترء زياتين عدّة عائلات تورطت في "الرهونات والسلف".

وبالمقابل نجد شريحة من الأعيان تنتمي في أغلبها إلى عائلة عبّاس و هي عائلة ثرية ومرفهة و منها خاصّة عمر بن صالح عبّاس الذي يتوفر منزله على احتياطي هام من الحبوب والزيت "تسعة جرار مكسرة واثنان صحاح .. انتهبوا له 14 جرّة مملوة زيتا و20 قفيز قمحا و30 قفيز شعير وقفيزين ونصف محمصة وكسكسي ونصف قفيز ملثوث و50 جزة صوف 40 رطل طعمة و12 رطل قيام واربعة اقفزة فول.." وموارد أخرى هامة تدلّ على نفوذه الاقتصادي الواسع "صندوق داخله ثلاثة آلاف ونصف دراهم ورسوم دين للمركانتي إسحاق يونس قدره عشرة آلاف ريال و6 بقرات وعاصي.." ويتضح أنّه كان في علاقة وساطة أو شراكة مع المركانتية بسوسة.

ويتكافأ آل عباس من حيث أهميّة الثروة فهم من القلائل الذين يتوفرون على مكاسب نقدية - في مجتمع وظرف كان فيه تداول العملة النقدية ضعيفا- إلى جانب العقارات والمنقولات وأغلب الودائع والرهائن موجودة عندهم .

ومن أعيان البلدة أيضا الحاج فرج بوعجيلة الذي كان يملك إلى جانب الأرزاق والمدخرات "10مكاحل بايليك" وهي تقريبا ترسانة سلاح البلدة (المجموع 13 بندقية) وكذلك شيخ البلدة الحاج حسين بن رجب الذي كان يملك (مطامر حبوب وودائع ومدّخرات).

وينافس أعيان المال والمخزن أعيان العلم وأرباب الشعائر وهي حالة عائلة كشيش التي منها عدول الإشهاد (علي بن فرج كشيش)[8] وإمام البلدة وقارئي القرآن والمشرفين على بعض الأولياء والزوايا ويماثلهم في المرتبة أنفار من عائلة بن عمّار وخاصّة القارئ صالح بن عمّار الذي نُهبت له ثروة من نوع خاص تتكون من " خزنة كتب علم من فنون كثيرة" بها 54 مجلدا من كتب القرآن و الفقه والشروح والنحو والفرائض وعلوم التجويد... ووجاهة العلم والتدين لا تقلّ قيمة في ذلك المجتمع التقليدي عن وجاهة المال والمخزن فالمجموعة المرابطية المنتسبة للولي "سيدي أبي منديل" كانت معفاة من الضرائب إلى حدود منتصف القرن 19 وكانت تحظى بمكانة خاصة في هرقلة.

وتضمّ البلدة في خضم هذا النسيج البشري المتنوع مجموعة من العساكر (يوزباشية و يوزباشية عسّة) منهم من هو متغيّب وقد يكون في صفوف محلة زرّوق أو في صفوف محلة الثوّار كغيره من عساكر الساحل سنة 1864 [9].

تلك تضاريس الوضع الاجتماعي والعائلي بهرقلة عدديا وكميا من خلال الثروة والمكانة والأصول وهي وضعية مجتمع قروي ساحلي يتوفّر على معطى التقارب والانصهار من ناحية لكن تراتبيته الاجتماعية والطبقية ليست غائبة وإن بدت ضعيفة أحيانا.

2- ملامح الاقتصاد و الإنتاج و الموارد بهرقلة قبيل الاستعمار

يتجلّى من خلال تعداد الخسائر والمنهوب في إغارة أوت 1864 أنّ أهالي البلدة يعيشون من موارد الفلاحة والرعي والحرف وهم بذلك مثلهم مثل القرى الوسطى والكبرى بالساحل يزاوجون بين

---

8 - المكني (عبد الواحد) : " عدول الإشهاد بالساحل التونسي في بدايات الحماية 1874-1904" مقال بكتاب ، من البيزاكيوم الى الساحل مسيرة منطقة تونسية عبر العصور، منشورات كلية الاداب سوسة، 1999 ص 59-79.

9 - بن بلغيث (الشيباني) : " دور جنود الساحل في ثورة 1864 ومقاومة الاحتلال الفرنسي سنة 1881" ، مجلة روافد ، عدد2 ، 1996،ص 5-18.

مختلف الأنشطة الاقتصادية غير أنّ هذا المعطى قابل لمزيد التدقيق والتحليل.

يتضح ان النشاط الفلاحي كان يعتمد على غراسة الزياتين في ظهير البلدة وقد كانت غابة هرقلة تتكون من زياتين قديمة(جداري) إضافة إلى مغارس مستحدثة بالتعاون مع" طيّاش" المهاذبة والبعض من أولاد سعـــيد. وقد كانت البلدة تضمّ معاصر(5من نوع ضرب الماء وواحدة من النوع السلطاني) وقدرت كميات الزيت المنهوبة والمراقة بعد الغارة بـ"1385 مطر" (حوالي 26000 لتر) ويتكامل نشاط الزيوت مع البستنة وفلاحة "السواني" بالطرق السقوية فقد نُهب للأهالي 59 دلو سني ولهم من المدخرات 50 قفيز درع وهي زراعة سقوية وقد حدثتنا المصادر عن وجود بساتين وأجنّة وسواني بهرقلة تمتدّ على مساحة تقارب 60 هكتار[10] غير أنّ مستقبل هذا النشاط كان محكوما بالتراجع و الانحصار أمام ملوحة الماء بحكم تأثير السباخ و البحر خصوصا إن الظهير الهرقلي محدود المساحة. و يتعاطى الأهالي نشاط زراعة الحبوب (تمّ نهب 556 قفيز قمح و910 قفيزشعير و 5 اقفزة محمص وكسكسي و60 رحي) لكنّ المردوديّة تبدو ضعيفة و لا تقارن بهنشير النفيضة أو في بقية قرى الساحل المجاورة. كما يهتمّ السكّان بتربية الماشية (48 رأس بقر و140 شاة و850 جزّة صوف وقنطارين و71 رطل طعمة و52 رطل قيام) ويتمّ هذا بالتعاون مع المهاذبة وأولاسعيد .

يضيف أهالي هرقلة إلى هذا النشاط الفلاحي المتنوع (غراسة - زراعة-رعي) نشاط الحرف النسيجية (54 نول بخلتها...) وخاصة "صناعة الحلفاء" إذ تختص البلدة بإنتاج حبال الحلفاء و"الشوامي" التي تستعمل لعصر الزيت (50 ظفيرة حلفة و721 زرزة حلفة) إضافة إلي الحصير (666 حصيرة عبادي) ولا يكاد يخلو منزل من منازل البلدة من صناعة الحلفاء وخاصة " الشوامي" والأصل في هذه الصناعة حسب بعض الروايات الشائعة أنها " دخلت هرقلة بفضل بعض المساجين الذين تعلموها بدورهم من مساجين إسبان " وهو أمروارد. [11]

---

10 – أ،و،ت ك الدفتر 3967 بتاريخ 1897.

11 DESPOIS (J) : la tunisie orientale , Sahel et basses steppes, Paris PUF, 1955,p313.

تعطينا قائمة المنهوبات فكرة عن محيط المبادلات فالفخار من جربة والنحاس من القيروان والمصوغ والأدباش من سوسة والأرحية من القطار.تلك هي أوضاع هرقلة الاجتماعية والاقتصادية قبيل الحماية وما يلفت الانتباه هو ضعف بل انعدام المؤشرات على وجود استغلال لموارد البحر والصيد في بلدة مشاطئة بل إنّ اصل وجودها هو المرفأ و البحر؟

II - الأوضاع الاجتماعية بهرقلة عشية الاستقلال (1955)

إذا كان ذلك وضع هرقلة في فترة ضعف الدولة التونسية وانهيار المجتمع والاقتصاد قبيل الحماية فهل تطوّر وتحسّن في عهد "السلم الفرنسي" والأمن الاستعماري لدولة متطورة مثل فرنسا ؟

ننطلق في الإجابة من خلال وثيقة تعود لربيع سنة 1955 وهي عبارة عن دراسة ميدانية قام بها بوفيلي PAUPHILET وهو فرنسي مكلف بالبحوث في معهد الدراسات العليا الذي يعتبر أوّل نواة جامعية عصرية بتونس في عهد الحماية وقد كان موضوع الاهتمام يتمحور حول مستوى المعيشة بهرقلة في إطار ملتقى عالمي انعقد في تونس بين10و17 أكتوبر1955وكان محوره مستوى المعيشة المرتبط بالمجتمعات الفلاحية ونشرت أعماله سنة 1957 [12].

1) مظاهر الركود و التراجع

السنة	1864	1897	1931	1946	1955	1956
العدد	600	781	1484	1638	1764	1986

جدول حول تطور عدد السكان بهرقلة خلال الفترة المعاصرة.

تطور عدد سكان البلدة بنسق بطيء[13] طيلة الفترة المدروسة وهو مظهر من مظاهر الركود الديمغرافي الذي ارتبط بركود الإنتاج الفلاحي بالبلدة فمن جملة680 ساكن ناشط يشتغل بقطاع الفلاحة 65 فقط (10°/°) و 109 يرتزقون من هذا القطاع بصفة ثانوية، ولم تتطوّر المساحات المزروعة بل على العكس من ذلك كانت في تآكل

---

12 – PAUPHILET(D) : " niveaux de vie à Hergla",in,niveaux de vie liés a l'agriculture, Paris,puf,1957,pp30-34.

13 – أرقام 1931 و 1965 مأخوذة من الاحصاءات الرسمية والبقية مجرد تقديرات.

نتيجة ملوحة المائدة واتساع مجال السباخ المحيطة بهرقلة وبلغ عدد الزياتين 40 آلف شجرة (ضعف ما كانت عليه سنة1864) غير أنّ نسبة كبيرة منها أصبحت عند مجموعة "المهاذبة" التي استقرت تدريجيا بالمنطقة واختصت في النشاط الفلاحي والرعوي وأصبحت ممثلة إداريا بمشيخة تحمل اسم العرش[14] وقد كان ذلك أمّا بالشراء أو بالمغارسات و" التشارك" مع أهالي هرقلة ويؤكد بوفيلي أن المردودية الفلاحية بهرقلة ضعيفة بل"رديئة" فمردودية هكتار القمح لا تتعدّى 6 أقفزة أمّا مردودية هكتار الشعير فهي لا تتعدى 10 اقفزة وتقلّ أحيانا إلي قفيزين فقط أمّا الزّراعات السقوية فقط كانت في تراجع مستمر نتيجة تناقص المائدة السطحية و تزايد درجة الملوحة. وفي ما يخصّ النشاط الرعوي فقد كان يتمّ في شراكة مع المهاذبة وأولاد سعيد.

لقد أدّى تراجع مكانة الفلاحة إلى تراجع مستوى المعيشة عند غالبية السكان غير أن الاستثناءات ظلّت موجودة إذ يوجد من أرباب الأسر من كان يملك 500 شجرة زيتون و80 هكتار من المزروعات. وعموما كان مستوى المعيشة منخفضا عند غالبية السكان إذ إن معدل الدخل العام بالنسبة للفرد في السّنة قدر بـ50 آلف[15] فرنك وهناك بعض العائلات كانت تعيش الفقر والمجاعة. وعموما فقد اتّسم الوضع الإنتاجي بالجمود والتراجع وربّما لم يساعد الموقع المنعزل للبلدة على استقرار المعمرين والأجانب بها وهو ما ساهم في حرمانها من مشاريع "التنمية الاستعمارية" (استقر بها مواطن أوروبي فقط في نهاية القرن 19) وقد تواصلت تلك القطيعة المريبة بين أهالي البلدة والبحر وموارده رغم ثرائه بالأسماك فإلى حدّ سنة 1955 لم يمتهنْ حرفة الصيد إلا 3 بحارة من هرقلة في حين أن صيادي سوسة والبقالطة والحمامات كانوا يغنمون من عرض ساحل البلدة وفير الموارد[16].

---

14 – تعد مشيخة المهاذبة سنة 1956 حوالي 1973 نسمة .

15 – انظر تقرير بوفيلي ..نفس المصدر ص:33..

16 – المصدر نفسه ، ص 30..

2- تدعم النشاط الحرفي واختصاص البلدة في" تصنيع الحلفاء"

هو المظهر الوحيد و"الصارخ" للتطوّر الإنتاجي في هرقلة على عهد الحماية فقد كانت غالبية السكان إناثا وذكورا، شبانا وأطفالا وكهولا "يتمعشون" من الحرف المرتبطة بالحلفاء (الشوامي، الحبال، الحصر..) وكان هذا النشاط - رغم ان هرقلة لا تنتج الحلفاء- عبارة عن موهبة و" غرام "[17] عند السكان في المنازل وفي الدكاكين وحتى في المقاهي إذ أنّ 150 منزلا من جملة 280 بالبلدة يشتغل بحرف الحلفاء و500 ناشط من جملة 680 ينشطون أساسا بهذه الحرفة منهم 200 امرأة. و تعتبر"الشوامي"المعدة لعصر الزيوت وظفائر الحلفاء بمثابة العملة داخل هرقلة إذ بالإمكان اقتناء كل البضائع من الدكاكين بواسطتها وقد كانت ذات قيمة تبادلية معترف بها عند الجميع وكلّ من كان له بعض الفوائض كان يشغلها في هذا القطاع غير آن السيطرة كانت بيد بعض الشركات التي كانت تمتلك محلات للتخزين و التجفيف وكانت تشتغل مع الأهالي وفق نوع من "المقاولة" أو"السلم" وذلك بتزويد الحرفيين والحرفيات بالمادة الأولية(الحلفاء) وفرض أسعار ثابتة لا علاقة لها بالأسعار المتداولة في السوق إذ لا تتعدى الكلفة ثلث قيمة البيع وهو ما جعل هذا المورد الإنتاجي الهام لا يعود بالنفع على السكان إلا بصفة محدودة وثانوية. وهو ما عرقل عمليات تراكم رأس المال العائلي وظل أغلب سكان القرية يعيشون على مستوى محدود من المعيشة.

إنّ هذا المظهر هو الوحيد تقريبا الذي يمكن حسبانه كمظهر من مظاهر" التطوّر" ويمكن القول أن البلدة تحوّلت من طابع فلاحي رعوي تُرتّبُ فيه الأنشطة الحرفية قبيل الحماية في مرتبة ثانوية إلى طابع حرفي بالأساس (عالم الحلفاء) وتدحرجت الفلاحة والرعي إلى مكانة ثانوية وهو ما يمكن أن يفسره البعض بتطور للمجتمع الهرقلي من النمط القروي الفلاحي إلى النمط الحرفي المديني.

---

17 – نفس المصدر ، ص 31.

الـــخاتـــمـــة

يغلبُ على الاعتقاد أنّ المجتمع الهرقلي مرّ في فترة الحماية بمرحلة من الجمود والتراجع في الإنتاج وفي الحراك الاجتماعي والبشري ولم تفض موارد الحلفاء التكميلية إلى خلق نمط اجتماعي جديد خصوصا أنّ المنطقة ليست منتجة للحلفاء كما أنّ طرقعصر الزيتون (نوعية المعاصرالجديدة وظهورالمواد البلاستيكية تدريجيا) جعل هذه الصناعة الحرفية في النصف الثاني للقرن العشرين غير قادرة على الاسترسال وإعالة غالبية سكان البلدة التي منها من راهن بداية من الثلاثينات على المدرسة والتعليم ونجح و منها أيضا من راهن على النزوح نحو المدن الكبرى كسوسة ونابل وتونس.


ونعتقد أنّ تطوّر هرقلة الاجتماعي والاقتصادي مرتبط بالبحر(صيد، سياحة..) تلك الحلقة المفقودة في حياة أهالي البلدة طيلة 4 قرون أو أكثر. لقد تنكرت هرقلة لعلّة تأسيسها وهمّشت دور البحر في انساقها الاقتصادية والاجتماعية وهي حالة تستحقّ مزيد الدرس.

عبدالواحـــد المكنـــي

(كليّة الآداب والعلوم الانسانية بصفاقس/ قسم التاريخ)

مراد رقية

صورة هرقلة عبر دفاتر الجبائية





صورة هرقلة عبر الدفاتر الجبائية
من القرن السادس عشر إلى القرن التاسع عشر

توطئـــة:

قبل تجميع وتركيب مكوّنات هذه الصورة التي تعكس موقع وحدة هرقلة من الفضاء الاداري المرتبطة به طوال هذه المرحلة وإلى غاية يومنا هذا ألا وهو منصب الساحل ثمّ وطن سوسة يحسن بنا الانطلاق من المخطوط عدد 18669 المحفوظ في الكتبة الوطنية والذي يورد أقدم شهادة عنها خلال المرحلة الحديثة من خلال ما سجّله طلبة المدرسة العسكرية بباردو أثناء زيارتهم الميدانية التوثيقية لوحدات إقليم الساحل خلال النصف الأوّل من القرن التاسع عشر فقد جاء في التقرير ما يلي: " قرية على ساحل البحر بها جامع خطبة ومقام لسيدي بومنديل وتربة سيدي صالح وسيدي بوبكر وتربة لسيدي الخافي وحوطة لسيدي علي بن سلام وتربة لسيدي ميمون وخمسة معاصر ضرب ماء وواحدة سلطاني وماية وثلاثة دارا. ويحدّ الجميع قبلة في طائفة حلق المنجل وقدر المسافة إليه أربعة أميال، وفي أخرى سبخة حلق المنجل يقدر المسافة إليها ميلان، وشرقا البحر، وجوفا في طائفة البحر وفي أخرى الجريبة وقدر المسافة إليها تسعة أميال وفي أخرى تراب النفيضة وقدر المسافة إليه ستة أميال، وغربا سبخة سيدي علي السويح وقدر السافة إليها ثلاثة أميال وبينها وبين قرية سيدي بوعلي على طريق حلق المنجل سبعة أميال، وبين هرقلة وتاكرونة سبعة عشر ميلا ونصف الميل[1].

وتكون هرقلة بإعتبار عدد الديار في المرتبة العاشرة ضمن وحدات وطن سوسة مسبوقة بزاوية سوسة بـ130 متبوعة بمنزل كامل بـ80 دارا.

---

[1] ـ المكتبة الوطنية مكتبة حسن حسني عبد الوهاب : مخطوط عدد18669، ص 14. راجع الجدول عدد1 المرافق لهذه الدراسة.

I - صورة هرقلة خلال المرحلة المرادية:

تقتصر المعطيات المتوفرة عن وحدة هرقلة خلال المرحلة المذكورة على تلك الواردة ضمن الدفتر رقم1 لسنتي1677- 1676، وهو أقدوم وثيقة جبائية مباشرة مرتبطة بالعهد التركي ويحدّد لنا هذا الدفتر نصيب الوحدة المذكورة من ضريبتين قارتين أساسيتين تستخلصان بصفة ثانوية رغم إعتماد نسق سداسي وهما ضريبة المجبة وضريبة قانون الزيتزن.

1– ضريبة المجبة:

كان أهل هرقلة يدفعون خلال مرحلة أواخر القرن السابع عشر ما مجموعه 342.5 دنانيرا مستخلصة على قسطين يقدّر أوّلهما بـ202 دينارا، في حين يقدّر الثاني بـ 140 دينارا وهو ما مكّنها من تبوّء المرتبة الرابعة عشرة فكانت مسبوقة بالمردين التي دفعت 440 دينارا ومتبوعة ببير الطيّب بـ260 دينار[2].

تفيد معلومة واردة ضمن فصل بيان مصروف "تمتّع بعض أهالي هرقلة من القطنين بسوسة بتذكرة إسقاط من ضريبة المجبة بمقدار بلغ 16 دينارا وثلاثة أرباع دون بيان عددهم وهويتهم وكذلك الأسباب التي إستوجبت هذا الاسقاط[3]. وقد تمتّع بإسقاطات مشابهة المستوطنون بذات المدينة التي كانت العاصمة الادارية لإقليم الساحل "بعض أهل الزاوية" و "أهل الوردانين" و "بعض أهل البقالطة" و"بعض أهل طبلبة" وكذلك "بعض أهل المهدية".

2 – قانون الزيتون:

لقد بلغ تعداد غابة هرقلة الخاضعة لهذه الضريبة في مرحلة النصف الثاني من القرن السابع عشر ما مجموعه 2200 أصلا سلّط معلوم جمعي قدرّ بـ75 دينارا. وقد وقعت الاشارة في سياق ضبط عدد الأصول المشار إليها أنّ ذلك العدد يشمل زياتين "هرقلة وأهل تاكرونه وجرادو المالكين بها دون بيان نسبة أمتلاك هذه الأطراف الثلاثة لهذه الغابة المقدّر عدد أصولها بـ2200 ومقدار القانون المسلّط على كلّ طرف منها.

2- الأرشيف الوطني " أ، و،ت" ، دفتر عدد ثلاثة ص 113- 115.

3- المصدر ذاته ص 114.

ومن الملفت للإنتباه في هذا السياق عدم إدراج مرابطي هرقلة وزواياها ضمن هذا الاحصاء على غرار مرابطي زاوية سوسة، والقصيبة وزاوية الفريّات وجمّال الذين تمتعوا بمعاليم مخفضة من هذه الضريبة من خلال مطالبتهم بدفع ثلاثة ريالات على كلّ مائة أصل من الزياتين وهو ما تمتّع به أيضا أشراف ومرابطي سوسة وكذلك أشراف مساكن[4].

وقد تبوّأت غابة هرقلة المكونة من الأهالي وتاكرونة وجرادو التي قدرت أصولها بـ2382 أصلا و116 دينارا ومتبوعة بملكية وحدة الضرّابين أي المسعدين حاليا بـ2018 أصلا و252 دينارا وثلاثة أرباع. ولم تكن الضريبتان المذكورتان أي المجبة وقانون الزيتون الوحيدتان المسلّطان على وحدة هرقلة خلال المرحلة المذكورة ولكن إقتصرنا عليهما لورود نصيب وحدة هرقلة منهما، ذلك أنّ الضرائب والرسوم واللزمات أدرجت معالمها بصفة إجمالية ولم يكن من الممكن التعرف على مظاهر تفاوت إسهام مختلف الوحدات فيها.

II - صورة هرقلة خلال المرحلة الحسينية:

1- مرحلة حسين بن علي تركي (1735- 1705)

يعتبر الدفتر رقم ثلاثة المرتبط بسنتي1123 و1124 هـ (1710- 1711م) دفترا مرجعيا قياسيا بالنسبة لمرحلتي القرنين الثامن والتاسع عشر لتضمنه لمقوّمات النظام الضريبي شبه النهائية سواء في مستوى قائمة الضرائب أو في مستوى المعاليم المستوجب دفعها من وطن سوسة في مستوى الأفراد والطوائف والجماعات والهياكل الحرفية.

ويمكن تقسيم الضرائب والرسوم المدفوعة من قبل وحدة هرقلة من خلال الدفتر رقم ثلاثة والتي سوف تتميّز بطابعها النهائي وشبه الثابت إذا إعتبرنا التحويرات الجزئية التي شملت ضريبتي ضيافة الباشا خلال مرحلة القرن الثامن عشر إلى صنفين :

- صنف ثان يدفع بصفة جماعية أي باعتبار مجموع وحدات وطن سوسة دون تخصيص ودون تحديد كلّ وحدة منها.

4- المصدر ذاته، ص 122.

أ - الضريبة المدفوعة بصفة أحادية :

يشمل هذا الصنف الأوّل عديد الضرائب منها القارة كضرائب المجبة وقانون الزيتون ومونة المحلّة وضيافة الباشا وكذلك بعض الضرائب الاستثنائية الطارئة كالدوايا والخطايا المتولدة عن ارتكاب الجرائم العمد وغير العمد وإسقاط الأجنّة وقتل الحيوانات وارتكاب المخالفات السياسية والأخلاقية بأنواعها.

ب- الضـرائب الـقارّة:

- ضريبة المجبة:

تميزت باستقرار معلومها الجملي عند المستوى السابق وهو 342.5 دينارا متبوّئة ذات المكانة السابقة وهي الرابعة عشرة فكانت مسبوقة بوحدةالمردين بـ440 دينارا ومتبوعة بوحدة بيراطيّب بـ260 دينارا وثلاثة أرباع. ويبرز هذا الدفتر لأوّل مرّة ضمن فصل"الخرج اللازم والمقصود به المصاريف الثابتة ومن ضمنها الاعفاءات الضريبية من ذلك تمتّع "الشيخ سي علي بن سلامة" بإسقاط من ذات الضريبة وقدرها 15 دينارا. وقد كان من المتمتعين بالاسقاط من ذات الضريبة "المرابط دربال من أهل جرادو" بمقدار 16 دينارا وكذلك "أولاد أولاد مرجيل؟ من تاكرونة أصحاب سي معروف الجديد "بمقدار 23 دينارا".

- ضريبة قانون الزيتون:

رغم حرص القائمين على تدوين الدفاتر خلال مرحلة القرن السابع عشر على ضبط عدد الأصول بمختلف الواحات وما يتوجّب عليها عن غابة كلّ منها من الضريبة فإنهم اكتفوا خلال مرحلة القرن الثامن عشر بتحديد معلوم الضريبة على غابة هرقلة وهو254 دينارا عن مرحلة أواخر القرن السابع عشر، فما الذي يبرز ذلك؟ هل هو تناقض في عدد الأصول أم أنّ بعض فئات المالكين من المرابطين ومشائخ الزوايا مثلا ضمن الغابة المذكورة قد تمتعوا بتخفيضات أو إعفاءات جبائية؟ الواقع أنّ وحدة هرقلة لم تكن متبوعة هذه المرة سوى بوحدات الضرّابين (236 دينارا) والكنايس (147 دينارا) وحمدون (105 دينار وثلاثة أرباع) والنورين (97 دينار وثلاثة أرباع) وزاوية الفريّات(78 دينارا) وهنشيرالطويل (31 دينارا) وهنشير الفقاعية.

- ضريبة مونة المحلة :

هي ضريبة سنوية ذات طابع عرفي وضعي مثل سابقتها غايتها المساهمة في تلبية الحاجيات التموينية للمجال العسكري، وقد بلغ الحصول الجملي المسلط على كامل وحدات وطن سوسة 2000 دينارا أعفيت منها وحدة هرقلة على غرار وحدات مساكن وزاوية سوسة وزاوية الفرايّات وعزيب سوسة ولا نعلم الأسباب الكامنة وراء هذا الاعفاء والذي يمكن أن يكون مرتبطا بانتساب الوحدة الأولى لفئة الأشراف والثانية والثالثة لفئة المرابطين والأخيرة لوحدات قبلية متواجدة داخل الاطار الجغرافي لوطن سوسة وامكانية اسهامها في دعم السلطة المركزية على أصعدة أخرى [5].

- ضريبة ضيافة الباشا:

كان يخضع لها سكان الوطن مرّة كلّ ثلاثة سنوات، وقد ساد هذا التواتر إلى غاية سنة 1148هـ/1735م حيث استبدل بنظام سنوي على غرار المجبة وقانون الزيتون ومونة المحلة. ويفيد ذات الجدول السابق الخاص ببيان ضيافة الباشا ومونة المحلة على سوسة ووطنها بتواصل اعفاء وحدة هرقلة بموازاة مع الضريبة دون توضيح الأسباب المستوجبة لذلك. وقد استفادت ذات الوحدات السابقة من الاعفاء وهي وحدات مساكن وزاوية سوسة وزاوية الفريّات وعزيب سوسة[6].

ج- الضرائب الاستثنائية

- الخطايا أو المحصول النقدي للمخالفات:

لقد تعددت الأسباب التي استخلصت من أجلها الأموال المشار إليها بخطايا وهي المخالفات السياسية (الفساد المجاسرة على السلطة) والاقتصادية (التهريب والتهرب الجبائي) والأخلاقية (ارتكاب الفاحشة ولاعتذاء على المحصّنات) ويمكن أن يخضع لدفعها الأفراد والجماعات على حدّ السواء.

5- (أ، و، ت) ، المصدر ذاته ، ص 207.

6- - (أ، و، ت) ، المصدر والصفحة ذاتهما.

- <u>الخطايا ذات الصبغة الفردية :</u>

لقد عثرنا على بعض العيّنات من هذا الصنف وهي تتنوع كالتالي:

" خطيّة على أحمد فتح الله الهرقلي 1000 دينار واحدة لأجل تسفلهم في المخازنية أخبر بذلك أحمد السبعي تعيّن خلاصه على يده أواخر شوال 1207".

" خطيّة خليفة بنعلي عفان الهرقلي 500 دينار لأجل ما ذكر، أخبر بذلك المذكور وتعيّن خلاصها على يده في التاريخ.

- <u>الخطايا ذات الصبغة الجماعية:</u>

تعددت العيّنات ضمن هذا الصنف وهي تتنوّع:

" على عمر بن الحاج عمر حويشي الهرقلي 845 ريالات بقية ما حاسبوه به جماعة به جماعته بالعدالة أخبر بذلك والدنا محمود الجلوالي في 20 رمضان 1210.

" وعلى فرحات بن سالم بن عبد الحميد الهرقلي 1000 ريال. واحد بقيّة ما حاسبوه به جماعته بالعدالة على يد المذكورين في التاريخ. الجملة 1846 ريالا غير ربع المذكورين أعلاه تعيّن خلاصهم على يد ولدنا محمود الجلولي المذكور في التاريخ المذكور"[7].

" محاسبة علي بن أحمد بن حمودة شيخ هرقلة كان خمسمائة دينارا حاسبوا بذلك إخوته بالعدالة قيّدت على يد فرحات الجلولي قايد سوسة بجوابه في 4 ذي الحجة 1238 تعيّن خلاصه على يده"[8].

III - مساهمة هرقلة في فرض النزاع العائلي على السلطة (بين الباشة والحشينية):

رغم صمت أمّهات المصادر ممثلة في ابن أبي الضياف والمشرع الملكي للصغيّر بن يوسف والكتاب الباشي لحمودة بن عبدالعزيز عن موقع هرقلة من هذا الصراع ومدى استقرار أو تحوّل ولائها لهذا الطرف أو ذاك ، فإنّ المصادر ممثلة في دفاتر حسابات المطالب ودفاتر الدوايا والخطايا المودعة بالأرشيف الوطني الراجع

7- (أ، و، ت) ، الدفتر عدد 291، ص 179.

8- (أ، و، ت) ، الدفتر عدد396، ص324.

بالنظر للوزارة الأولى تتيح الفرصة للتّعرف على هذا الموقع في مرحلة صراع الأصوال (حسين بن علي وابن أخيه علي باشا) وكذلك الفروع (أبنا حسين وحفيد علي باشا وهو اسماعيل بن يوسف) ولعلّ أهمّ ما يميّز موقف وحدة هرقلة مقارنة بمواقف سائر وحدات وطن سوسة الأخرى هو تجانس وانسجام موقف سكّانها تأييدا لعلي باشا بن محمد ومعارضة لحسين بن علي، وكان هذا الموقف متطابقا وموازيا لموقف وحدات أكودة وحمّام سوسة وزاوية سوسة [9].

وتفيد فصول الخرج الطارىء وهي عبارة عن النفقات التموينية الطارئة لفائدة التشكيلات العسكرية المساندة للمعسكر الباشي من صبايحية وغبطان وغيرها باتخاذ وحدة هرقلة معسكرا أو وحدة جسر لهذه القوّات في استكمال سيطرتها على باقي الوحدات مثلها في ذلك مثل القلعة الصغرى وزاوية سوسة[10] وهو ما تؤكد عليه المصادر الأصلية خاصة منها المشروع الملكي للصغير بن يوسف[11].

وقد حظي أهالي هرقلة رعيّة وأعيانا لقاء هذا التأييد الجماعي والثابت للمعسكر الباشي خلال حكم علي باشا بن محمد (1147/ 1735- 1756/1169) بمكانة متميّزة من الناحية السياسية وكذلك الجبائية على غرار الوجدات الباشية الأخرى، فكان اعتراف السلطة المركزية بالجميل لها من خلال فصول الإسقاطات النقدية والعينيّة المشار إليها بفصول "الترك والطايح". وقد شملت هذه الفصول على حدّ السواء الرعية والأعيان، وتراوحت بين الإسقاط "ضريبة المجبة" والترك(قانون الزيتون) وتوزعت كالآتي:[12]

الأصناف المستفيدة	ضريبة المجبى (دنانير)	ضريبة قانون الزيتون(دنانير)
وحدة هرقلة	(342) د	–
شيخ هرقلة	–	10
سيدي علي بن سلامة	–	–
سيدي بو منديل	–	10

9- (أ، و، ت) ، الدفتر عدد26 ، ص187.

10- (أ، و، ت) ، الدفتر عدد162، عدد17.

11- بن يوسف المشوع الملكي، المطبعة العصرية، ص ص 203- 208.

12- (أ، و، ت)، الدفتر عدد26 ص187/دفتر عدد48ص73.

ولم تتمتع وحدة هرقلة على غرار الوحدات الباشيّة الأخرى جمّال وأكودة والقلعة الصغيرة وكذلك بعض الوحدات الحسينية مثل سوسة والقلعة الكبيرة والنّورين لمصادرة زياتين غاباتها لفائدة السلطة أو خلوتها من سكّانها من الاسقاط على ضريبة قانون الزيتون ومونة المحلة واالضيافة لأسباب نجهلها رغم إشارتنا في ما سبق لتمتّع هرقلة بالاعفاء من ضريبة المونة المحلّة وضيافة الباشا منذ مراحل سابقة [13].

ورغم إستمرار الإشارة إلىالإسقاط على ضريبة المجبة ومقداره 342.5 دينارا فكنت لاحظت الإبقاء ضمن كلّ دفاتر حسابات المطالب لمرحلة حكم علي باشا بن محمّد على فصول الترك من قانون الزيتون لفائدة الأطراف الثلاثة المذكورة وهي شيخ هرقلة وسيدي علي بن سلامة سيدي سيعيد بومنديل في مستوى عشرة دنانير لكلّ منهم.

وقد أفاد حساب حميدة بن عاشور وكيل سوسة على القمح والشعير بتمتّع الشيخ سيدي بومنديل بما قدره 17.5 أقفزة شعير على أربعة سنوات تمتدّ من 1165هـ إلى 1168هـ[14].

وقد لاحظنا بعد عودة أبناء حسين إلى السلطة الإبقاء على ذات المنتفعين المشار إليهم مع الترفيع في نصيب الشيخ سيدي سيدي علي بن سلامة من عشرة دنانير إلى تسع دنانير ونصف الدينار[15] لأسباب غامضة قد تكون مرتبطة بحرمان هذا الأخير بذات الأكرامات والحسانات التي تمتّع بها الشيخ سيدي سعيد بومنديل خلال العهد الباشي. إلاّ أنّنا عثرنا ضمن ذات الدفتر وتحديدا ضمن فصل "الطايح بالأوامر على تمتع أولاد سيدي سعيد بومنديل بإسقاط من ضريبة العشر على الحبوب سنة 1176 هـ بلغ سبعة شعير وقفيز واحد من القمح[16].

وقد إنتفع" الشيخ محمّد؟ " شيخ هرقلة هو بدوره سنة 1174 هـ بإسقاط بلغ قفيزا وواحدة من الشعير بصفة موازية مع عديد

13- (أ، و، ت) ، الدفتر عدد25، ص 84.

14- (أ،و،ت) دفتر عدد 84، ص 103.

15- (أ،و،ت) دفتر عدد97، 154.

16- (أ،و،ت) المصدر نفسه ص 187.

المشايخ الآخرين وبعض المرابطين دون تحديد أسباب ذلك[17]، ورغم تمتّع أعيان هرقلة بهذه الإسقاطات بعد عوده أبناء حسين بن علي إلى السلطة (سنة 1170هـ/1756 م) فإنّ ذلك لم يمنع من إخضاع وحدة هرقلة أسوة بسائر الوحدات الباشية الأخرى ورغم تمتعها منذ عهد حسين بن علي من الإعفاء على ضريبة ضيافة الباشا إلى دفع ضريبة إستثنائية هي أقرب إلى الغرامة الحربية في مناسبتين إثنتين:

أ - ضريبة سنة 1170 هـ:

لقد تزامن فرض الغرامة الأولى مع هزيمة ومقتل علي باشا بن محمد واسترجاع أبناء حسين بن علي لسلطة محمّد الرشيد باي (1756-1759) فدفعت وحدة هرقلة 1000 ريالا من مجموع 81400 ريالات وهو ما يمثل نسبة 1.22% فكانت في المرتبة الثامنة متساوية في ذلك مع وحدة تاكرونة وجرادو والزريبة، كذلك منزل كمال والبرجين، ولم تكن متبوعة سوى بوحدتي بني كلثوم والكنايس وببعض الجرابة والمستوطنين بجمّال المتصدّرة للقائمة وبالوطن القبلي " أولاد بن نبلة وأولاد شعبان".

ب - ضيافة سنة 1172 هـ :

تزامنت هذه الغرامة الثانية مع ارتقاء علي باي بن حسين أو علي باشا الثاني (1759- 1782) العرش بعد وفاة أخيه، وتفيد المصادر بتوازي هذا الإرتقاء مع إندلاع إنتفاضة إسماعيل بن يونس بن علي باشا والتي إنضمت إليها ذات الأطراف المساندة لجدّه علي باشا بمن فيها وحدة هرقلة. وقد كان نصيبها هذه المرّة 600 ريالا فحسب وهو ما يمثل نسبة 1.5% متساوية مع وحدة منزل كامل وبني ربيعة، ولمّا تكن متبوعة سوى بوحدة المردين بـ200 ريال والتي لم يسبق أن شملتها ضيافة 1170هـ (1756م).

وقد شهدت الأوضاع الجبائية التونسية بسبب تدهور قيمة العملة وتحريم نشاط القرصنة بتدخل مباشر من القوى الأوروبية وكذلك لتناقص مداخيل التجارة الخارجية التي كان يتولى شؤونها الأوروبيون السعون الى الحدّ من الاستقلالية الوطنية مراجعة وتعديلا بهدف الوصول إلى توفير المداخيل المذكورة كالقرصنة

17- (أ.و.ت) دفتر عدد16 ص147.

والتجارة الخارجية بالأساس، ويرجع الفضل في ذلك إلى كبير وزيراء حسين باشا باي وهو شاكير صاحب الطابع الذي حلّ محلّ حسين باشا مملوك أو حسين خوجة.

IV – إصلاحات شاكير صاحب الطابع:

لقد أدخل الوزير شاكير صاحب الطابع إصلاحات جذرية على النظام الجبائي في عهد حكم مصطفي باي (1835- 1837) رغبة في تحقيق أهداف مشار إليها عند إختلاف التوازنات المالية بتظافر أسباب داخلية وخارجية. وتتمثّل أهميّة هذا التنظيم الجديد في إطلاعنا على مقوّمات النظام الجبائي وأهمّ فصوله، ومعلوم تلك الفصول المسلطة على وحدة هرقلة، ولأوّل مرّة على عدد الخاضعين الفاعلين لدفع مختلف الضرائب وعن مواعيد تسديد مجموعها للسلطة المركزية إضافة لتحديد معاليم الاستخلاص "الخدمة" المسلطة هي بدورها على دافع الضرائب. وقد بلغ المحصول الجملي للضريبتين المسلطتين على وحدة هرقلة بموجب التنظيم الجديد ألف ريال واحدة وأربعة وعشرون ريالا تتوزع بصفة متفاوتة كالاتي:

أصناف الضرائب	المعاليم الجملية (ريالات)	% من المحصول الجملي
كمال راتب دار الباشا	801.5	78.27
الجملة	222.5	21.72

أمّا أوّلها فهو عبارة عن ضريبة قارة يخصّص ريعها لتسديد رواتب عناصر الجيش بفرقه المختلفة وأساسا منها الإنكشارية، وقد نُسب هذا الراتب للمؤسسة القائمة على السداد وهي المنتصبة بالمقر السابق لباشا الإيالة ممثّل السلطان العثماني بتونس بعد سنة 1574م. أمّا الثانية فهي ضريبة قارة ذات صبغة شخصية وتسمى أيضا: " ضريبة الرؤوس" وخلافا لصبغتها الجماعية غير المجزأة في مرحلتي القرن السابع عشر والقرن الثامن عشر فإنها أصبحت مجزأة تدفع بالتساوي بين الذكور البالغين والقادرين. ولم يقع خلافا للمرحلة اللاّحقة بيان الأصناف غير الخاضعة لها والتي من المفترض أن تكون أعيان الدولة داخل الوحدات والشيوخ والطلبة والنّساء والأطفال إضافة للعجز وذوي العاهات. ولعلّ الجديد في هذا الإجراء توزيع محصولها الإجمالي بصفة متساوية بين متساكني وحدة هرقلة البالغ عددهم 128 نفرا فيكون نصيب كلّ منهم ثمانية ريالات. وبالرغم من

هذا المسعى المساوي لهذا الترتيب ومن توزيع المقدار المستخلص على فريضتين أو قسطين أحدهما في شهر أكتوبر والثاني في أفريل فمن الأكيد أنّ الفئات المحدودة الامكانيات قد عانت من ذلك.

وتضيف الوثيقة المشار إليها بأنّ أهالي وحدة هرقلة كانوا يدفعون إضافة لـ 1024 ريالا بحساب ريالين ونصف على كلّ مائة ريال خمسة أرباع منها للذمّي القابض وخمسة أرباع للخلاص وذلك نصف الخدمة السابقة عن المائة. وتعتبر وحدة هرقلة إستنادا لهذا الترتيب الجديد في مرتبة وسطى إذ هي ليست مطالبة كبعض الوحدات بدفع أربعة ضرائب هي: كمال راتب دار الباشا والمجبة وخيل الشوك والسخرة ، وليست كتلك المطالبة بدفع ضريبة واحدة هي المجبة مثل تاكرونه وجرادو والزريبة ، ولا نعلم ماهي الأسباب الكامنة وراء هذا التفاوت في الخضوع للجباية والذي يمكن أن يرتبط بعلاقة الوحدات المختلفة بالسلطة المركزية أو بوجود بعض المجموعات "المرابطية" المتمتعة بعديد الاسقاطات واللاعفاءات مقارنة بفئة الرعية المتحملة الدفع على النسب والمعاليم.

V - صورة هرقلة في القرن التاسع عشر:

1- مدى إستقطاب وحدة هرقلة للتيارات الهجرية داخل وطن سوسة:

يفيد الدفتر رقم 632 لسنة 1272هـ(1855-1856م)، وهو دفتر به عدد رقاب البرّانية بوطن سوسة بأنّ هؤلاء بلغ عددهم الجملي 974 نفرا موزعين على 21 وحدة إدارية تصدرتها عاصمة الوطن سوسة بـ 328 نفرا وهو ما يمثّل نسبة 33.67 %، بينما كانت وحدتا هرقلة وجرادو في المرتبة الأخيرة بصفر من الأنفار مع إشارة الدفتر إلى هتين الوحدتين بعبارة: " لم يثبت بها برّانية" ولا نعلم ما هي الأسباب القائمة وراء غياب هذه العناصر النازحة والمستوطنة داخل وحدة هرقلة رغم إثبات دفاتر عدول الإشهاد خاصة منها المرتبطة بأواخر القرن التاسع عشر وجود حركية من وإلى هرقلة لوجود عديد الهناشير المستقطبة لليد العاملة الفلاحية خاصة منها "هنشير المدفون".

2- صورة هرقلة في القرن التاسع عشر من خلال دفاتر المجبة ودفاتر الدوايا والخطايا :

يفيد النوع الأوّل من الدفاتر بتطوّر تعداد البالغين بدفع ضريبة المجبة ضمن وحدة هرقلة ومقارنتهم بسائر وحدات وطن سوسة وتحديد نسبتهم من العدد الجملي للبالغين القادرين ضمن الوطن بأكمله. وتتمثّل إضافة ذات النوع من الدفاتر في بيان انسجام وتجانس سكّان وحدة هرقلة خلال المرحلة مقارنة بسكان الوحدات الأخرى وهو ما ينعكس في وجود مشيخة واحدة وعدم تعدد الفرق والعشائر ضمن الوحدة المذكورة إلاّ أنّ النوع الثاني من الدفاتر وهي دفاتر الدوريات والخطايا فهي تكشف عن وجود بعض التصنيف العشائري في صلب مجتمع وحدة هرقلة مثال ذلك:

"علي مراد بن الحاج فرج الهرقلي كان شيخا بهرقلة ألفين دينار ما حاسبوه به به جماعته أولاد بن رمضان ببلد هرقلة على ما تعاطاه عليهم في المشيخة كما ذلك في العدالة، وأخبر بذلك نايب ولدنا فرحات الجلولي قايد سوسة وقيّد في 14 رمضان 1236 تعيّن خلالها على يد القايد المذكور في التاريخ. "خطيّة على محمّد الشتيوي الهرقلي ألف واحدة دينار" .

"خطيّة على الحاج علي بن سالم بالسعد من المكان خمسماية دينار الجملة ألفين وخمسماية دينار عليهم لافسادهم على إخوانهم كما ذلك بالعدالة أخبر بذلك ولدنا فرحات الجلولي قايد سوسة وقيّد أواخر حجّة الحرام 1236 تعيّن خلاصهم على يد القايد المذكور في التاريخ"[18]

وقد ارتفعت قيمة الخطايا التي أوجبتها السلطة البايليكية على أهالي هرقلة في أواسط شهر شعبان من نفس السنة إلى إثنى عشر ألف دينا على جماعة العبّاسي " تعيّن خلاصهم على يد القايد فرحات الجلولي " لكونهم شهدوا بالزور"[19].

كما فرض الباي خطايا بجملة سبعة عشر ألف وتسعماية دينار على مجموعة من القلعة الكبرى " لفزعهم على شيخ هرقلة

18- (أ، و، ت)، دفتر 398 ص ص 243- 244.

19- (أ، و، ت)، المصدر ذاته ص 246 .

وفكوه من خدّام القايد أخبر هو بذلك وقيّد في التاريخ وتعيّن خلاصهم مع أهل هرقلة في التاريخ" [20].

تعتبر دفاتر الدوايا والخطايا مكملة لدفاتر عدول الاشهاد لورود بعض المعطيات والبيانات الخصوصية التي تزيد في توضيح موقع وحدة هرقلة داخل المجال الجغرافي وهو إقليم الساحل وداخل الوحدة الإدارية الراجعة إليها بالنظر وهي وطن سوسة ولعلّ أهمها تجانس سكان وحدة هرقلة شبه الكامل رغم ورود ذكر فريق "أولاد بن رمضان" وانغلاقها على تيارات الهجرة على غرار الوحدات المرتبطة بها مثل تاكرونة وجرادو وقوّة ارتباطها بالكيانات المجاورة لها على غرار ما أوردته فصول الخطايا والدوايا لاعتبارات مصلحية تارة ولوجود تمازج وتصاهر وتحالف بين العائلات تارة أخرى.

مـــراد رقـــية
(كلية الآداب والعلوم الإنسانية بسوسة/قسم التاريخ)

20- (أ، و، ت)، دفتر 396، ضض246 ص ص246 – 247.



حسين بالحاج يوسف

عادات وتقاليد الأفراح بهرقلة



حسين بالحاج يوسف (المعهد العالي للموسيقى بسوسة)

عادات وتقاليد الأفراح بهرقلة

*الـــــعرس

اليوم مدينة هرقلة تكلّم فيكم / اسمعوها وشنّفوا وذنيكم / ونتمنّى أحلى وأمتع الأوقات / لكلّ الإخوة الحاضرين والحاضرات / وباختصار كبير / إن شاء الله نوفّق في التّعبير.

يا سيدي بكّلنا نعرفوا البنيّة إذا حبات/ قل أمّها وآش خبّات/ وملّي تحبو الهرقلية/ أمّها تخبّيلها في جهازها هي/ تخالل ملاحف بطّانيّة/ مراقم فرارش زربيّة/ وملّي تبدأ تتبّش وتخبّش/ أمّها تبدأ الدّبش/ وفي العادة نختار لولدي البنيّة/ من أقرابي وجيراني وما تكونش بعيدة عليّه/ وإذا أمّها وافقت باش تعطينا/ من عادتنا ما يشرطوش ياسر علينا/ وفطور خطبتنا شقالة محمّص/ أو دويدة – كسكسي بالدجاج/ عليها محيرمة وإلاّ فوطة/ ونقصدوا ربّي عالصباح لدار الخرخوطة.

والبنيّة الهرقليّة إذا تخطيت/ تقعد مدرقة لأيام/ لا تقابل بوها لا أمّها وهذا النظام/ ولا مواسم ولا أعياد/ لبنت الأجواد/ وكلّ فصل وفصلو/ وكلّ عريس وأصلو.

- تعيين العرس

وإذا العرس عيّناه / قمحنا جبدناه/ وتلمّت أحبابنا ورحيناه/ وصقيناه/ وليلة مدعوكة/ بالغناء والزغاريط والدربوكة/ ونهار الحنّة نقيموا للعروسة علوشها وقمحها وزيتها/ نوصلوهم لّها حتّى لبيتها.

- هرقلة والخطب :

الأحباب نستدعيوهم/ وم الغابة زيتونة كاملة نجيبوها/ وبالفيسان نغلقوها/ وناس تجمّل/ وناس تصنّف / وناس الدّخل.

- الحنّة الأولى :

العروسة فرجوها/ في بيت بوها/ بعدما لبسوها/ تخليلة حبّ الرمّان/ وفوطة معدسة ومنشف على راسها ايبان/ وكُنترة مطروزة

لونها مزيان/ والصبايا بالزغاريط والشمع يدرجوها/ ولِبلاصتها يوصلّوها/ مُشط فيه طريَف حنّة على راسها حطّولها/ وحنّينا يديها ورجليها/ بالغناء والدّربيك عليها/ وقتها يا سيدي الطبل يضرب البرّة بالرنّة/ باش يروح بالقرابة معاهم تبسي الحنّة/ بالشمع/ والنور منّه سْطَعْ/ هازّوا واحد م التراسة/ ورجال ونساء حافلين حتّى لدار العرّاسة/ وعريسنا يحنّي بعُرف الوقيد/ من حنّاي عارف صِنْديد/ يحنّيلو أربعا صوابع/ وما يخلّي كان الصغير مْ اليد/ والشمع يسرج/ وزغاريط يولول وبخور يعجْعجْ/ وحنّاو أصحابو الوزير والجناده/ وفي هرقلة هذه هي العادة/ وديمه طبلنا وزكرتنا/ تغنّي في نغمتنا هاتوا الحنّة يا أختو/.

- ليلة القعده

من غدوة أهل العريس وعرّاستوا وإمّاليه/ يقيموا العريس لدار العروسة يسهروا به/ يا سيدي يبدّلولوا الجناده/ ويغنيوا غناية العادة – يا أصحابوا دوروا بيه/.

- اللباس

سروال عربي ومنتان فوق سورية/ وشمله حرير ملوّنة مطويّة/ وجبّة وبرنوس/ والكبّيطة مزينة الشاشيّة/ والصف لدار العروسة يبدأ يسير/ مع الغناء والطبل في جوّ كبير/. خلطوا لدار العروسة/ فرشولهم حصر وجلود/ ويقعد العريس وسط العرّاسة وهذا المعهود/ والمتفرجين في تركينة/ والعروسة في بيت بوها وأمها الحنينه/ مغطية بتخليلة حمراء دايره بها الصبايا/ وكيف العادة الزكرة مع الطبل دوّايا/ والتّطيح/ ويلّو اللّي بدنو صحيح/ يشطح وما يطيح/ ويروّح عريسنا لدار بوه/ بالطبل والصف كيف ما جابوه/.

- هرقلة والذبيحة :

العقيرة – النشرة : نهار الذبيحة يحضروا المستدعيين الكلّ/ ودورة البلاد بالفرتون مع الزكرة والطبل/ ولسيدي بومنديل جاء الذبّاح/ والدّم ساح/ والحفيظة خذات الدّماغ والجلد/ وسلخنا وروّحنا وما تبقى في سيدي سعيد حدّ/ واستدعينا ناسنا جمليّه/ وطاب اللحم وطعمنا في العشيّة/ وتعشّات عيلتنا خبز الطابونة مع القلايا/ وديمه زكرتنا وطبلتنا دوّايا/.

- الجلوة :

عروستنا لبّسناها فرملة بالجوانح وكوفية فوق الراس/ ومحرمة خضراء بالشبيكة ظاهرة للناس/ ونقشولها/ وعواد قرنفل حطّولها/ وحُمّير ومِ الحرقوس خطّين/ وطلعت عروسة هرقلة تفزع بالزّين/ وقعدت على كرسيها/ والصّبايا والحضّارات دارت بها/ وبعد المغرب وقفوها/ جلاّووها/ ثلاثا دورات دَوْروها/ وحليها محلّيها/ ريحان في الرقبة ومقياس في اليدين/ وتكليلة في الراس وونيس بالخنانش في الوذنين/ وخلخال فضّة يشرنن في الرجلين/ وهذا باش جلّات/ زينة البنات/ خذْ بنيتي يا مضواه/.

- مرواح العروسة :

جاء الطبل من دار العريس باش يقيموها/ في حرام لكمتوها/ ودْخل عمّها وتحت برنوسو درقوها/ وخرجوا بها/ مِ الدار تكركر في ساقيها/ لواه ؟ باش خواتها يخلطوا فيسع عليها/

عسّة كبيرة : يا سيدي لدار العريس خلطوها/ آش عطاووها؟ مفيتح عطاووها/ آش حلّت به؟ دقت به 7 ضربات عالباب البيت وحلّوه ودخلوها/ وعلى حصيرة فوق دكيكنة حطّوها/ وبقاو عايلتها يستنّاو/ أبّبْ/ باش يروّحوا بشمعتها/.

- مرواح العريس :

عريسنا عمل حمّامو/ ومع عرّاستو كمّل نظامو/ وجاه حجّامو/ زاد كسّتتملو حوالو/ باش يظهر قدّام ابيّو وعْمومتو وأخوالو/ لبّسوه السروال العربي بالليّة/ والسوريّة/ والجبّة والبدعيّة/ والكنترة والبرنوس والشاشيّة/ وصفـّ منّه/ وصفـّ منّه/وحزبنا يضرب بالرنّة/ ورجال عندهم اعتبار/ من وراه/ تحميه من أصحاب السوء لا تتلاقاه/ أبّبْ يخافوا مِ الرباط اللّي يكثر الدوّه والعياط/ وصارت مشاكل بكري/ وقعْ فيها الكلاط/ وكلّ قهواجي يتعدّى عليه/ يبزّع قهوة بين رجليه/ ويرشقوا عليه/

داروا بيه البلاد/ وشطحت العباد/ حتى خلط الدّارُو/ قدّام ناسو وأحبابو وأجدادو/ حذفوه البيتُو دخل/ وقعدت تستنّى النّاس الكلْ/ وقلب أمّها بالدقداقة/ تقول أشكون ماكنو بفلاقة/ يا سيدي خرجت الشميعة وقلب أمّها ارتاح/ ونا في البارود كمّاح/ وروحوا لِدْويرتهم في جوّ كبير بالطبل والزكار/ وفرحنا الكلّ كيف القريب كيف الجار/.

- **هرقلة والصباح**

تهنّات لمّيمة على زينة البدور/ واستدعات إمّاليها ع الصّباح/ وهزّت جهاز بنتها فوق الرّوس مصرور/ وصلّوه/ لبيت العروسة دخلوه/ وفي الشّمالي علقوه/ تخالل محارم اقُط/ زيّنوه/ دخلوا الحراير شافوه/ عيّروه/ وكيف إطلع النهار شويّة/ أمّها هزّت فيدها هاك القضية/ وشدّت الثنيّة/ وبعثت لبنتها/ المشلوش وهذا الفطور/ من قديم الزمان في هرقلة مشهور/.

أمّا عريسنا في الصباح يمشي لسيدي عكاشة عالبحر مع الجناده/ وكلّ من خطر يأكل عصيدة العادة/ وبعد يمشي لدار نسابو/ يفطر مع جنّادتو وأقرابو/ وفي العشية يلعبوا البلغة في دارو/ ويتعشّى مع جنّادتو وأحبابو وأجوارو/ ويحاولوا باش يسرقوا حاجة من دبش العريس/ وإذا ما رجعت يدفعوا عليها من غير ما تخمّم وتقيس/ وبكري/ كان يعدّي 7 أيّام عالبحر في كهف الروميّة/ كانت الحشمة والجعرة وما يروّح لدارو كان في آخر العشيّة/ يخرج ويطبّ بالدرقة/ تقولش واحد سارق سرقة/.

- **السابع :**

أمّ العروسة تجيب لبنيّتها/ المقروض ويعاودولها حنّتها/ وحرقوسها ونقشتها/ ويحزّموها بشملتها/ ومحرمة حضراء على راسها بَعْصابتها/ ودبش الراس/ ما يتنحّاش لين تموت وهو على شعرها عسّاس/ العصابة والمحرمة والكوفية صباح مع عشيّة/

أوفاء العرس وأوفاء مرقو/ وكلّ عريس يلبس دلقو/ كانو بحّار يرجع للعاصفة وأم خمار/ وكانو نجار يرجع للمطرقة والمسمار/ وكانو فلاّح يقصد ربّي عالصباح/ وكانو موظف وإلا معلم من صباحو يتهمّ/ يا سيدي يرجع لخدمتو الأصلية/ وللّة العين تتماصى في الشاميّة/.

* **الولادة**

عروستنا جاها الوجع/ وبْدا التنكيد من حملتها والهم/ وبدات امّيمتها/ تكركر/ وتجيبلها الماكلة لويدتها/.

الجاي/ طفل فُهدي/ وشويّة بُن كلات/ وتُقعد تستنّى في شهرها والوجعات/ يهزّوها لقبر المقتول/ تفحّج سبعا مرّات على

طول/ وتحنّي وتنقش/ وتنظّف وتبرقش/ القصايص بدات/ ناداو أمّها جات/ عرفتها باش تولد مقابله/ قالت لهم ابعثوا للقابلة/ الموجوعة على كرسيها قعدت/ شمْيلتها شدّت/ والطّرست وجبدت/ آه؟ لازم إنْدوّا الشاهية/ حديث القابلة شوية قرنيط اشويولها/ ووكلوها/ اغسلوا صبع ساق راجلها الكبير/ مالا يسهّل هبوط الصّغير/ إذا راجلها غايب/ خوذوا سوريتو وبلّوها/ وفي مشيرب اعصروها/ وشربوها/ آه ما مشبتوش المُجرى البير/ سبعا مرات بكانون يكركر اصغير/ وهاك القابلة/ يا ربّي انصرها/ يا محمّد يا علي يا عبد القادر سهّل وعرها/ والموجوعة تصيح وتنادي/ يا محمد يا علي يا بغدادي/ بإذن الله جابت ولد/ وفرحت البُو ما كيفها حدّ وكيف العادة زغرطوا النسيّات/ ثلاثا أصوات/ ولكان بنيّة/ وحيدة برك عالخلاص وبالشويّة/ آه يا جدّي لو كان موش ها البنيّة/ منين كنت تجيء من تحت باسم الله وإلا تولدك جنيّة/.

القابلة جبرتها حزمتها/ ولفرشها طلّعتها/ وعصابة كحلة في الرأس وإبرة وودعة/ باش النفس تحيّد وتتعدّى/ وهاك الوليد قمطتْو/ ولفتو وهزتلو الحلق وفي جنب أمّو حطتو/ وكل يوم القابلة تجيء تتفقد وتهزّ كلّ خير/ خبز الطابونة حلاّب زيت قمح شعير/ وكلّ ما لازم الضنى الأوّل على الأمّ/ باش بنتها ما تشوف غيار وهمْ/.

- التسحيم

الأم تنظف وتغسل/ وتلبس تخليلة حمراء وتحفل/ وتتزيّن بحليها وتسوّك وتكحّل/ والقابلة كان نهار السابع تحلق وتكحل/بانو ماء ندفيّوه/ ونحطّوا شويّة كمّون باش يطلع مسرار عند أمّو وبوه/ وزرّيعة الفلفل الشايح باش يكون حار كيف يناديُوه/ وخِلّه فضّه باش يبدا قلبو أبيض وتسمعوه/ وتحرقسولو عويناتو ونقمطوه/ وفوق غربال التشيش نحطّوه/ وتحت راسو حتجة من دبش بوه/ وبمحرمة حمراء نغطّيوه/ ونرقدوه/ ودبيبزة من ماء التسحيم ديمة تحت راسو/ وصرّة بالكمّون والسّينوج والملح وزريعة الفلفل معلقة عند راسو/ أبّب يخافوا عليه ناسو/ ولكان الأم تموت/ العليقة نعلقولوا/ والشعر نطولولوا ونظفرولو/ والأم ديما بخلخال السّقينه/ وتساسي بيه باش ما تشوف غبينه/ وإذا باقي تموّت عنّا برشه خرافات/ كيف تحبل من جديد على بهيم نركّبوها/ وللمهاذبه نهزّوها/ والدقّ عالبيبان وتُطلب للمولود/ اللّي باش يجيء جديد/ شويلقات قمح شعير/ وكيف تولد تْلبّي

وتوكّل منهم الصغير/ وتطلب من ثلاثا اسماعليات/ فرينكات/ وتجي تحت باب البيت وتردمهم/ وبعد ما تولد تجبدهم/.

– **المداواة بالرعواني:**

الحصبة : الزبيب والقرفة نشربوه/ وحوت الشلبة نبخروه/ وأم البُوية نوكّلوه/ وفي الأحمر نلفوه/.
البوناغوت : مرا معطيه ليها تشلّطو باش يمنع م الموت/.
الكرف : القطران نشمّوه/ وفي مغازاتو نحطّوه/.
السّيبانة : بالعظمة والشوليقة/ وفي الكانون اتكتك في دقيقة/.
الشهاقة : خشمو نسدّولوا/ وعلى قباعة راسو ننفخولوا/.
القعاد : حمص وزبيب/ وما يعطي الكل حبيب/ والصغار تلقط/ والنساء تزغرط/.
الخاتمة : عصيدة في سيدي سعيد/ وهذا شيء موش جديد/.

* **الطهور**

في طهور الصغار/ أربعا أيام والطبل ما يفارقش الدّار/ وذبيحة في سعيد بومنديل في النهار/ وفرس مزيّن ودورة في البلاد/ والطبل من قدّام والفرس في الوُسط وحزب العيساوية من تالي نشاد/ راكب وراه وحيد/ وكلّ دار يتعدّى عليها يرشقوا على الوليّد/ وهذا يبقى دين/ على الوالدين/ سنين مع سنين/ خلطنا لسيدي سعيد جاء الطهّار/ خدم خدمتو/ تكسّرت الحلبيّة/ لقطوا الصّغار/ ونا في الكسكسي والعمار/ وللدّار روحوا بيه/ وإرماو الفلوس عليه/ وساعة البركة هذا ما فيه/.

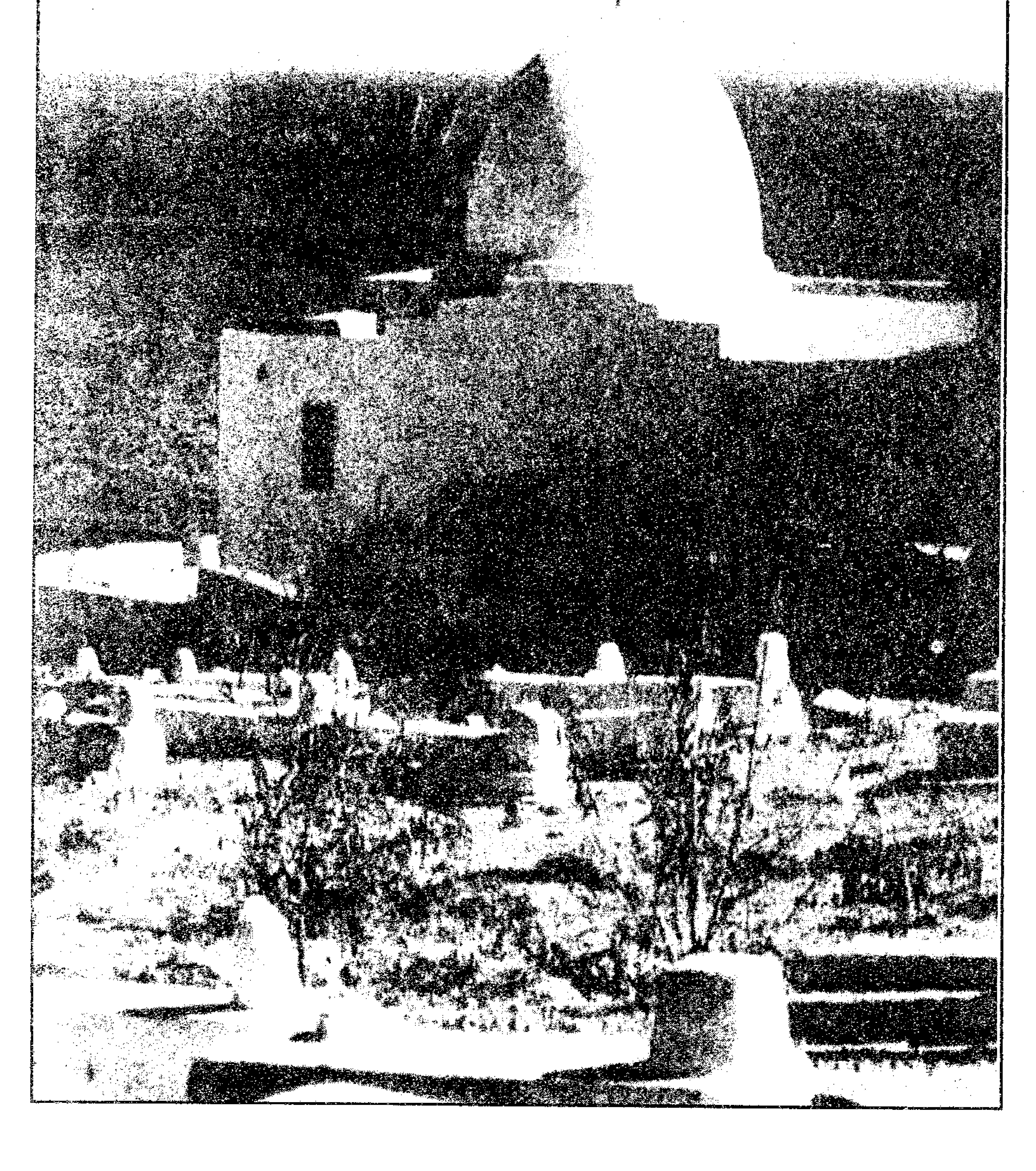
* **الحج :**

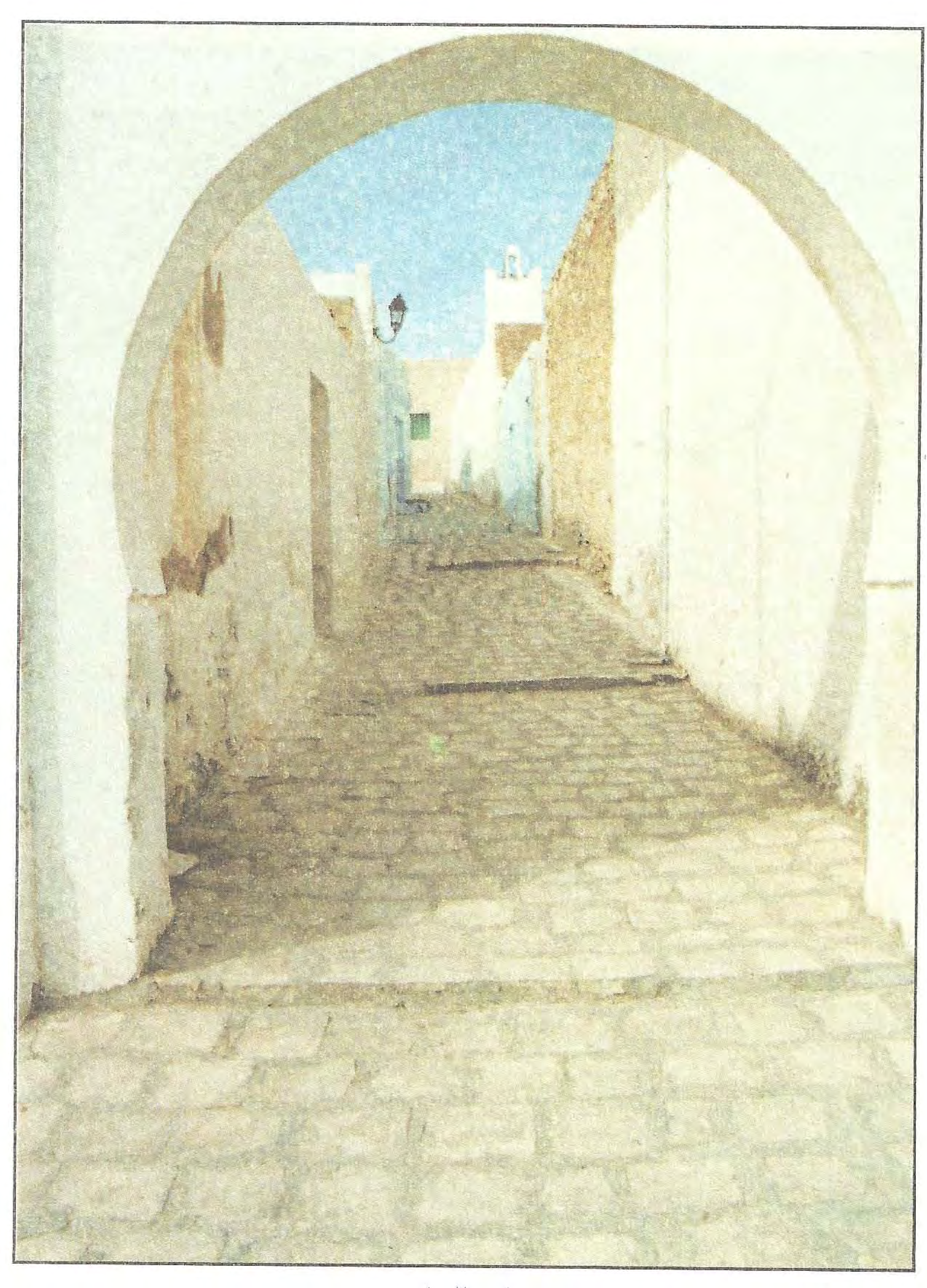
ليلة الخروج/ ذكر وتشويق/ بمدح الرسول يليق/ وتجيه الناس طول/ باش يبلّغوا سلامهم للرسول (الصلاة والسلام)/ في الصباح لسيدي سعيد بومنديل يقيموه/ يقرأ فاتحة وبالذكر يهبّطوه/ حتّى يركب ويودّعوه/ زار خير البريّه/ والحجّة وفات/ وكيف رجع ذبيحة ومتفرّجات/ وثلاثا أيّام ما يخرجش / وم الشيء اللّي جابو ما يفرّقش/ وبكري قبل ما يمشي يطلّق المريّة/ وفي دارو تحجب باش تقسم معاه الحجّة هذيّه/ وكيف يرجع يردّها بقصعة حلاليّة.

حسين بالحاج يوسف
(المعهد العالي للموسيقى بسوسة)

ومضات من جمال هرقلة الأزلي

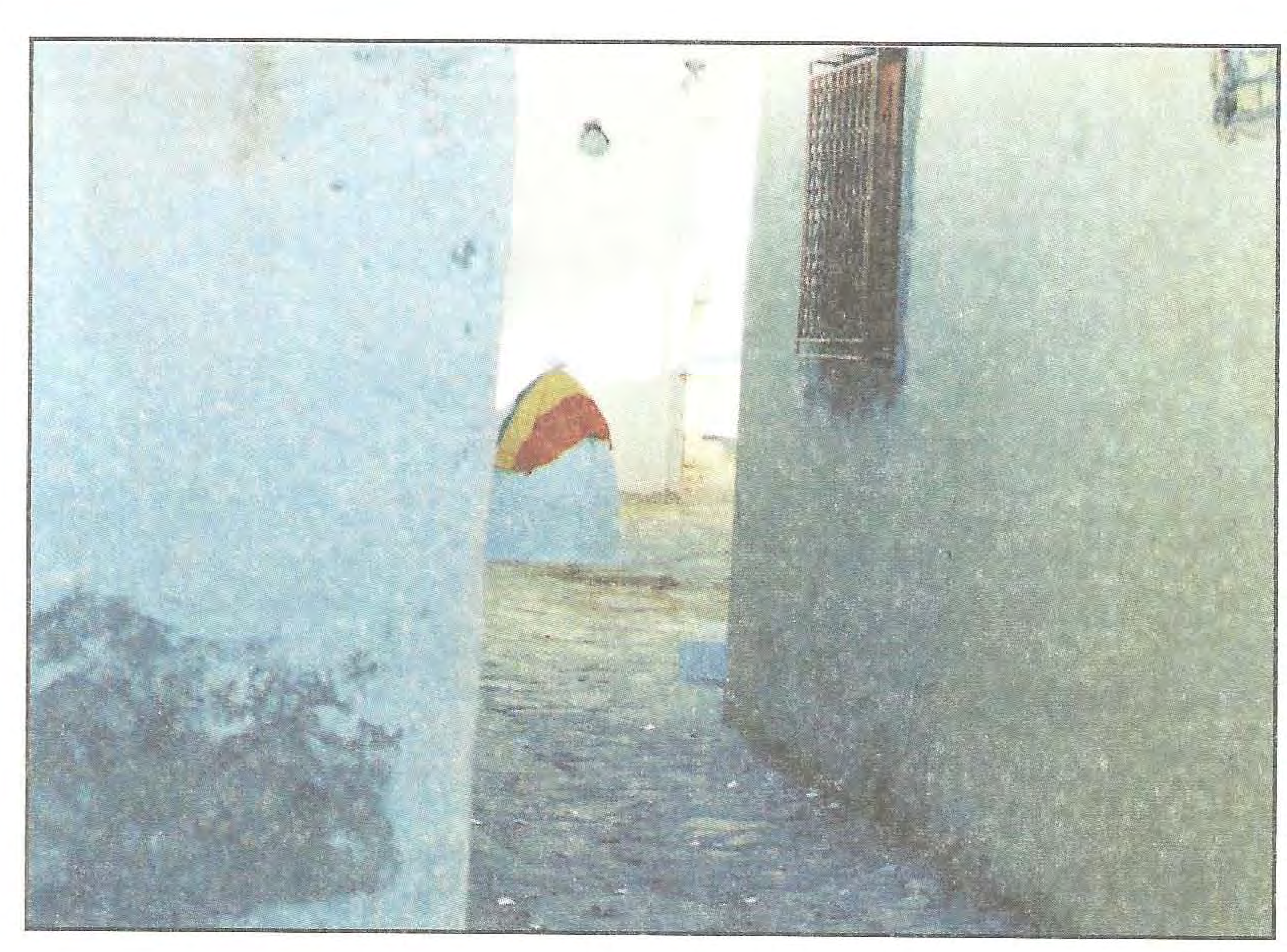
٢



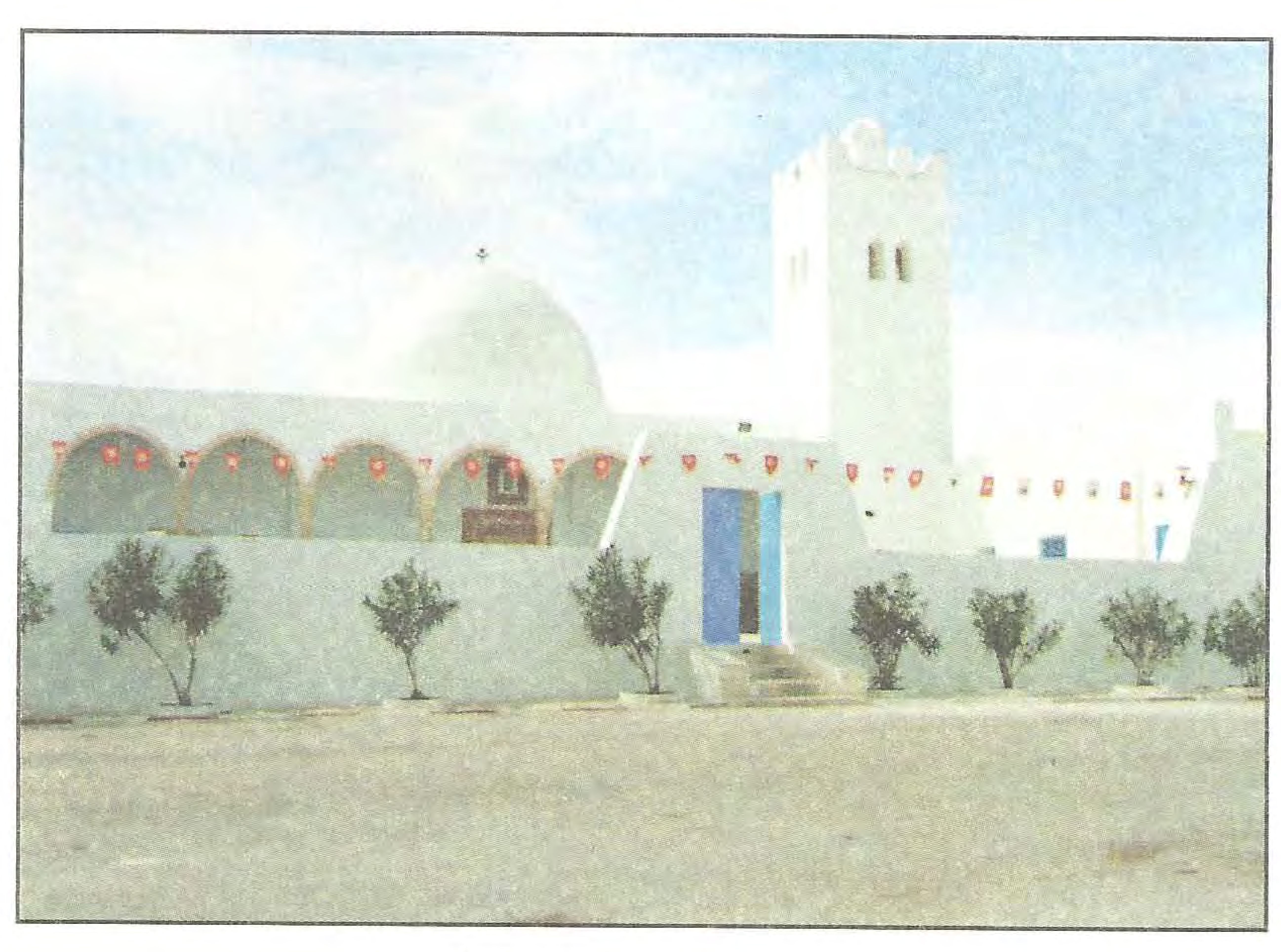


شارع الجامع

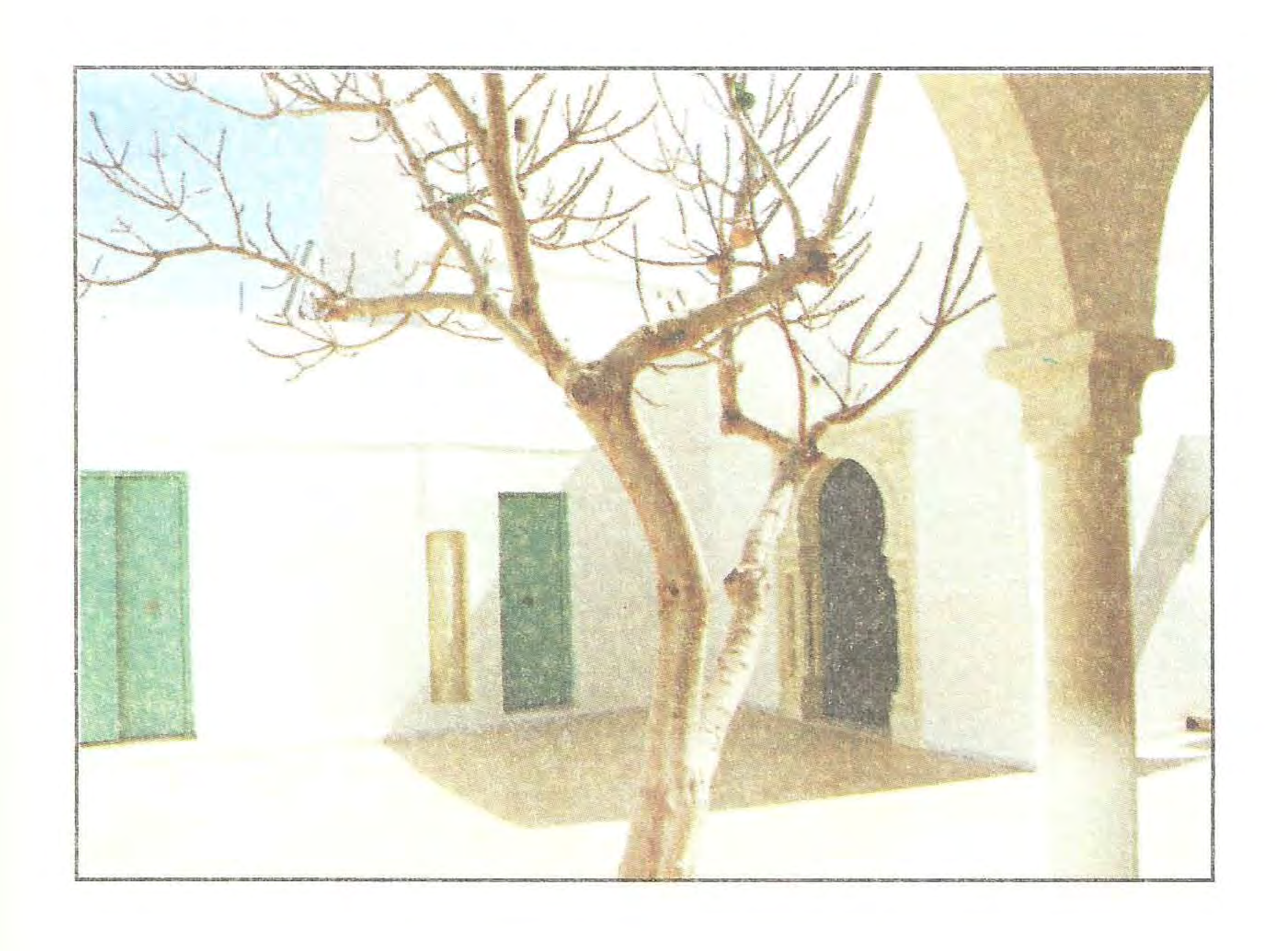


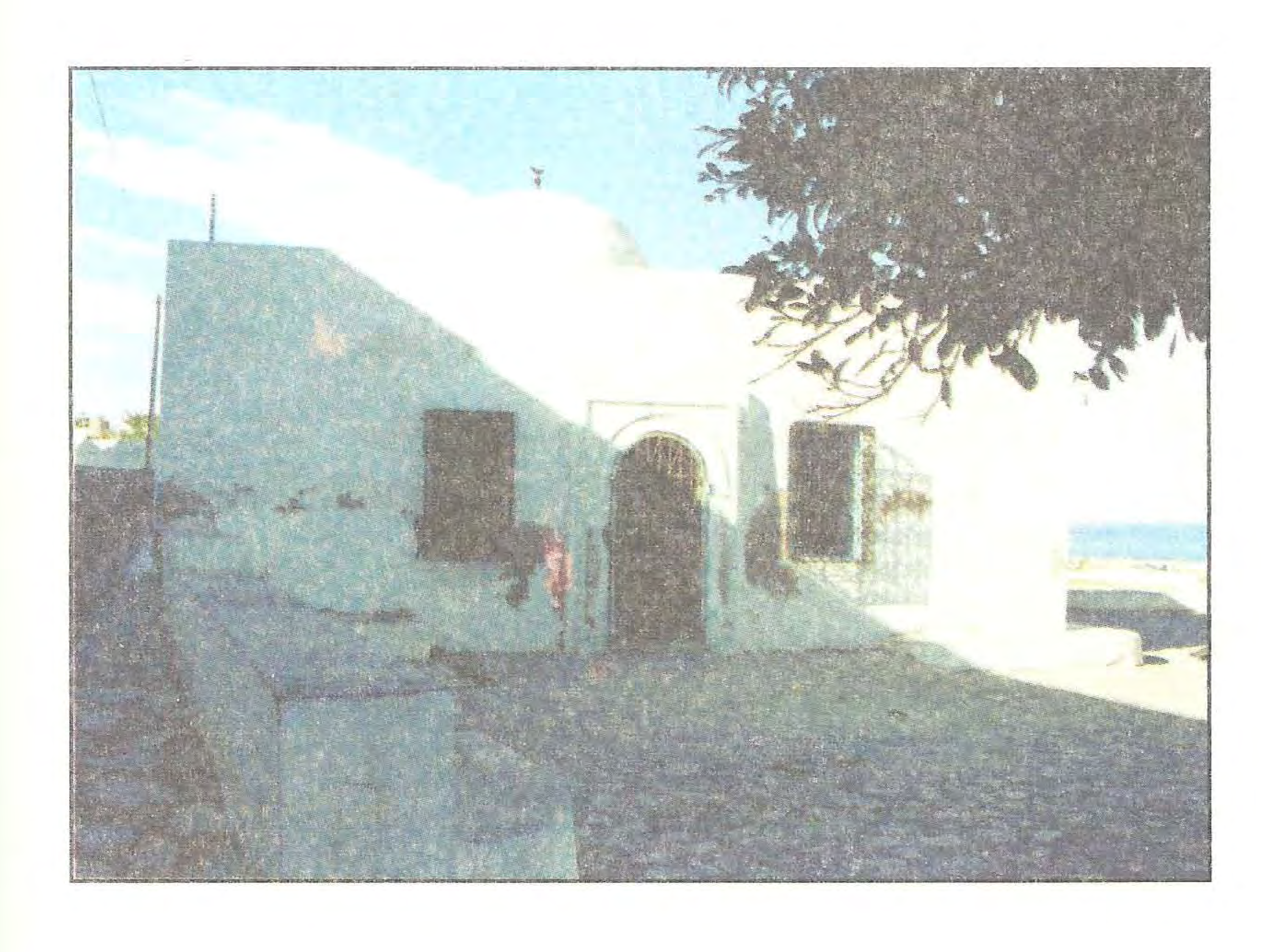


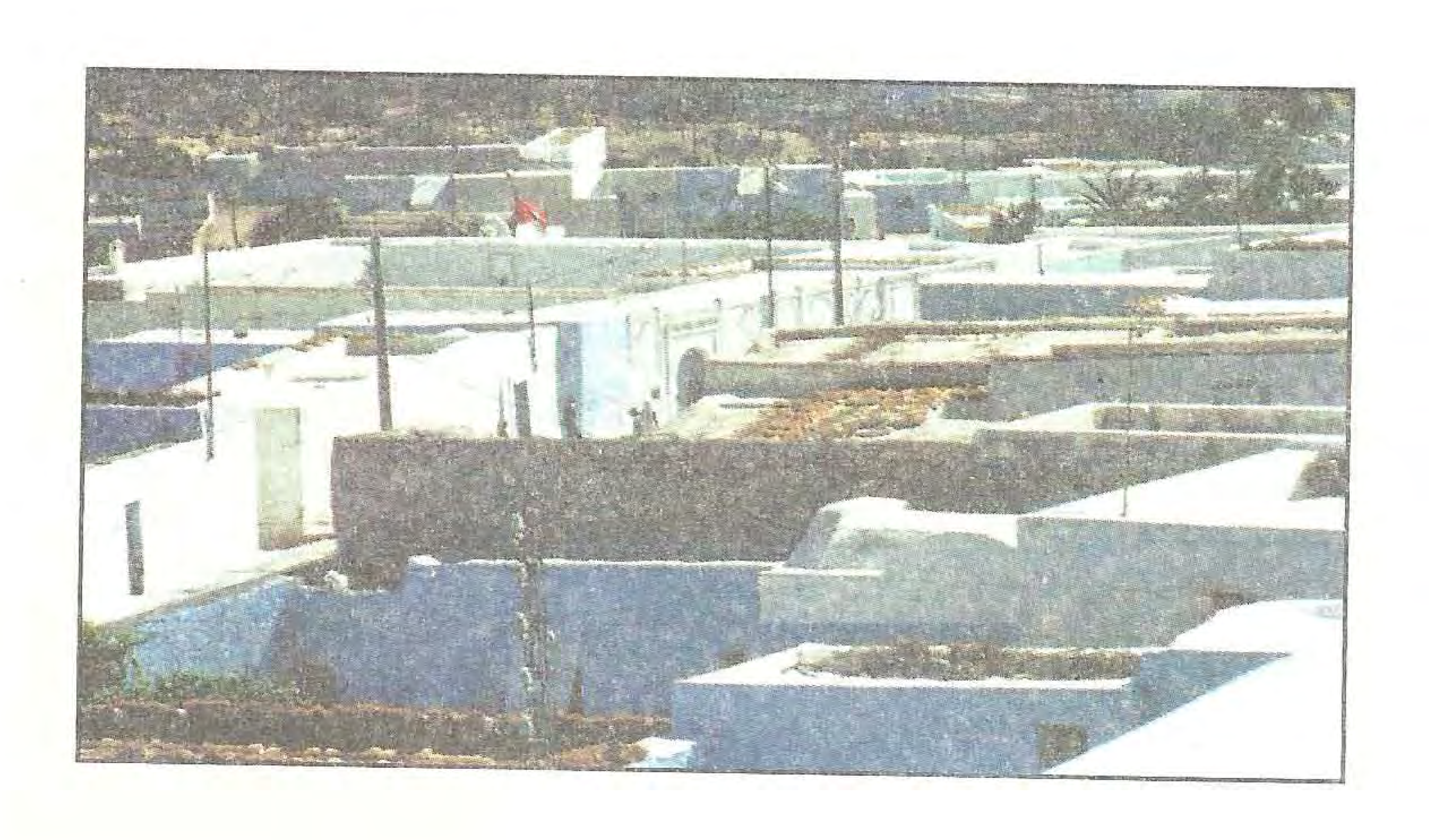
سيدي النجار



جامع سيدي سعيد بومنديل





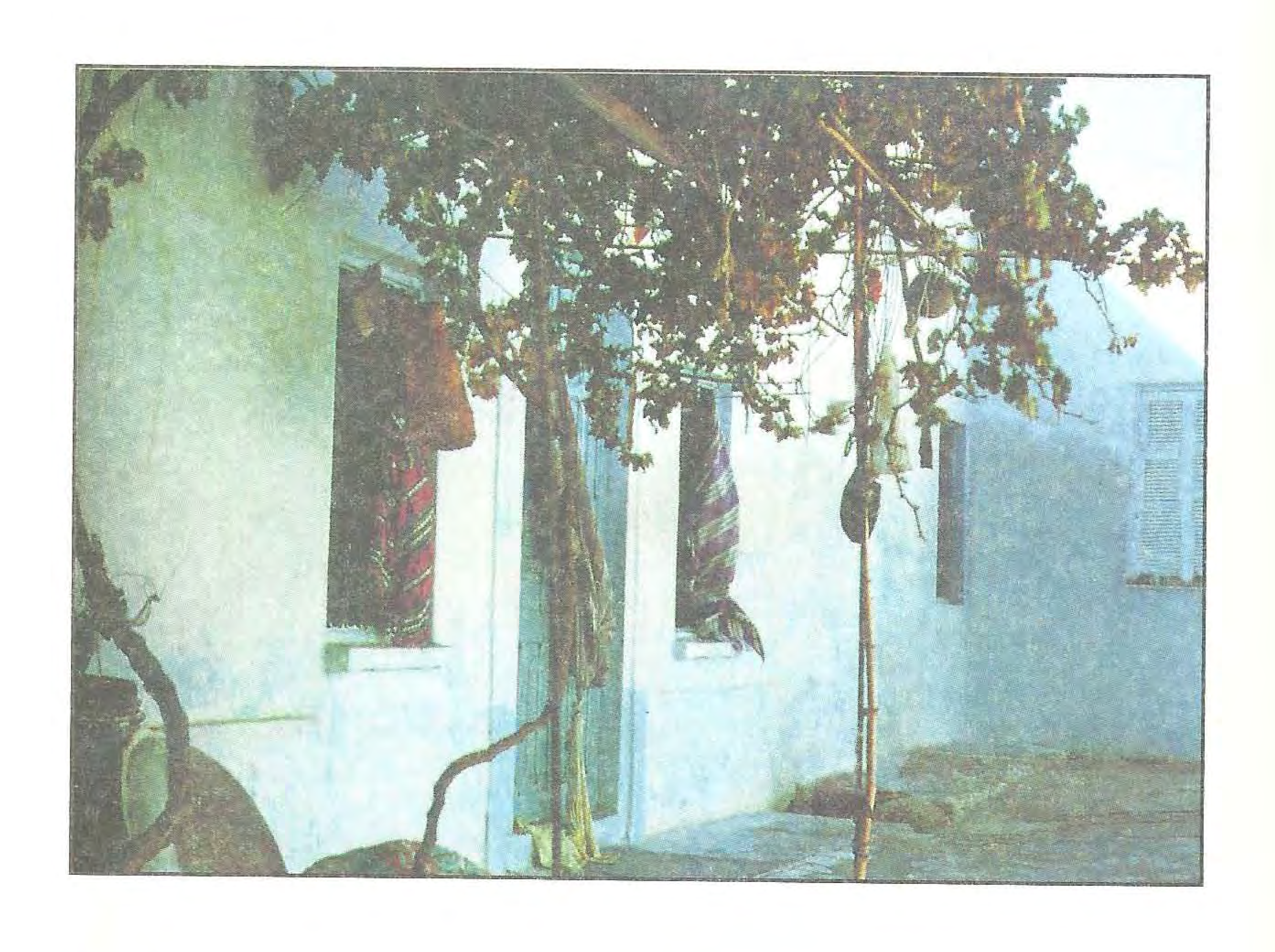


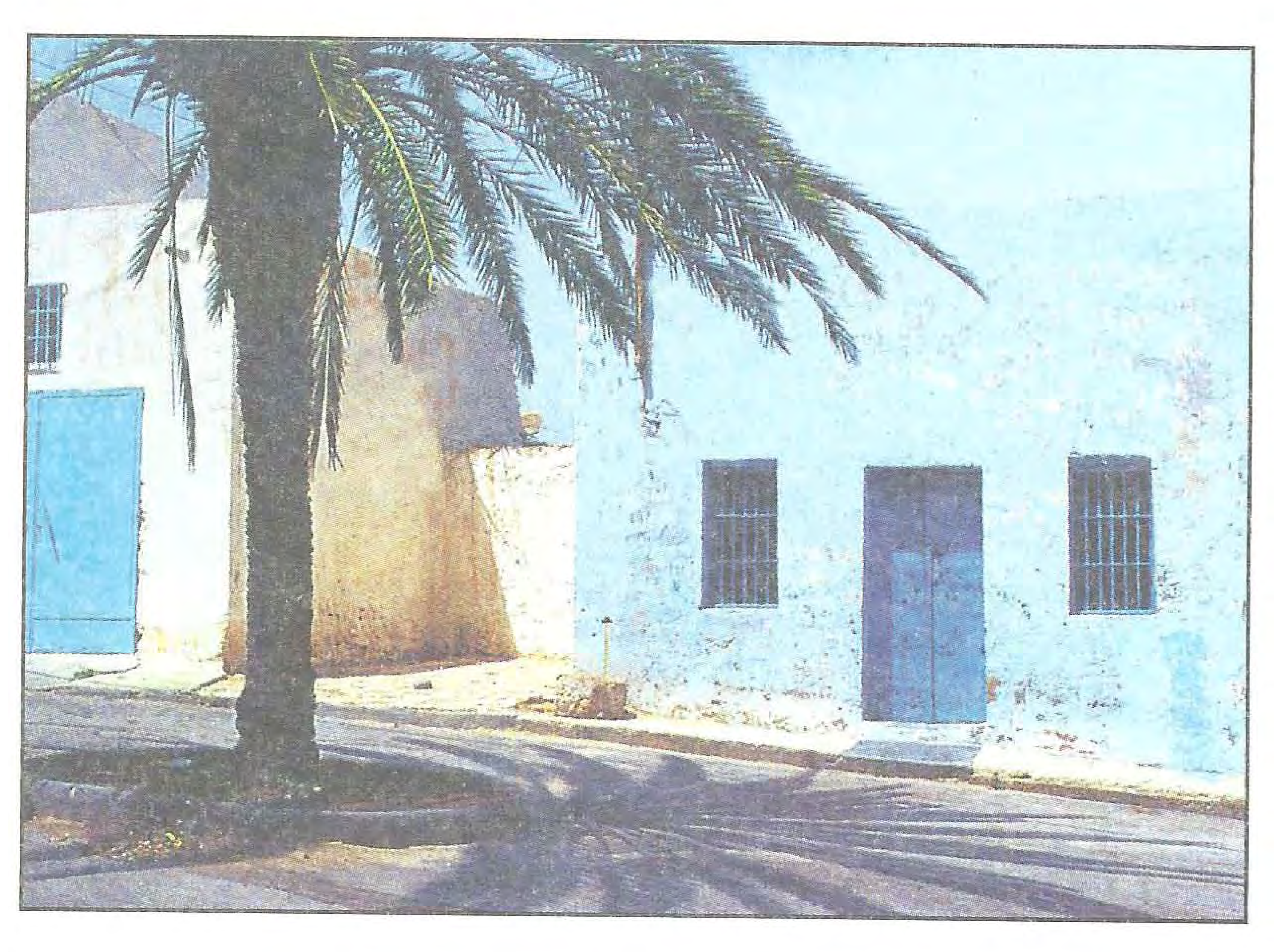


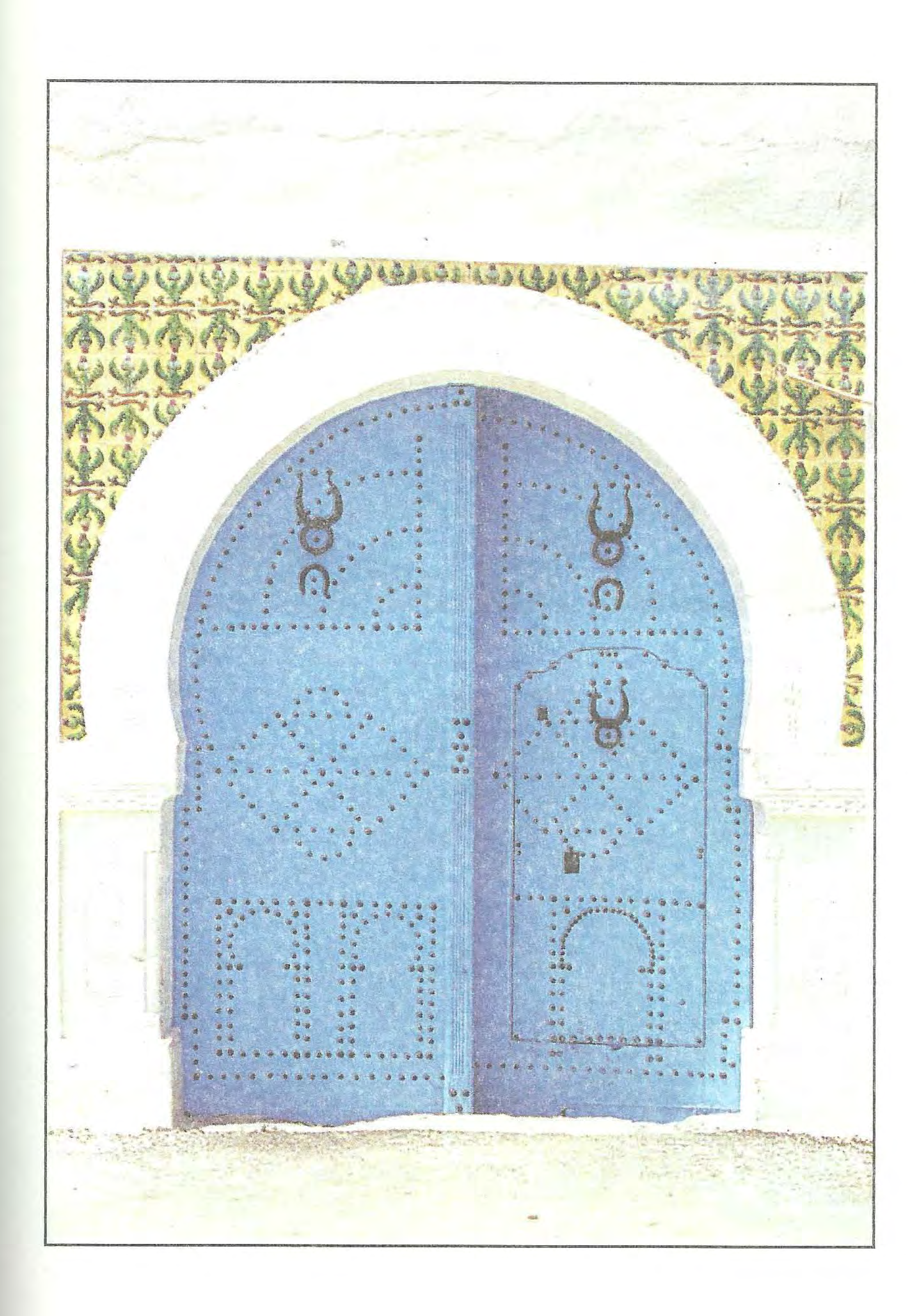
هرقلة منظر عام

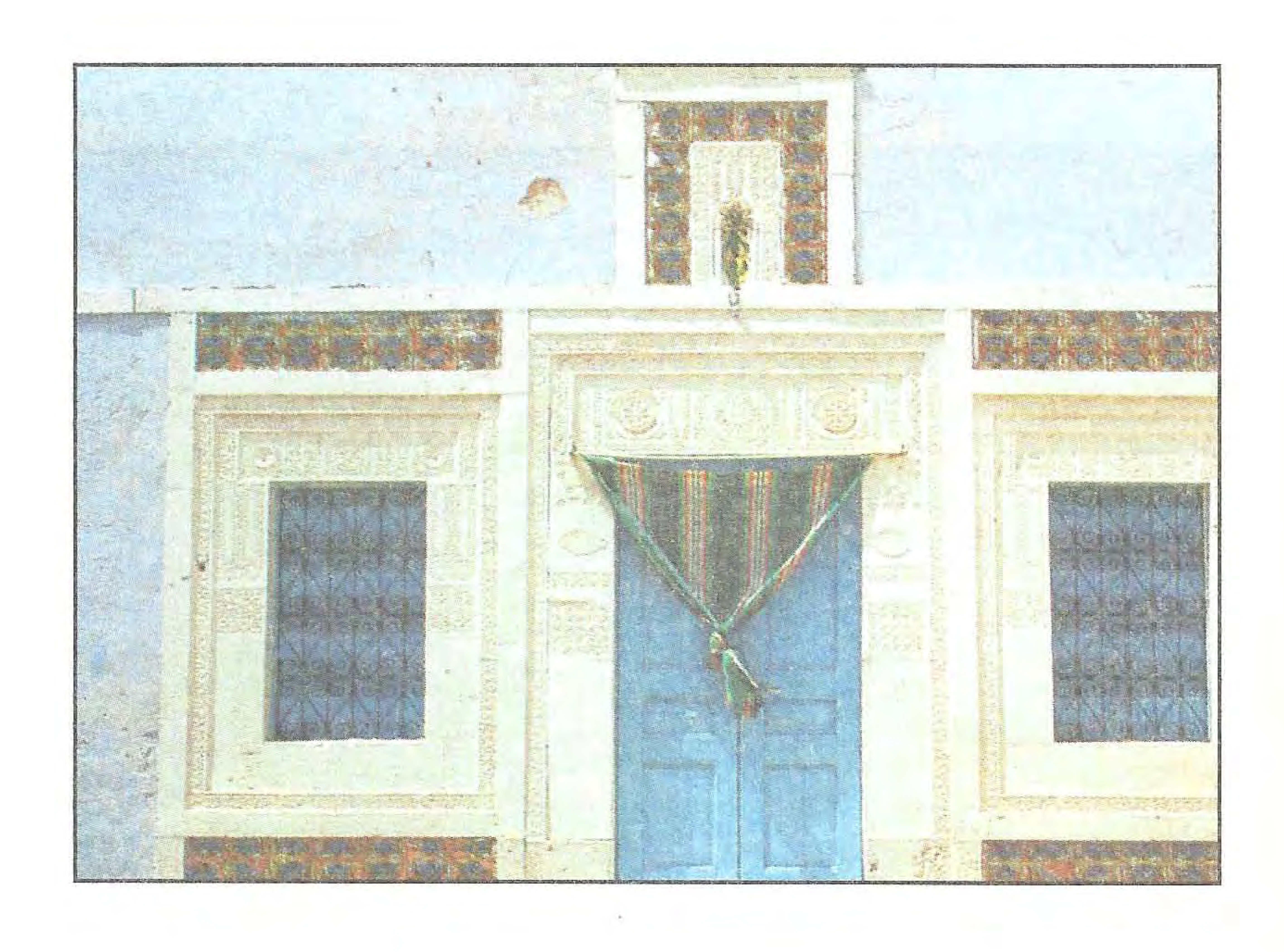


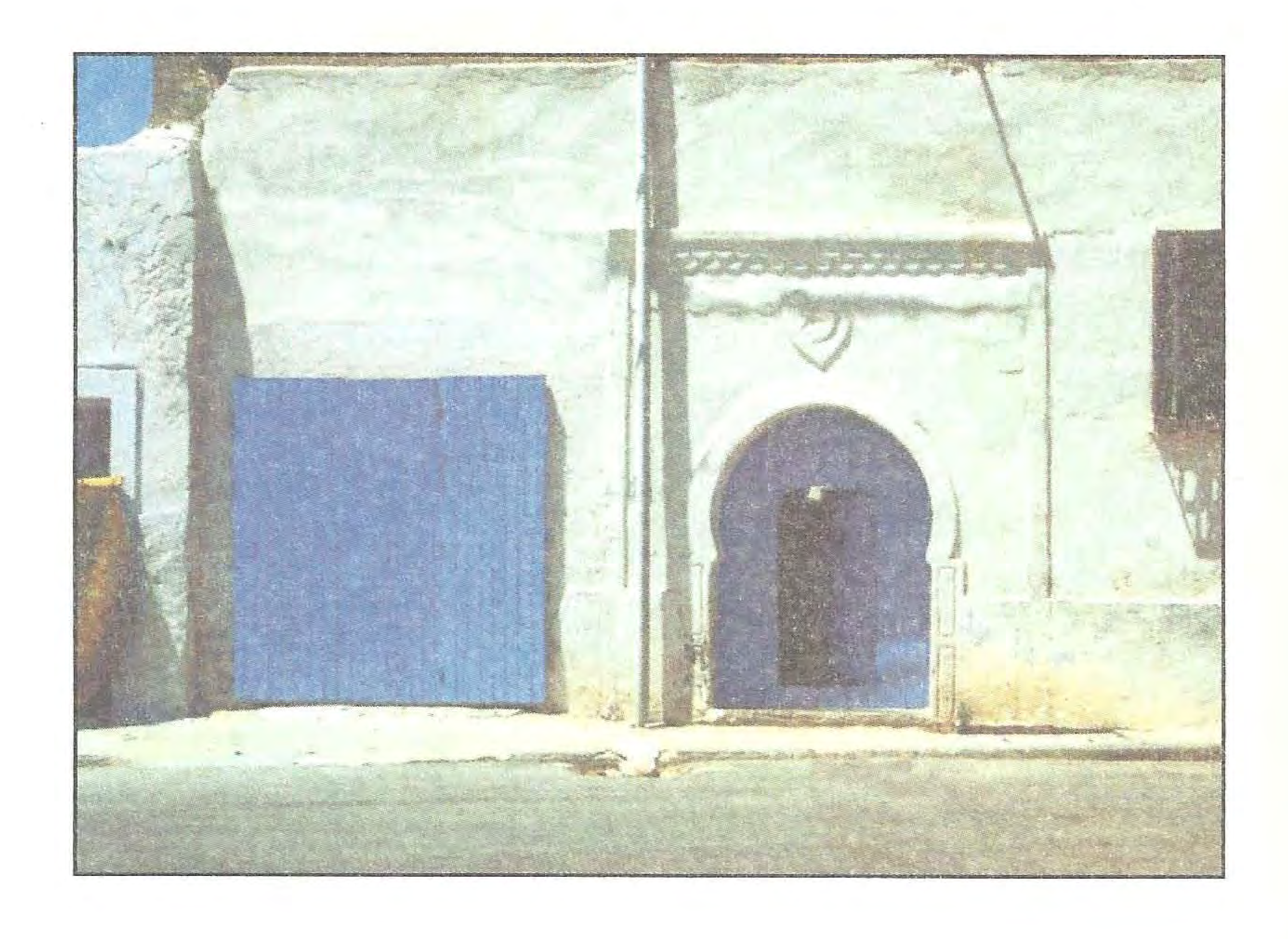
العين والمدفون يظهر من أعلى جبال النفيضة

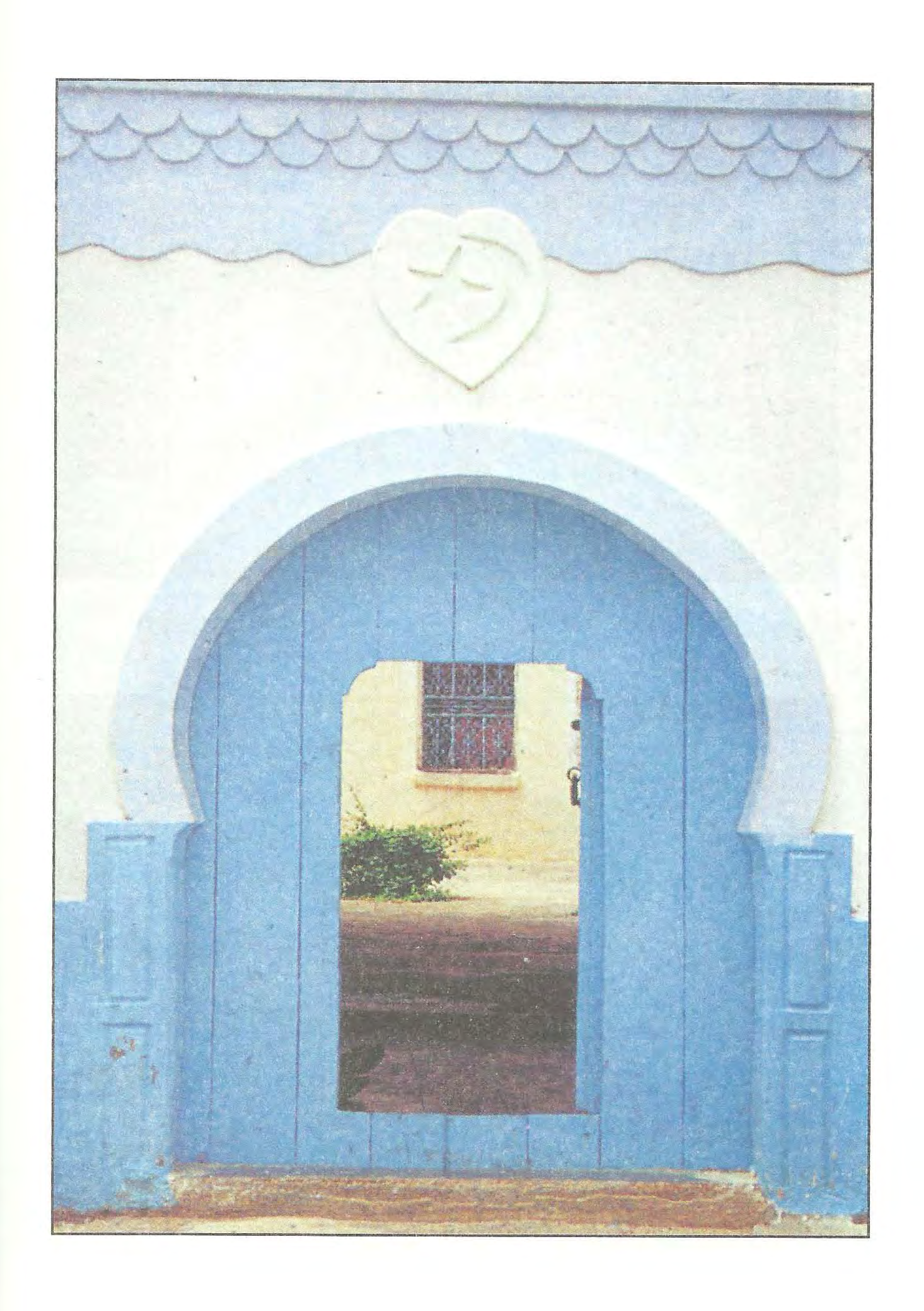


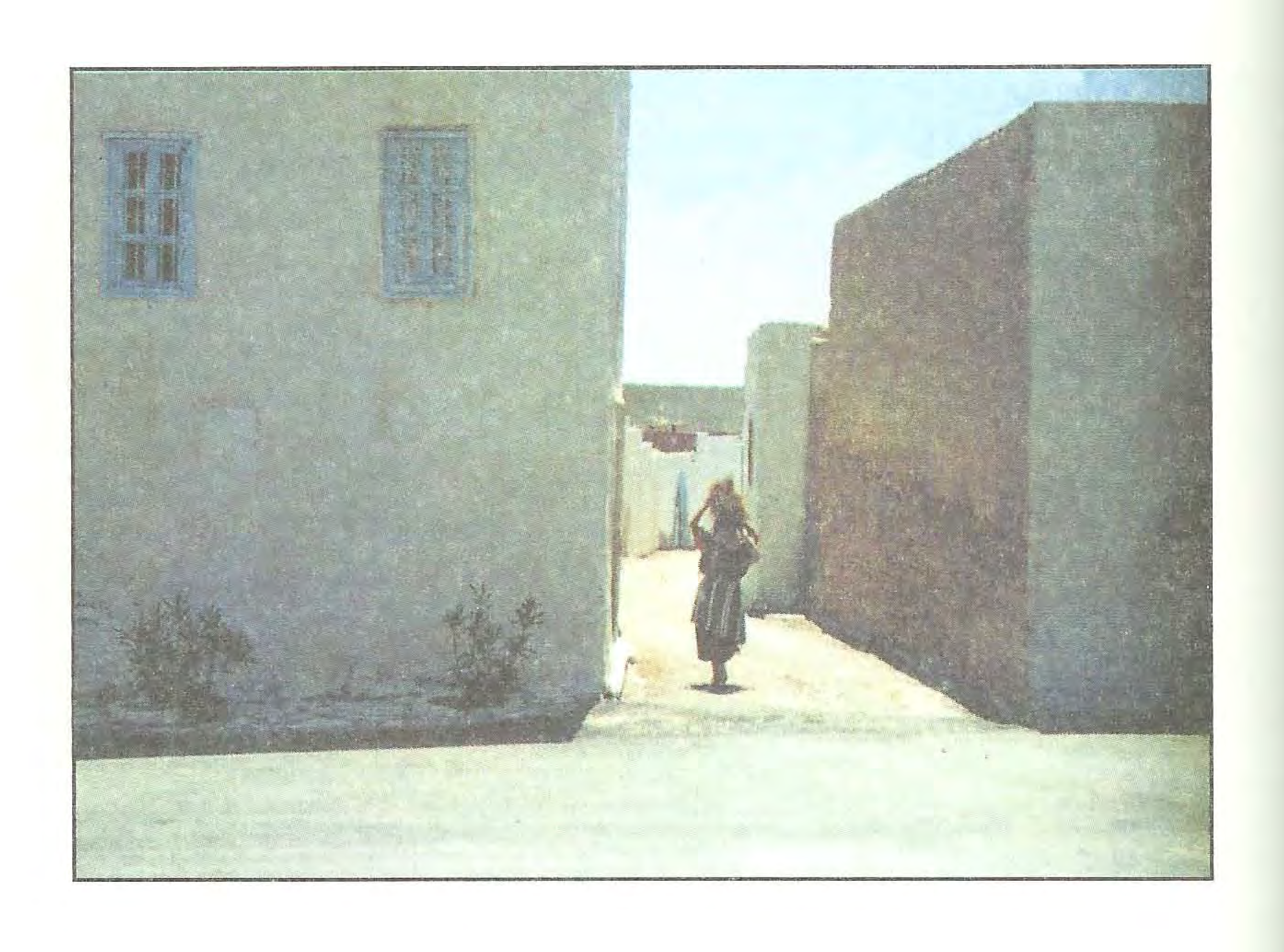




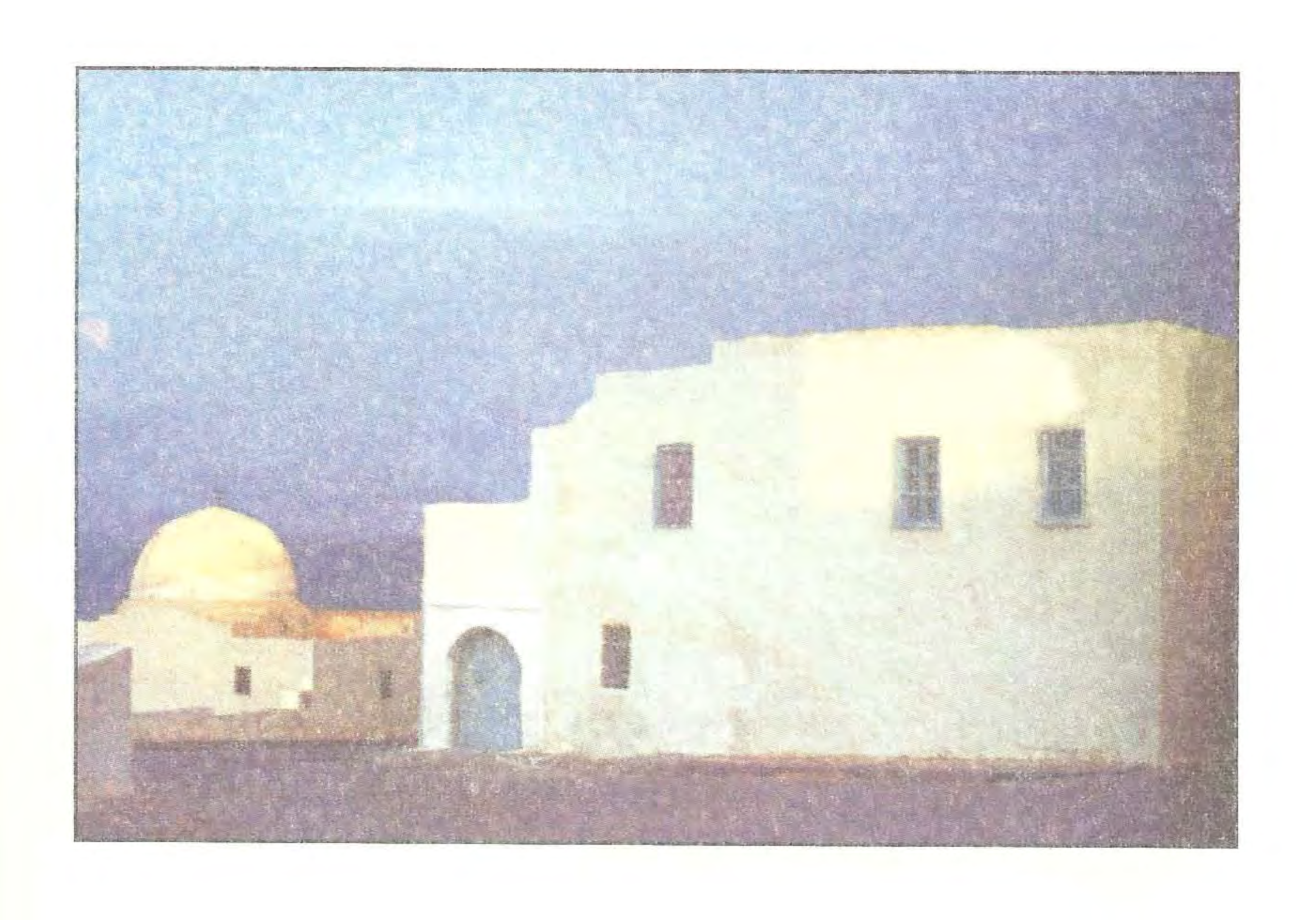








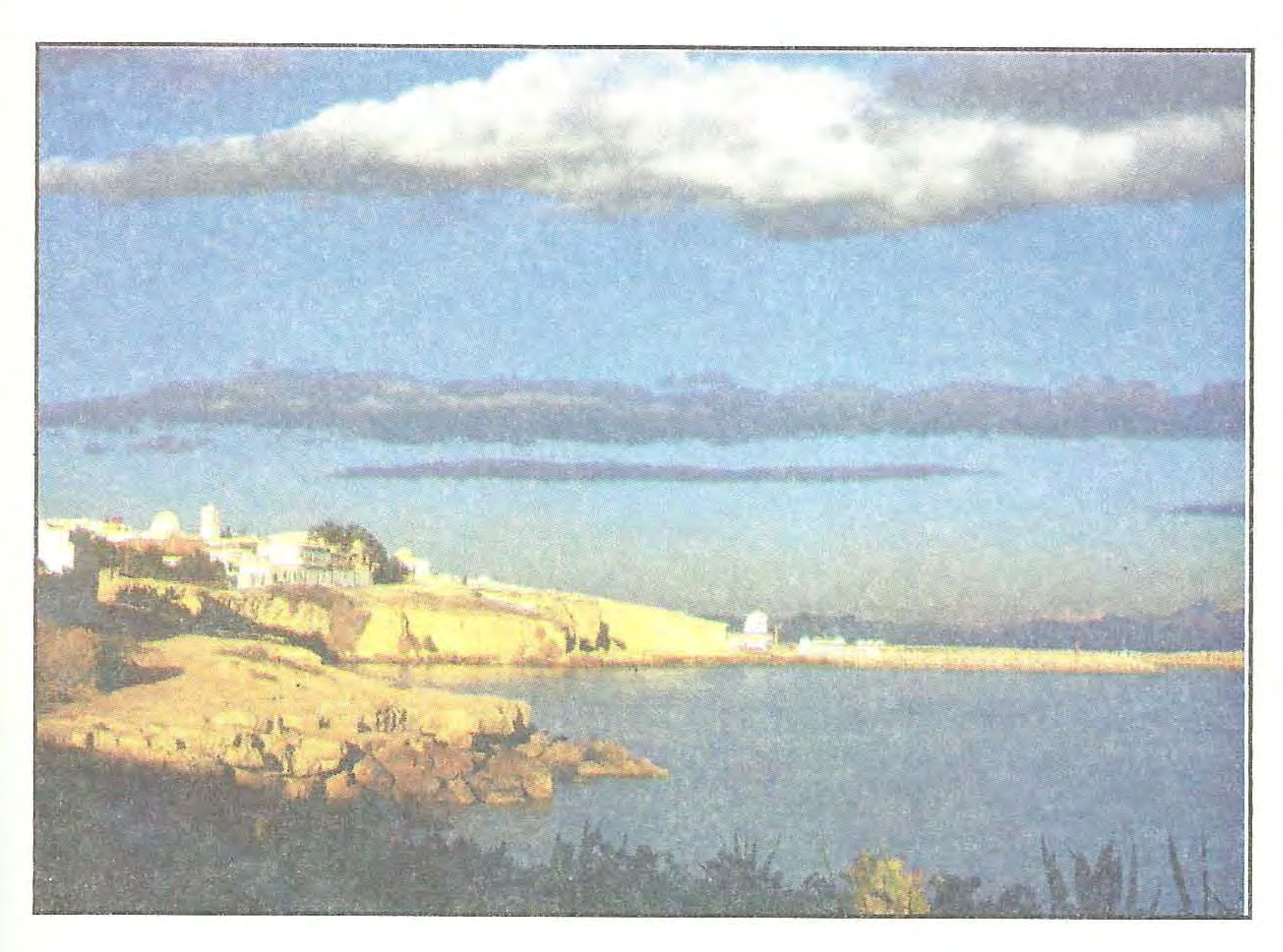


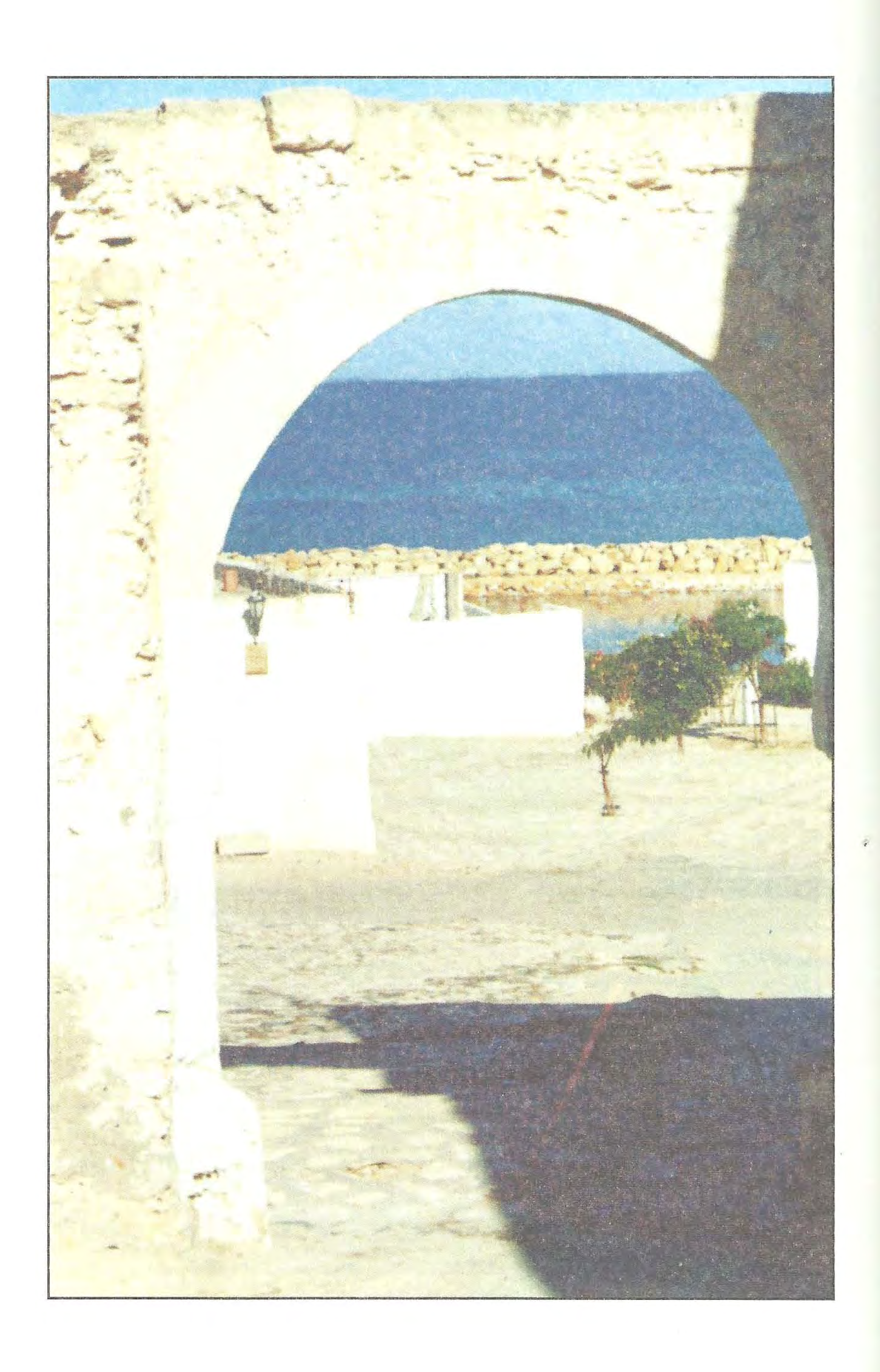


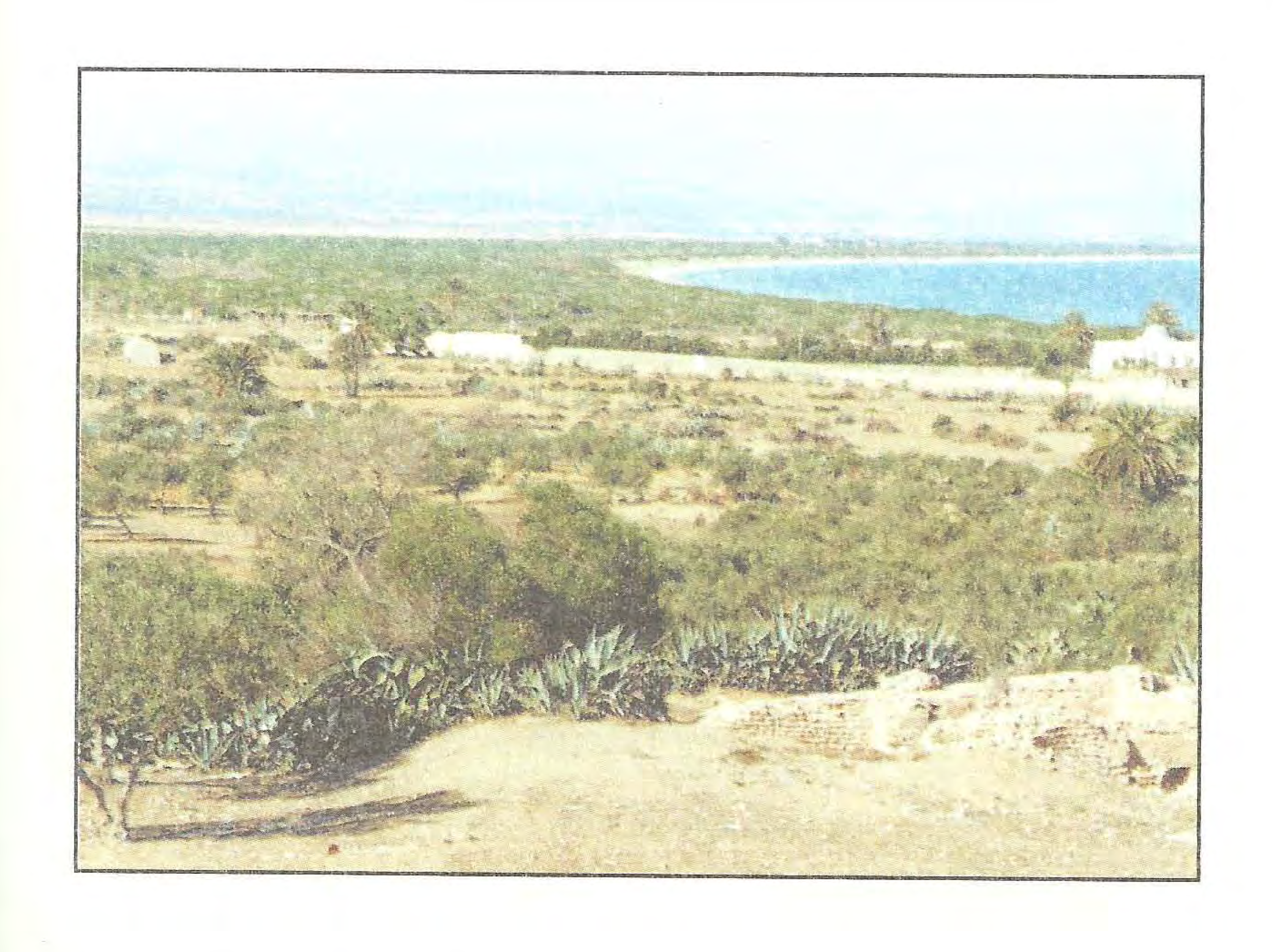


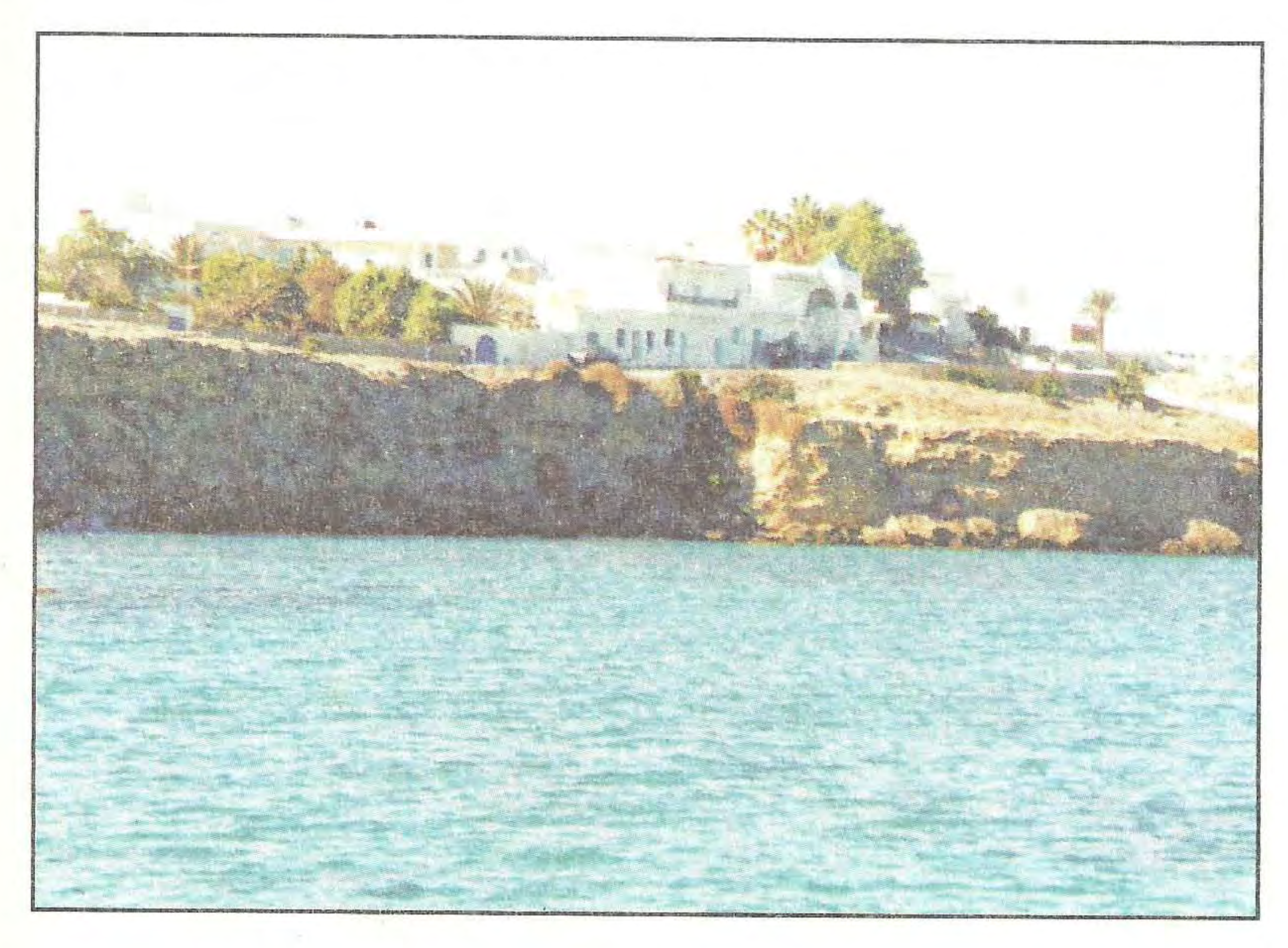
مرأة هرقلية صنع الشامية بالحلفاء

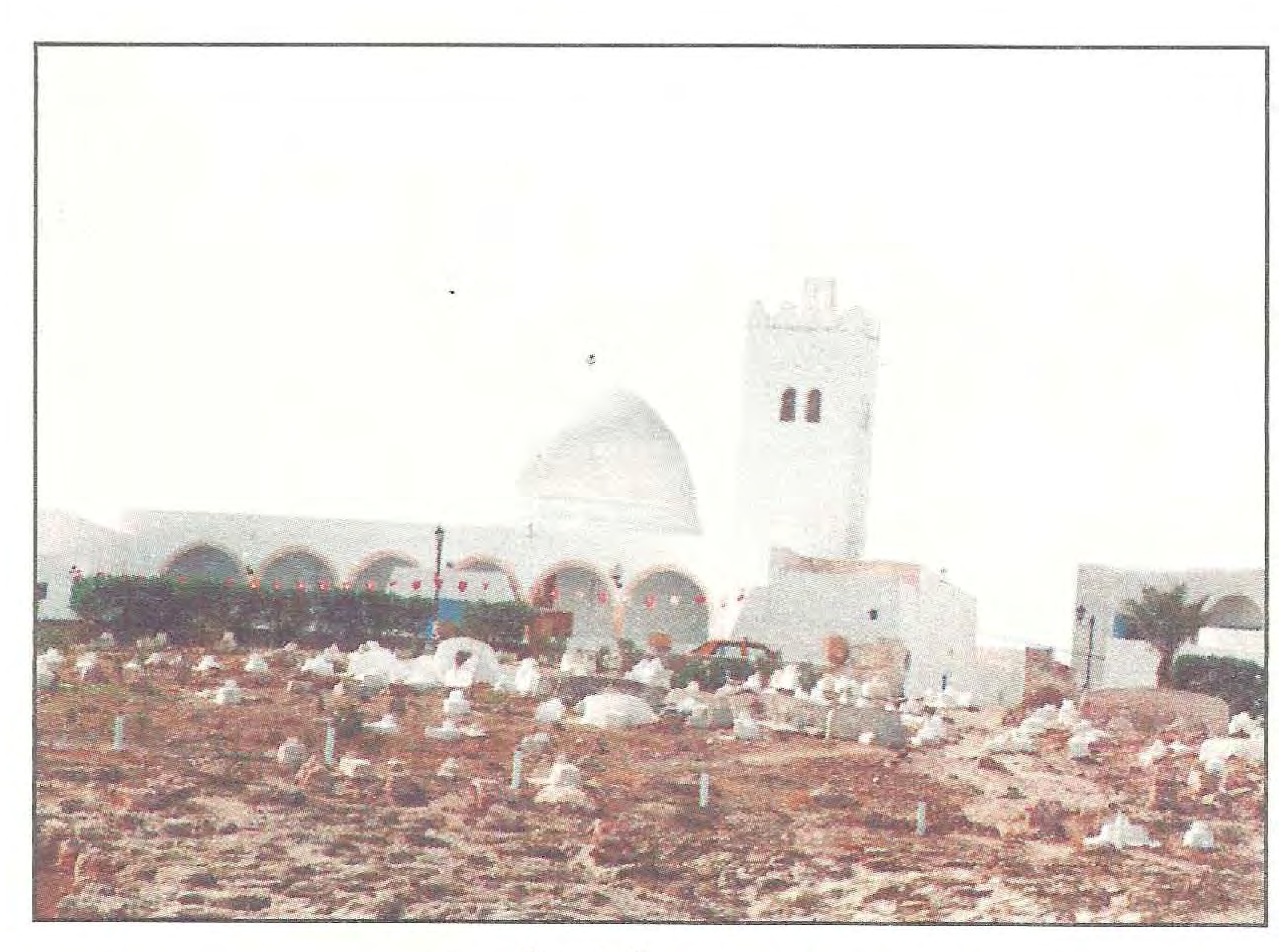




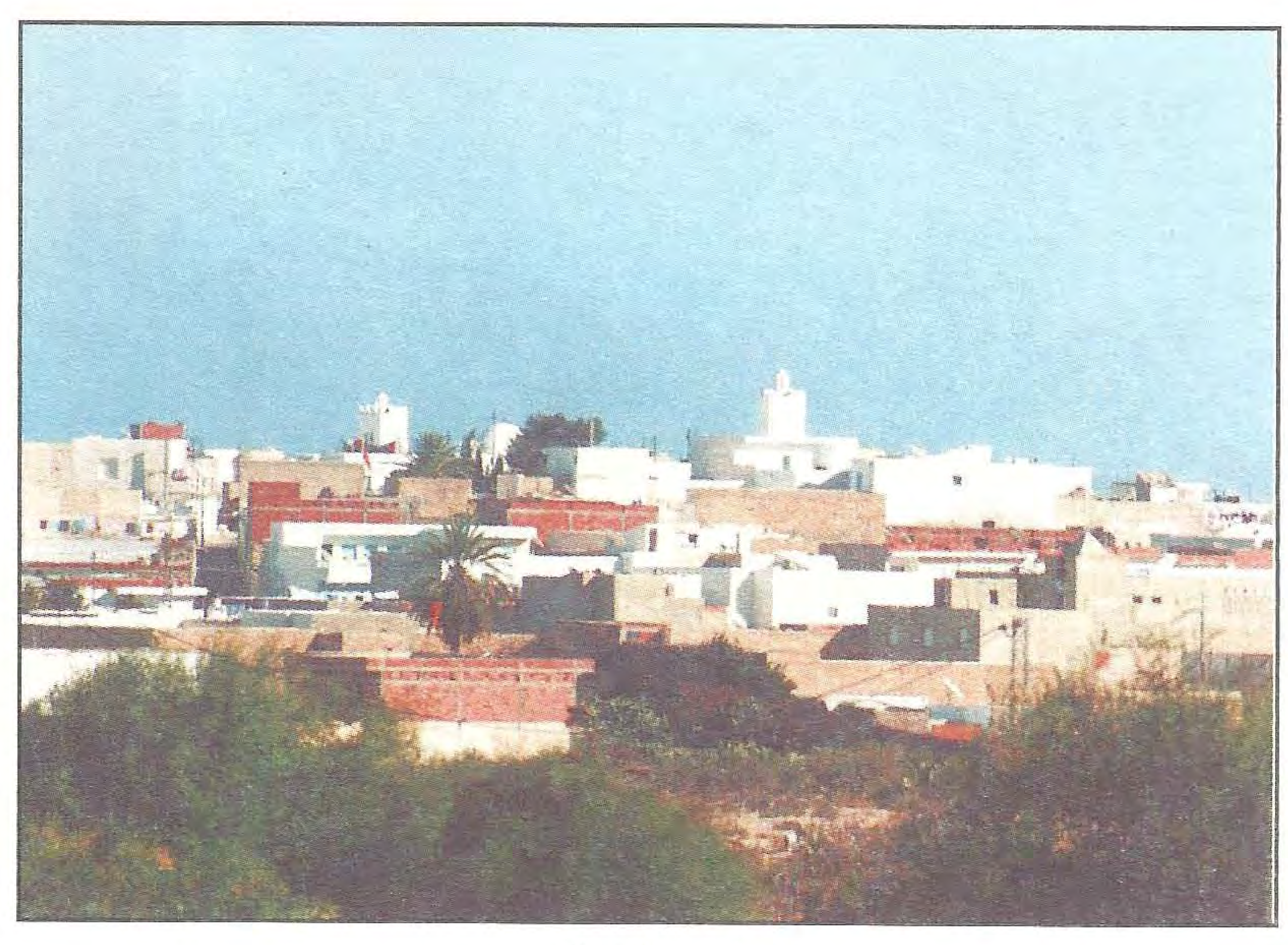








سيدي سعيد والمقبرة البحرية



مدينة هرقلة منظر عام



مشهد من جمال الطبيعة



الجامع الحفصي بهرقلة

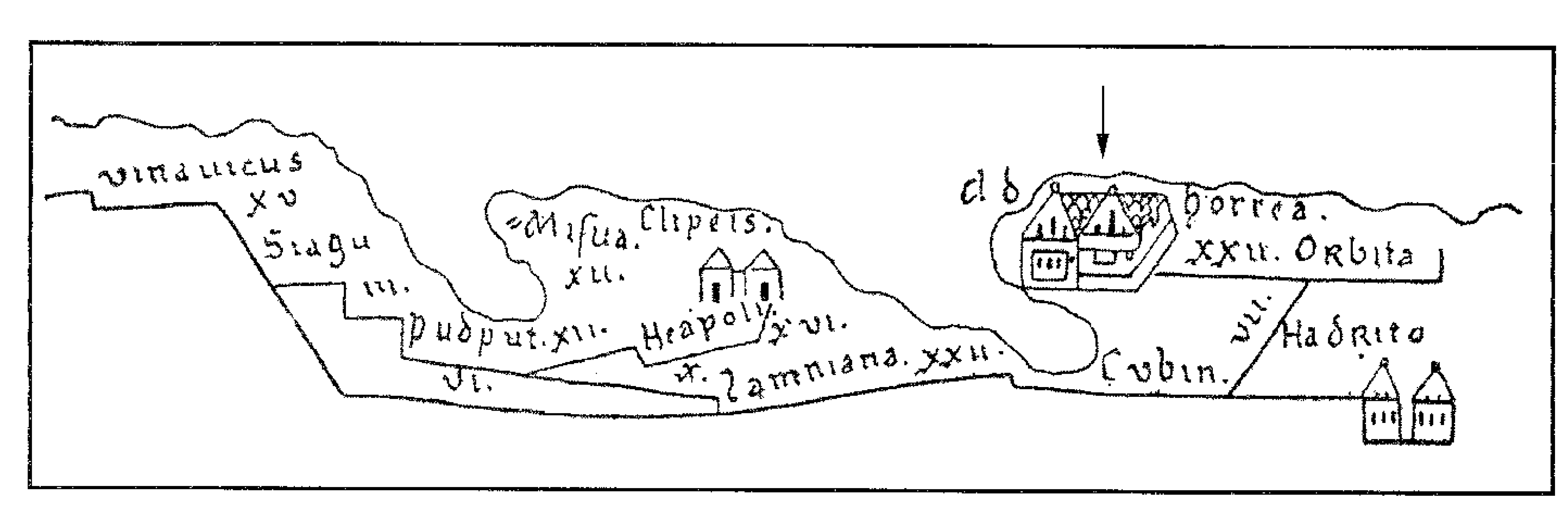


Fig. 15. Table de Peutingre : détail

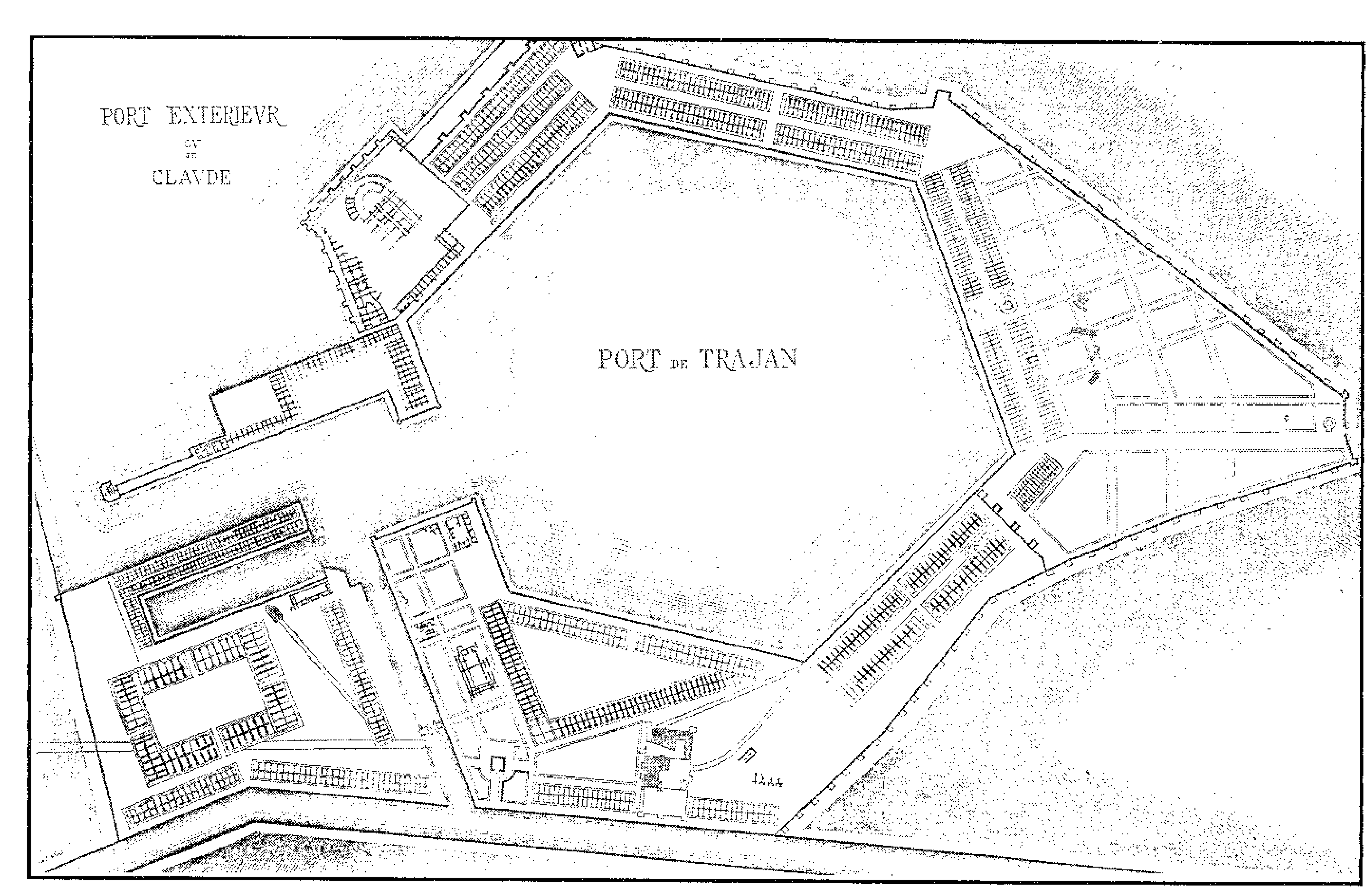


Fig. 16. Greniers du *Portus Romanus*



Fig. 13. *Frigidarium* des thermes de *themetra*
(Installation portuaire)

Fig. 14. Mosaïque du *frigidarium* de *themetra*

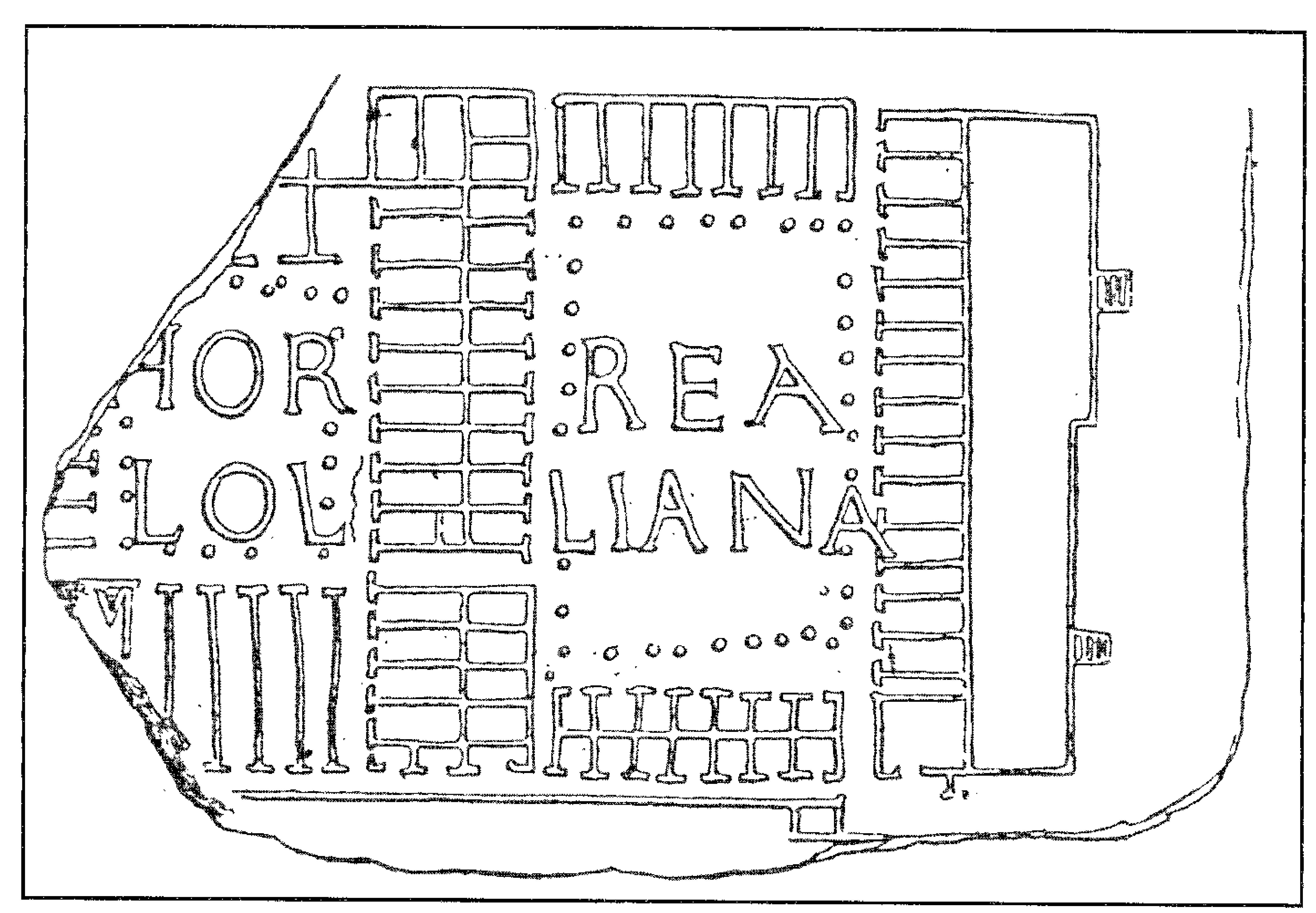


Fig. 11. Fragment de marbre, *Horrea publics à Rome*

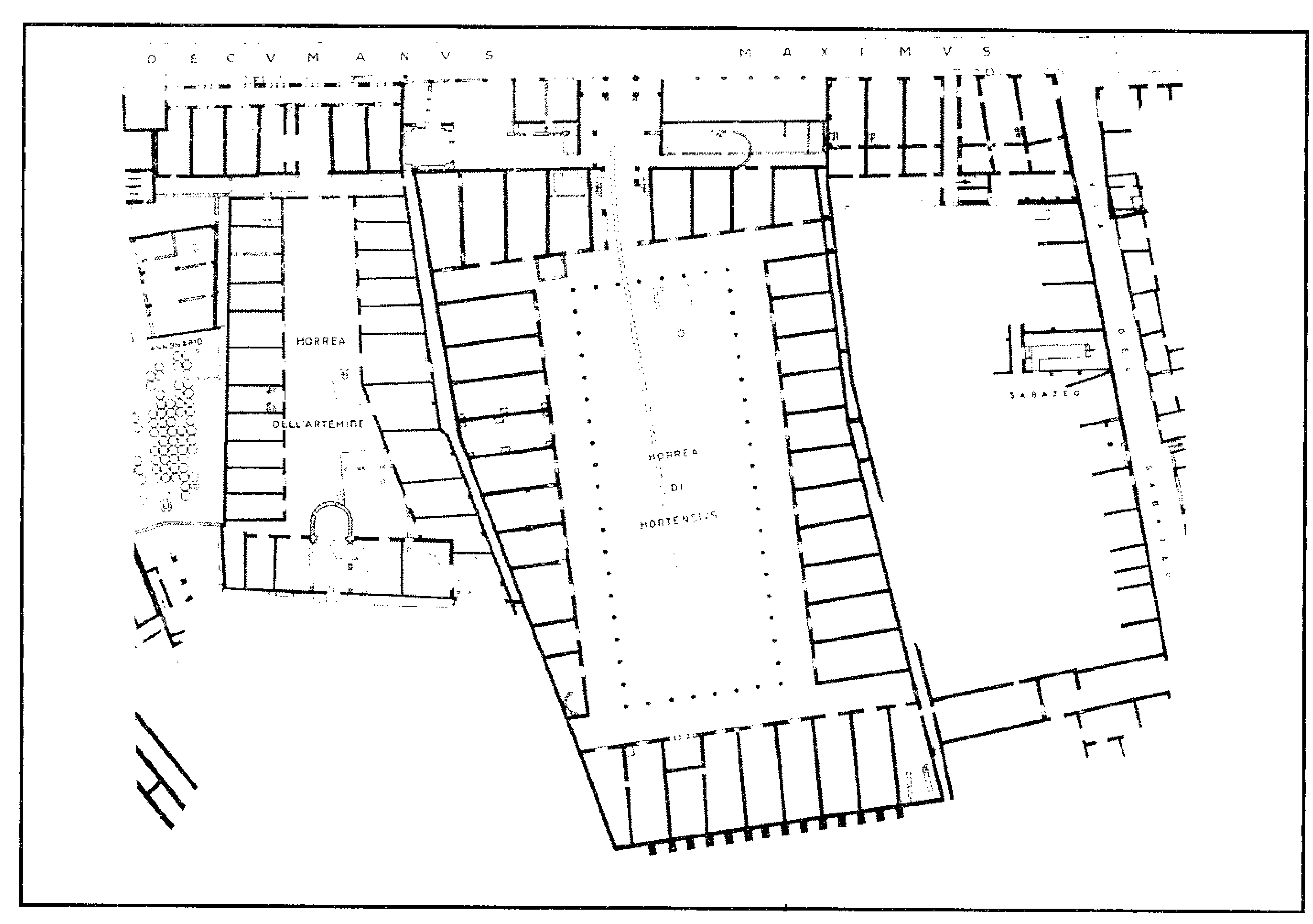


Fig. 12. *Horrea publics à Ostia*

Fig. 9. *Horrea publics, d'aprés une peinture antique*

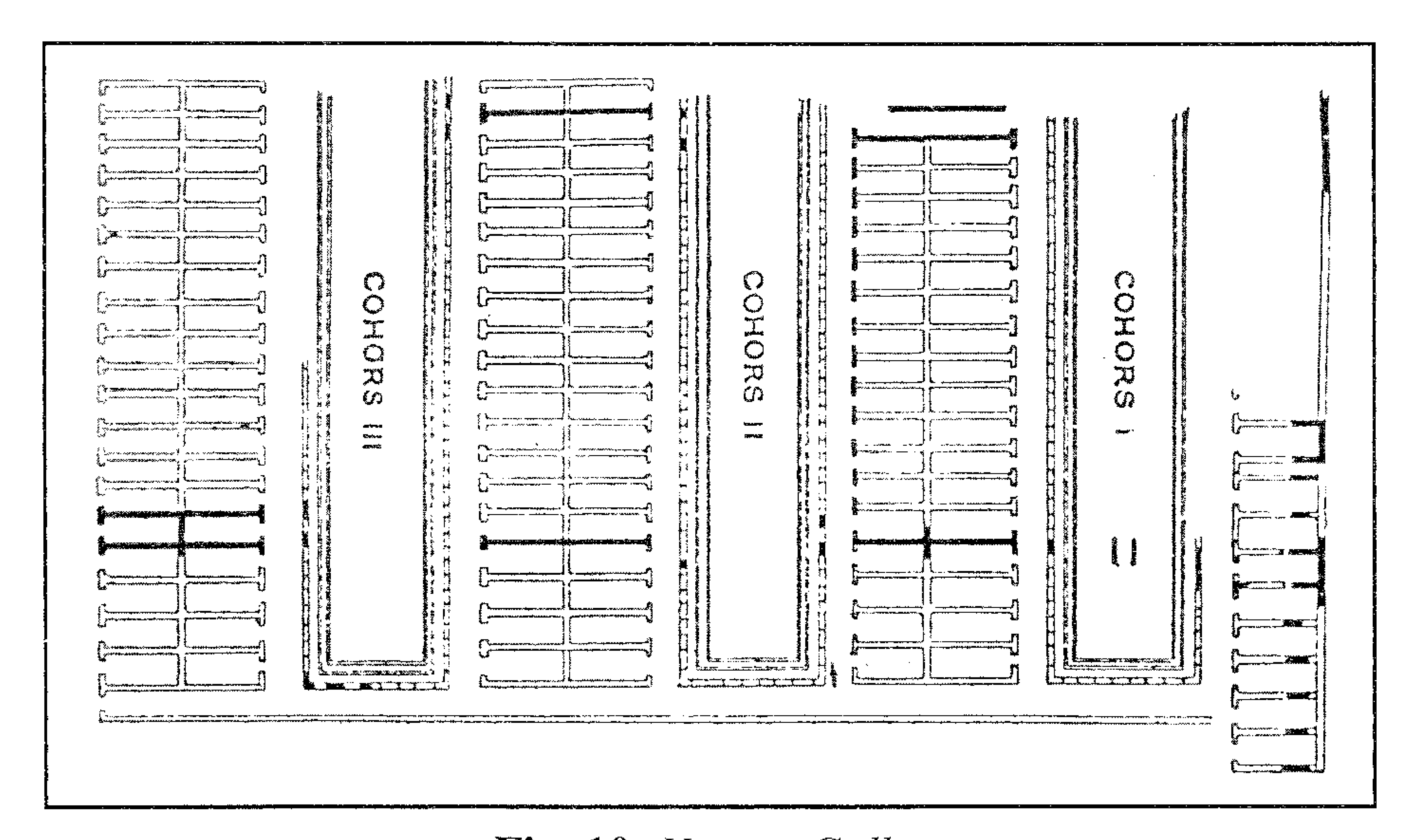


Fig. 10. *Horrea Galba*



Fig. 7. *Horrea de Hergla : Secteur sud*

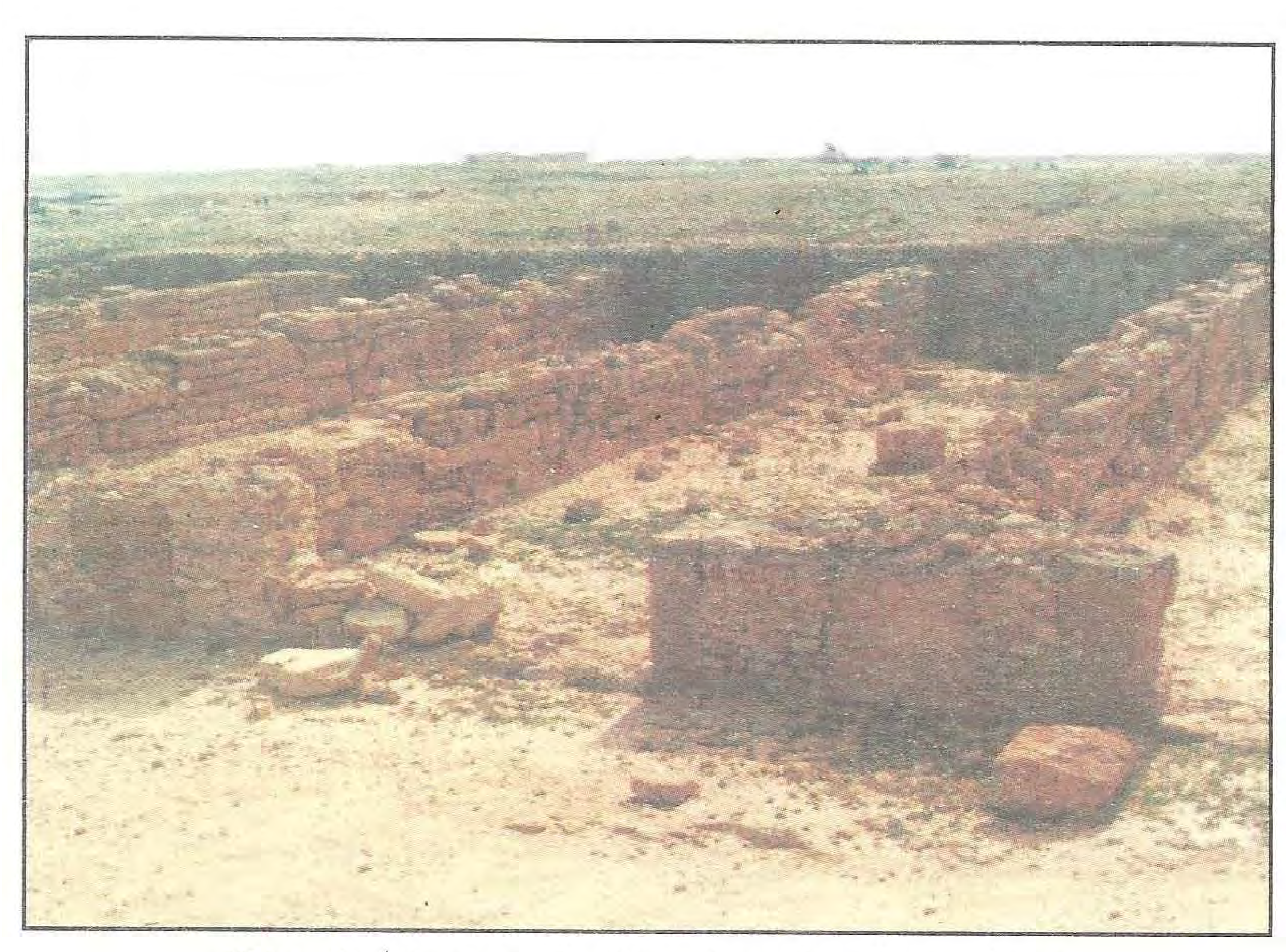


Fig. 8. *Horrea de Hergla : Angle sud-est*



Fig. 5. *Horrea de Hergla : Secteur sud (Opus Africanum)*



Fig. 6. *Horrea de Hergla : Secteur nord*



Fig. 3. *Horrea de Hergla : Secteur sud et sud-est*

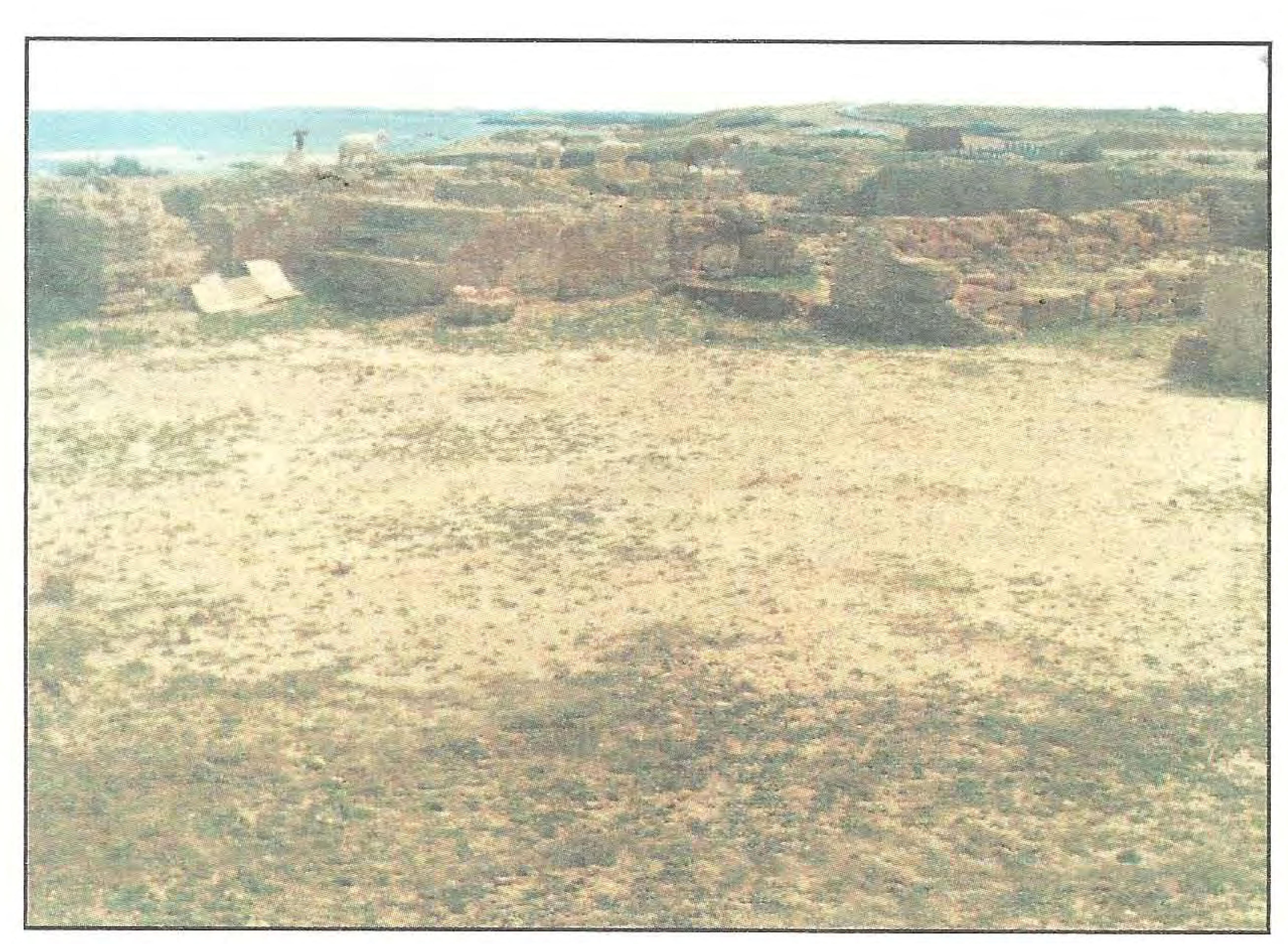


Fig. 4. *Horrea de Hergla : départ d'escalier pour un premier étage*

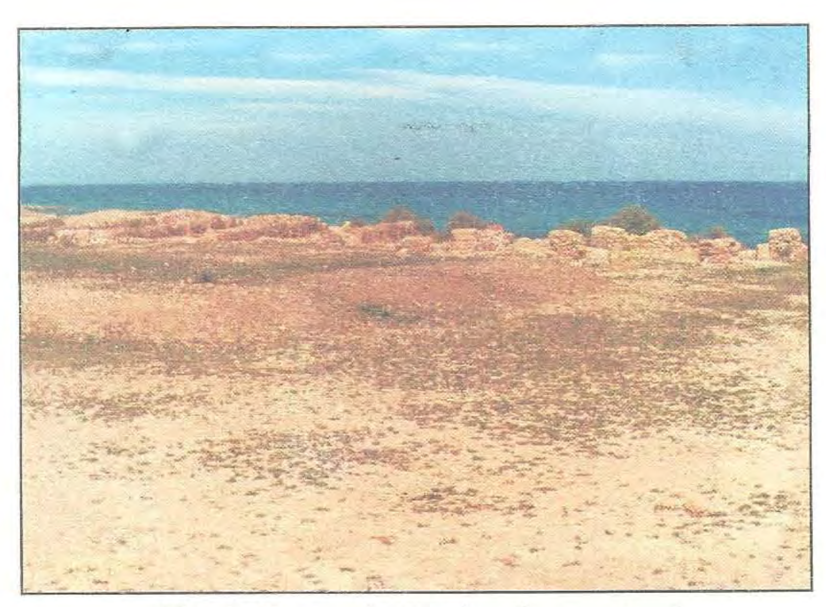


Fig. 1. *Horrea de Hergla : Secteur nord*



Fig. 2. *Horrea de Hergla : Cours*

✓ (J. M.) PEROUSE de MONTCLOS, Architecture: Vocabulaire, éd. Imprimerie Nationale, Paris, 1989

✓ Abū Mūhamed 'Abdellah ibn Mūhamed ibn Ahmed El Tījanī, kītāb al-rihla, Maison Arabe du Livre, ,Tripoli- Tunis,1981.

✓ Abū 'Ūbayd al Bakrī, kītāb al masālek wal mamālek ,T.II, Maison Arabe du Livre & Bayt al Ḥikma –Carthage, 1998.

Mohamed Riadh Hamrouni
(Faculté des Lettres de Kairaouan)

Bibliographie Sommaire

- ✓ Enciclopedia Italiana, Istituto d'ell Enciclopedia Italaina (Giovanni TRECCANI), Roma, 1961, article: Magazzino.
- ✓ (Ch.) DAREMBERG, (E.) SAGLIO ET (E.) ROTTIER, Dictionnaire des Antiquités Grecques et Romaines d'après les textes et les monuments, éd. HACHETTE, Paris, 1904, article: *HORREUM* par (Henry) THEDENAT.
- ✓ (V.) GUERIN, Voyage Archéologique dans la Régence de Tunis, Tome I, éd. Henri PLON, Paris, 1862.
- ✓ (Ch.)TISSOT, Exploration Scientifiquede la Tunisie: Géographie comparée de la Province Romaine d'Afrique, Tome II, éd. Imprimerie Nationale, Paris, 1888
- ✓ (J.) DESPOIS, la Tunisie orientale : Sahel et Basse Steppe. Etude géographique, P.U.F. et Institut des Hautes Etudes de Tunis, Section des Lettres, volume I, Paris, 1955
- ✓ (L.) FOUCHER, *Hadrumetum*, éd. Université de Tunis, Faculté des Lettres et P.U.F., première série : Archéologie – Histoire, Volume X, Tunis, 1964
- ✓ (L.) FOUCHER, Thermes romains des environs d'Hadrumète, éd. Institut National d'Archéologie et d'Arts, Volume I, Nouvelle série, Tunis, 1958
- ✓ (C.) PERRAULT, Les dix livres d'Architecture de VITRUVE, Nouvelle édition Bibliothèque de l'Image (1ère édition 1673), Paris, 1995.

Notons, enfin, que le toponyme antique de la ville, *HORREA CAELIA*, n'à guère révélé l'ensemble de ses secrets.

En effet, le *gentilis CAELIA* reste énigmatique.

S'agit – il d'une famille romaine ou romanisée?

S'agit – il d'un nom d famille d'un *praefectus annonae* ?

Dans l'état actuel de nos informations, nous ne pouvons donner aucune réponse précise à ces questions.

DESPOIS, La Tunisie orientale : Sahel et Basse Steppe. Etude géographique, éd. P.U.F. et Institut Des Hautes Etudes De Tunis, Paris, 1945, volume I, p.125, "Hadrumète seule a eu une certaine importance... les autres ports paraissent avoir été bien modestes : *Horrea Caelia, Leptis Munus* , ou l'on trouve quelques vestiges de quai..."

Ce balcon, vraisemblablement en bois, montre deux poutres séparées par un treillage; la poutre supérieure est surmontée de six petites croix. L'angle de cette façade est doté d'une petite tour–vigie carrée à deux ouvertures sur chaque face et coiffée d'un toit pointu au sommet duquel sont placées deux cornes. Devant l'autre face de l'édifice ...s'étend une terre pleine en construction ...De ce côté, le rez - de - chaussée de notre édifice est percé d'une fenêtre, le premier étage de quatre et le second de trois, placées à la partie supérieure de façon que la lumière arrive d'en haut. Le mur de la terrasse est garni sur cette face seulement, de trois créneaux couronnés [29]"

S'agit – il du complexe portuaire de *VICUS HORREA CAELIA* ?

S'agit – il des *HORREA* et du *PORTUS* de Hergla?

Nous nous contentons, dans cet essai, de préciser que, d'une part, Chott-Meriem[30], où se trouvent aujourd'hui encore les vestiges des thermes romains de *Themetra*, est située très exactement à 12 Km au nord de Sousse et, à 12 Km au sud de Hergla et, d'autre part, la monumentalité des greniers de Hergla est irrécusable sur la Table de Peutinger, par rapport à la "modestie" des autres constructions indiquées sur la carte romaine près des toponymes saheliens (Fig. 15).

L'absence des greniers ou des vestiges archéologiques des *HORREA* dans d'autres villes portuaires de la région du Sahel tunisien, ainsi que le toponyme romain de la ville de Hergla[31], sont encore des indices qui plaident en faveur de l'importance et de l'existence d'un port romain, à Hergla, qui devait être florissant et actif[32].

---

[29] (L.) FOUCHER, Thermes Romains des environs d'Hadrumète, éd. I.N.A.A., coll. Notes et Documents, volume I (Nouvelle Série), Tunis, 1958, p. 23-24

[30] Plus précisément l'ancienne propriété du docteur Ali ALADHARI, l'actuelle propriété de la famille Abdessalem BOU SETTA.

[31] *HORREA*, au pluriel et non *HORREUM*, au singulier

[32] Nous nous partageons pas l'avis de (Jean) DESPOIS concernant "la modestie " du port romain de Hergla : (J.)

centrale et méridionale. Les vestiges de ces greniers existent encore à nos jours (Fig. 1-8).

Aujourd'hui, ce monument est appelé par les habitants de Hergla « al m'khazen », ou les magasins. Cette appellation s'applique parfaitement aux restes du monument.

Dans l'état actuel des vestiges, à partir de la position et la configuration générale, les greniers de Hergla se composaient de vastes bâtiments[26], disposés autour d'une grande cour rectangulaire à ciel ouvert. Le bâtiment lui-même est constitué de quatre murs principaux sur lesquels s'appuyaient d'autres murs[27] perpendiculaires, formant des compartiments oblongs ou des *CELLAE*.

La présence des *HORREA*[28] à Hergla implique l'existence d'un complexe portuaire. Or, dans l'état actuel de la documentation littéraire et archéologique on ne note qu'un calme absolu.

La documentation iconographique, en revanche, est peut être plus généreuse. En effet, (L.) FOUCHER a identifié des installations portuaires "sahéliennes" à travers l'iconographie de la célèbre mosaïque du dieu Océan découverte dans le *frigidarium* des Thermes romains de *Themetra*.

La trame de cette mosaïque nous indique la présence d'une "construction quadrangulaire couverte d'un toit pointu formant auvent et surmonté de cornes de cerf. A gauche ...une sorte de tour carrée à toit plat et munie de créneaux qui pourrait être un phare ...

L'artiste a voulu représenter l'angle d'un édifice à deux faces. Sur l'une d'elles, on voit d'abord une façade de huit colonnes au rez de chaussée, un second étage sans ouverture de ce côté, et un troisième étage dont le balcon est supporté par cinq jambes de force qui viennent s'encastrer dans le mur.

---

[26] Qui ouvrent, vraisemblablement, sur des portiques

[27] Les matériaux de revêtement sont agencés dans un *opus africanum*

[28] Au bord de la mer

- Les greniers militaires: ce type de greniers est bien représenté dans les camps et les fortins des provinces romaines en générale, plus particulièrement à proximité du *limes*. Mais, les archéologues en font rarement état, car il s'agit, le plus souvent, d'installations relativement sommaires et dépourvues de toute prétention à la monumentalité[22].

Dans les provinces, des agents spéciaux de l'Annone, dont le nom varia suivant les époques, étaient chargés[23] de faire rentrer les impôts en nature[24] ou de faire des achats. Ces prestations en nature ne comprenaient pas seulement le blé mais encore, en Afrique, l'huile d'olive et le vin.

L'Afrique, où il devait exister le plus grand nombre de greniers publics, devait spécialement contribuer à l'alimentation de Rome et de l'Italie. Or, dans l'état actuel de nos connaissances, concernant ces greniers africains construits *ad securitatem populi romani*[25], on note une étonnante absence des vestiges archéologiques des *HORREA*. En Tunisie, seulement quatre *HORREA* sont identifiés jusqu'à nos jours : Les *HORREA* d'Utique, les *HORREA* de Carthage, les *HORREA* du Cap Bon et les *HORREA* de Hergla.

Dans ces *HORREA* publics, on entassait les récoltes de la province de l' Afrique Proconsulaire septentrionale, ainsi que les récoltes de la Numidie dans des installations immenses.

Concernant Hergla, il s'agit d'immenses greniers qui recevaient les récoltes agricoles et les produits de la Tunisie

---

[22] Se sont des greniers pour l'alimentation des soldats. Le pain, le vin, l'huile, le sel, la viande, le bois et aussi l'équipement, lui furent délivrés gratuitement. Ces denrées étaient emmagasinées dans ces greniers militaires provinciales pour la subsistance de l'armée

[23] En Afrique Proconsulaire, ainsi que dans les autres provinces dites annonaires

[24] Dès le premier siècle de l'Empire, l'Afrique Proconsulaire a été la principale fournisseuse des services de l'Annone de Rome, procurant à la plèbe des distributions gratuites ou à bas prix de blé. Ceci implique que, même l'impôt foncier (le tribut du sol) était payé plus souvent en nature

[25] Pour la sécurité du peuple de Rome

Sous l'empire, le *HORREUM* le plus grand et le plus majestueux est constitué par l'ensemble des bâtiments connus, à Rome, sous le nom de *HORREA SULPICIA*[14] et, plus tard, sous le nom de *HORREA GALBAE*[15], du nom de l'empereur Galba qui les a agrandi et restauré.

Les greniers de Galba étaient considérables; une de ses façades avait 1500m de longueur. Spécialement consacrés au service de l'Annone, ils renfermaient surtout le blé, l'huile d'olive et le vin.

Parmi les greniers de Rome, tous situés sur le bord du Tibre, on connaît aussi des greniers qui portent les noms d'empereurs ou de membres des familles impériales[16]. Certains greniers publics portaient aussi des noms de particuliers[17]; d'autres étaient dénommés d'après les marchandises qu'ils renfermaient[18].

Rome possédait, ainsi que les greniers publics d'Ostie et de Pouzzoles, de nombreux *HORREA*. Ces greniers étaient désignés, généralement, par le nom de *HORREA FISCALIA*, construits et sans cesse remplis *IN SICURITATEM REI ANNONARIAE*[19].

Dans certains cas[20], enfin, les greniers de familles devaient recevoir les produits de l'Annone sous le contrôle de l'armée ou des "commissions frumentaires"[21].

---

l'Annone, qui subsista jusqu'à la fin de l'Empire. Le *Praefectus Annonae* occupe l'un des postes les plus élevés de la carrière équestre.

[14] Ces greniers furent fondés sur un terrain appartenant à la gens *SULPICIA*, par un de ses membres.

[15] *GALBES*, *GALBANA* ou encore *GALBIANA*

[16] Les *HORREA VESPASIANI*, les *HORREA NERVAE*, les *HORREA AGRIPPIANA*...

[17] Les *HORREA LOLLIANA*, les *HORREA PETRONIANA* ...

[18] A l'exemple des *HORREA PIPERATARIA*, ou l'on faisait des provisions des épices d'Egypte et d'Arabie

[19] Sous la sécurité perpétuelle de service de l'Annone. *Vide supra*, note 13

[20] En cas de disette par exemple

[21] Sous la République, il n'est pas rare, en période de crise économique, que des "commissions frumentaires" soient désignées

- Les *HORREA* rustiques[9] : dans les fermes romaines, on appelait *HORREUM* le local où l'on conservait les produits agricoles. Il s'agit d'un local spécial qui était aménagé pour garder les instruments nécessaires à l'agriculture, aussi qu'à sa production.

- Les *HORREA* privés[10] : Ces installations privées étaient des dépôts de livres[11], de tableaux, de statues et d'œuvres d'art. Ils devaient correspondre, peut être, à ce que nous appelons aujourd'hui des galeries d'exposition.

- Les *HORREA* publics[12]: Les plus importants et les plus célèbres greniers publics, dans l'Empire Romain, sont les greniers de Rome.

- Les greniers de la période républicaine furent nommés *HORREA SEMPRONIA*, du nom de la célèbre loi gracquienne (de *Theberius* et *Caius GRACCHUS*): la *Lex sempronia* ou, la loi agraire.

Ces greniers, réservés à l'alimentation de la plèbe, furent élevés toujours près des complexes portuaires. C'est là que fut toujours, aussi, concentré le service de l'*Annona* et ses dépendances[13].

---

[9] Les greniers de campagnes

[10] Ces greniers ne doivent pas être confondus avec les greniers de campagnes

[11] Cf. Sénèque le philosophe, Les Epigrammes, XLV.

[12] Le problème de stockage et de la conservation des denrées s'est posé à Rome à partir de la fin de seconde guerre punique. L'accélération du rythme de la croissance démographique et l'amplification des activités commerciales, ont entraîné, dès le début du II^{e} siècle av J.- C., des besoins nouveaux dans le domaine de stockage, d'emmagasinage et de conservation des produits agraires. Il résulte de ce fait que des équipements, destinés à faciliter ce trafic et cette activité, furent aménagées en Italie et dans les provinces dites annonaires (l'Afrique, la Sicile et l'Egypte)

[13] L'*ANNONA* ou l'Annone, est un service d'Etat chargé d'approvisionner en denrées alimentaires (principalement le blé), la population de Rome. Sous l'Empire, ce service prit son plus grand développement. En effet, en 22 av J.-C., à la suite de troubles suscités par une famine, Auguste institua la Préfecture de

D'emblée, le nom moderne de Hergla a été fondé par la synonymie et la transcription phonétique des deux noms[4] *HORREA*, lieu où l'on conserve le grain[5] et, *CAELIA* qui est un gntilis[6].

Cette synonymie est plus claire chez Abū Mūhamed 'Abdellah ibn Mūhamed ibn Ahmed el Tījanī dans sa Relation (El rihla), ainsi que chez el Idrisī dans son «nūzhat al mūstāó», ou ils présentent la forme de « Ihrīóilyā » qui rappelle plus fidèlement la dénomination latine. Alors que Abū 'Ūbayd al Bakrī, dans son « kitab al masālek wal mamālek », présente la forme actuelle de Hergla, qui reproduit encore les deux mots, *HORREA* et *CAELIA*, en les contractant[7].

Par définition, le *HORREUM* était une construction destinée à recevoir les produits de l'agriculture. Le *HORREUM* (ou les *HORREA*) était donc, une sorte de magasins ou des greniers servant à emmagasiner des produits alimentaires, tel que le blé, l'huile d'olive et le vin.

On y ménageait des espaces destinés aux différentes espèces de produits appelés *CELLAE*. Ces espaces étaient eux même subdivisés en compartiments (Fig.9-12,16).

Les études typologiques, de l'ensemble de ces ouvrages et ces équipements romains nécessaires au fonctionnement de l'activité économique[8], indiquent la présence de quatre types de HORREA:

---

[4] *IN ITINERARIIS TANTUM IN ACTIS CONCILIORUM COMMEMORATUR : HORREA*, Itinéraire d'Antonin, p.56; *HORRAEA CAELIA*, Itinéraire d'Antonin, p.52; *HORREA CAELIA VICUS*, Itinéraire d'Antonin, p.58; *AD HORREA*,Table de Peutinger.

[5] Des greniers

[6] Un nom de famille (une gens)

[7] En les réduisant

[8] (P.) GROS, L'Architecture Romaine, 1. Les monuments publics, éd. Picards, coll. Les Manuels d'Art et d'Archéologie Antique, Paris, 1996, p.465-474; (E.) RODRIGUEZ ALMEIDA, Il Monte Testaccio. Ambiente. Storia. Materiali, Rome, 1984, p. 35-39

Mohamed Riadh Hamrouni

(Faculté des Lettres, Kairaouan)

Essai de recherche sur les HORREA de VICUS HORREA CAELIA

VICUS HORREA CAELIA : d'où provient cette toponymie significative?

Ce nom de lieu, ou cette toponymie, est signalé par (V.) GUERIN et (Ch.) TISSOT ainsi que d'autres archéologues et voyageurs, dès le milieu du XX^{e} siècle.

(V.) GUERIN, à titre d'exemple, indique que "le bourg de Hergla, était celui d'*HORREA CAELIA*, marqué dans l'Itinéraire d'Antonin[1] à 18 milles d'*Hadrumetum*, aujourd'hui Soussa. La Table de Peutinger[2] le signal également sous le nom d'*AD HORREA*. Dans cette Table, on voit un grand bâtiment figuré à côté de ce nom, ce qui semble indiquer, comme ce nom même, que *HORREA* était jadis un entrepôt où l'on conservait les céréales destinées à être exportées".[3]

---

[1] L' Itinéraire d'Antonin ou *l'Itinerarium Antonini Augusti* :c'est un itinéraire qui énumère les routes de tout l'Empire Romain en indiquant leurs distances par milles, les étapes journalières, de l'Ouest en Est par grandes régions (Afrique, Sardaigne, Corse, Italie...). Le titre d'Antonin semblerait orienter vers un empereur du III^{ème} siècle ap. J.-C., probablement Caracalla (211-217).

[2] Copie médiévale (XII^{e} - XIII^{e}) d'une carte romaine, trouvée à Worms en Allemagne à la fin du XV^{e} siècle, et donnée en 1508 à (Conard) PEUTINGER D'AUGSBOURG, à qui elle doit son nom, aujourd'hui conservée à la bibliothèque de Vienne (Autriche).

[3] (V.) GUERIN, Voyage archéologique dans la régence de Tunis, éd. Henri Plan, Paris, 1862, Tome I, p.85-86.

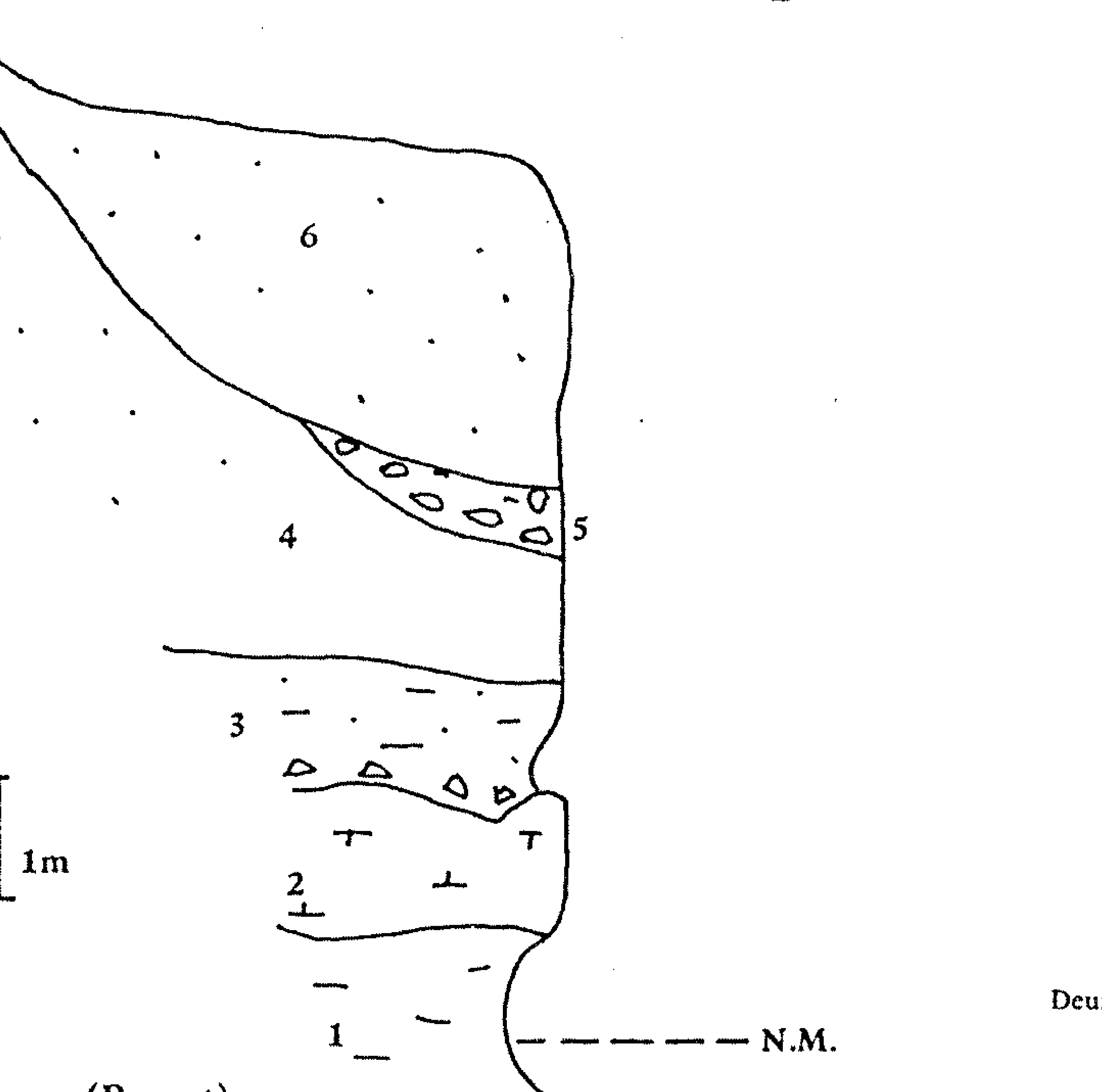
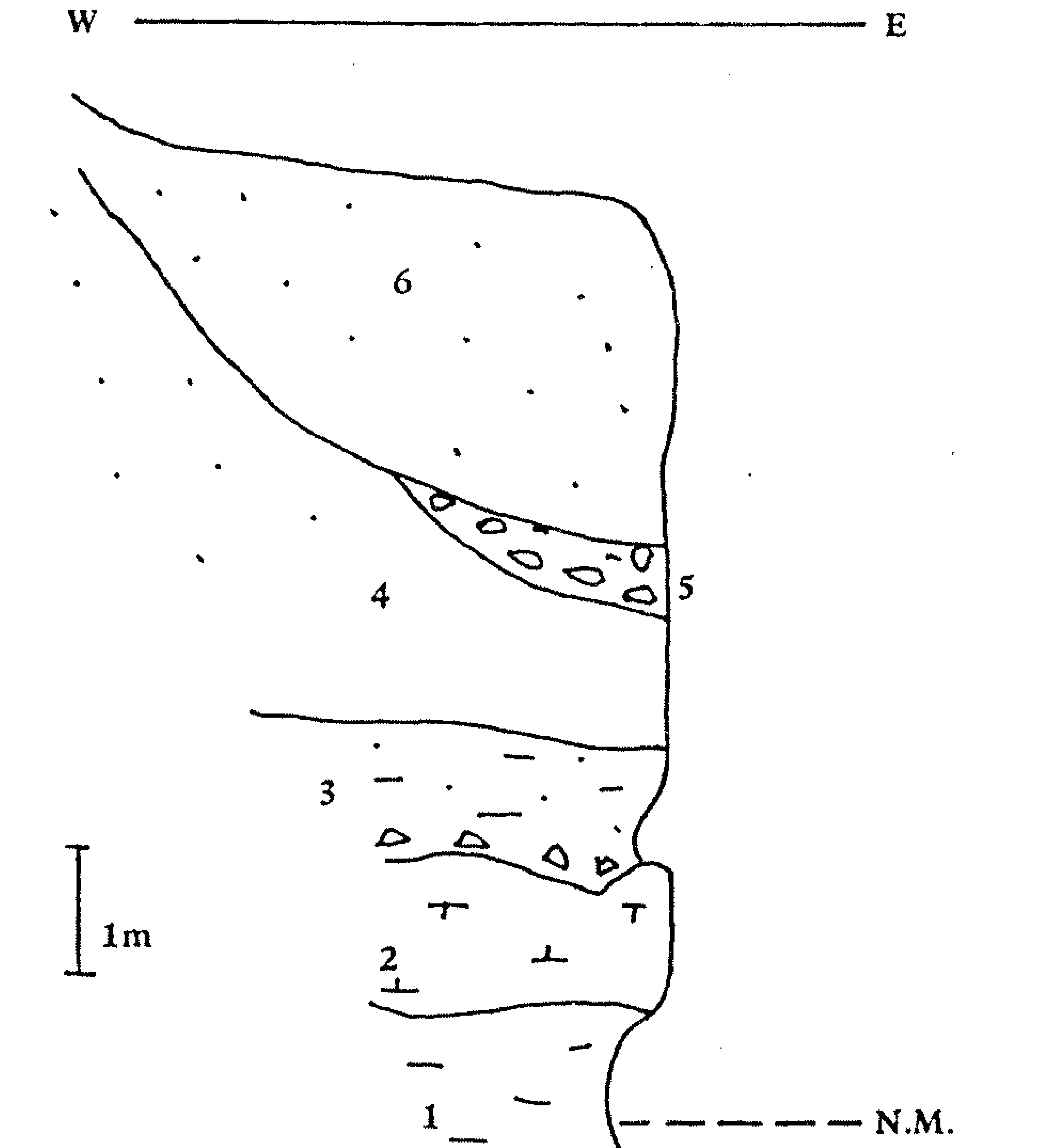




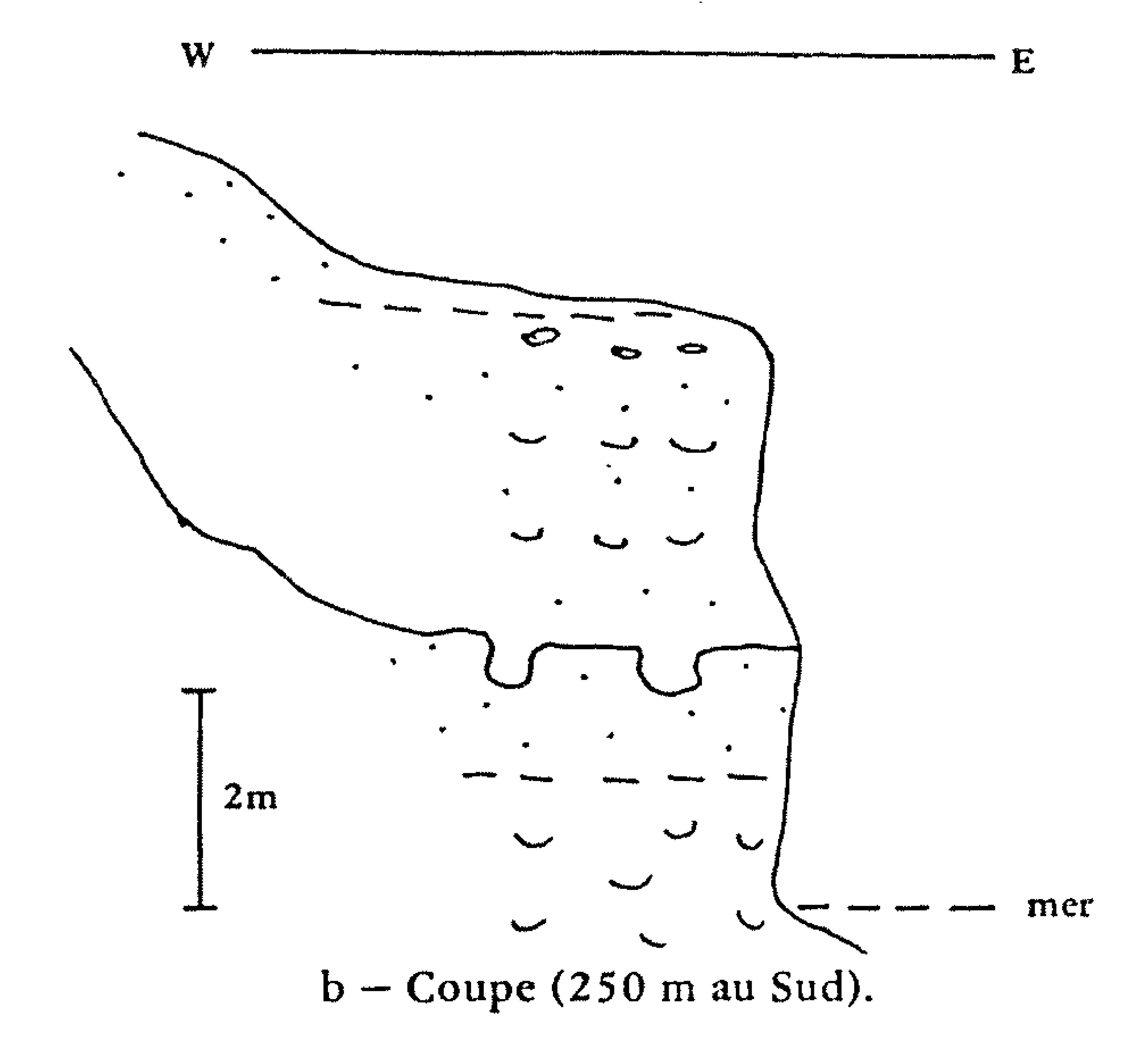
Mohamed Riadh Hamrouni

Essai de recherche sur les VICUS HORREA CAELIA

Document 5

a – Coupe (Barrot).



b – Coupe (250 m au Sud).

Fig 17 – Coupe du cimetière marin d'Hergla.

Deuxième arrêt : cimetière marin d'Hergla. (fig. 17)

Dans cette coupe décrite par Barrot (1972), on observe de haut en bas :

6. grès dunaire de couleur claire, fossilisant une ancienne falaise (2m).
5. vers +3,50m, plage avec blocs de grès et macrofaune, ravinant la série inférieure.
4. grès oolithique. Il est ici dunaire (*Helix*) mais il passe latéralement vers le Sud à un grès marin (base de l'escalier). Au fond de la crique la falaise est entièrement taillée dans ce grès.
3. niveau continental : limons argileux, surmontant un cailloutis de dissociation de la croûte sous-jacente.
2. croûte saumon villafranchienne (vers +1,50 à 2m).
1. marnes de couleur claire.

A 250m au Sud, environ, les trois couches inférieures ne sont plus visibles mais on observe en discordance deux séries de grès marin surmontés chacun de grès dunaire :
– grès à litage dunaire,
– grès à litage horizontal. Abondante macrofaune (*Cardiums*, Strombes)

A sa base, blocs de grès et net ravinement.
– grès dunaire (environ 2m d'épaisseur).

Document 4

Fig. 39 : Concentrations totales en g/l des eaux de surface de la lagune H. el Mengel. Août 1987.

Fig. 38 : Concentrations totales en g/l des eaux de surface de la lagune H. el Mengel. Mai 1987.

Document 3

Fig. 37 : Concentrations totales en g/l des eaux de surface de la lagune H. el Mengel. Février 1987.

Fig. 36 : Concentrations totales en g/l des eaux de surface de la lagune H. el Mengel. Novembre 1987.

Document 2

Encroûtement
Villafranchien

(E)

(W)

Douira

Paléotyrrhénien

Rejiche I

Transgression

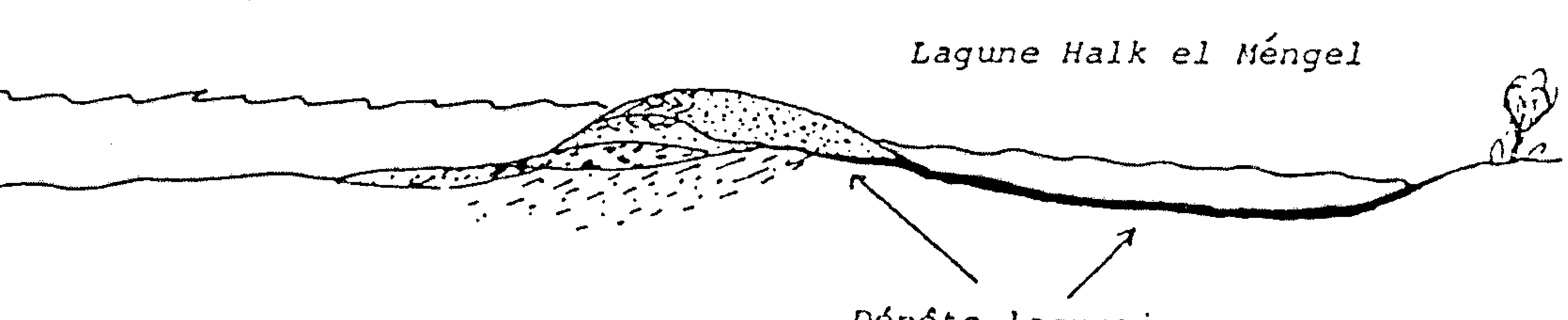
Eutyrrhénien

Lagune

Regression

Rejiche II

Transgression




Fig 1 — Coupe du cordon littoral d'Hergla.

Enfin au néotyrrhenien (-80.000ans BP) une dernière pulsation eustatique de plus faible amplitude ne dépassant guère le niveau marin actuel a mis en place les dépôts congloméra tiques à strombes remaniées de la formation « CHEBBA ».

Notons que la découverte par madame Riahi d'un site d'industrie préhistorique en bordure de Sebkhet Halk El Menzel confirme la subsistance de sa lagune jusqu'au moins 3500 ans BP. Ceci confirme aussi le fait que des hommes préhistoriques vivaient déjà à cette époque au tour de la zone de Halk el Menzel qui était riche en moules (Murex , cardium etc).

Actuellement, Halk El Menzel ne présente plus les caractéristiques d'une lagune mais plutôt celles d'un Sebkha avec une concentration totale en sel pouvant atteindre 113g/l. Ce phénomène constitue déjà un danger imminent pour les champs d'oliviers situés sur les berges du Sebkha (fig4 a ;b; c ;d)

conclusions

les caractéristiques topographiques souvent contraignantes (falaises et Sebkhas) et son relatif éloignement par rapport aux grands axes routiers ont épargné Hergla et son littoral de la grande mutation urbaine et touristique qui a caractérisé les grands pôles urbains du Sahel (Hammam Sousse, Monastir etc.)

Néanmoins moins, la dynamique que subit actuellement ce milieu fragilisé menace cet écosystème dont il faut maintenir la cohésion et la richesse.
A ce propos nous recommandons de :

- Protéger et réhabiliter les éléments naturels composant la plage(falaises, criques, végétation côtière) fig5.

- Atténuer les nuisances et atteintes subies par les milieux et la végétation côtière, comme c'est le cas pour la côte Sud qui s'altère actuellement par la présence d'une station aquacole qui rejette ses eaux usées dans la Sebkha Halk El Menzel.

Ben Abdelkader Omrane
et Mohamed Ali Tagorti
(Faculté de Biologie, Monastir)

- La formation la plus ancienne, appelée formation « DOUIRA » d'âge paléotyrrhenien (120.000ans BP) est caractérisée par un dépôt grésocarbonaté à coquille mais sans strombes. Ces dépôts correspondent à une transgression .

- La formation « REJICHE »d'âge eutyrrhenien (100.000 ans BP)correspond à des dépôts gréseux fins oalithiques alternativement marins(à strombes et à éoliens, il s'agit de dépots de mer chaude à forte énergie.

- Enfin la formation « CHEBBA » la plus récente d'âge Néotyrrhenien (80.000ans BP) est représentée par un conglomérat à strombes remaniées témoignant d'une mer agitée.

b) Genèse du cordon littoral et du complexe lagunaire de la région de Hergla.(fig3)

- vers 120.000ans BP) , un faible réchauffement du climat va permettre une incurtion de la mer sur un terrain plat légèrement déprimé. Cette transgression conduit au dépôt de la formation gréso-carbonaté de DOUIRA.

- Pendant l'Eutyrrhenien (100.000ans BP) la région sera soumise à deux invasions marines séparées par une phase régressive .

* Durant la première invasion marine se forme une lagune à l'endroit de Sabkhet Halk el Menzel, avec en plus le dépot de la formation « REJICHE1 »gréseuse et à strombe.

* Le retrait de la mer à la fin de la première pulsation transgressive a permis le remaniement des dépôts grésocarbonatés ou REJICHE1 créant ainsi des blocs intraformationnels de marbre gréseue.

* La deuxième invasion marine de REJICHE2 a isolé la lagune de Halk El Menzel en comblant toutes les dépressions côtières préexistantes avec des dépôts marins à strombes et des termes éoliens, formant ainsi une barrière définitive entre les milieux lagunaires et la mer ouverte.

Ben Abdelkader Omrane et Mohamed Ali Tagorti

Histoire géologique de la ville de Hergla

1) Contexte général

Connue sous le nom de « HORREA COELIA » à l'époque romaine , la localité de Hergla se présente comme l'une des rares villes littorales de la partie sud du golfe de Hammamet et se caractérise par ses qualités paysagères et ses sites historiques comme celui de la basilique chrétienne, du Nécropole des entrepôts (Horrea) ou encore des fours à chaux.

2) *cadre géographique*

la zone de Hergla appartient au Sahel et se trouve encadrée :

- Au nord par la plaine d'Enfida et le système endoréique de Sabkhet Asset Jribba

- Au sud , des plateaux et collines divisés par les affluents de Alyet el Hammam avec un plan d'eau représenté par Sebkhat Halk el Menzel.

- A l'est une zone littorale formée d'une côte à falaise au centre (Hergla ville)et des plaines sablonneuses étroites au Sud.

3) *Cadre géologique*


a) <u>le cordon littoral de Hergla</u> (fig 2)

la ville de Hergla est située sur un cordon littoral d'âge quaternaire. Ce cordon côtier d'environ 6 km de longueur est taillé en falaise par la mer dégageant ainsi de très belles coupes du quaternaire marin côtier .

Les études récentes (Pascof et Sanlaville 1983, Mahmoudi M. 1986, Tagorti Med A. 1990), mentionnent la présence dans cette série littorale du quaternaire de Hergla de trois formations marines correspondants à trois pulsations eustatiques successives (coupe du cimetière marin de Hergla).

Ben Abdelkader
Et Tagorti

Histoire Géologique de la ville de Hergla





HERGLA

Petit village blanc aux portes bleues sur un balcon de mer.

Au bout des maisons une mosquée équarrie dans la même blancheur, un cimetière descend de ces tombes de chaux, toute semblables, escaliers riant jusqu'à la mer.

Là l'écume des voyages et celle de la mort se confondent. Pas un arbre. Pas une ombre. Tout est clair que le jour, c'est la nuit, le néant passés à la chaux. Rien de ces méandres, de ces marbres aux inscriptions dorées, toutes ces coulisses qui nous cachent l'étendue de nos cimetières.

Ici l'inconnu est aveuglant. Comme si l'opacité battue par le soleil devenait aérée, lucide. Cette légèreté qui reste de nos Secrets-Ferments qui bougent au-dedans de la pesanteur, images brûlées dont la lumière est d'eau et de cailloux, de ces paroles dans le vent quand s'use le contour d'une chose.

Lorand GASPARD

Feuilles d'observation contemporain en poche
Cérès éditions 1994
Editions GALLIMARD- 1986.

joué un rôle important notamment dans l'élimination des Kharigites de la carte politique voire hérésiographique de l'Ifriqiya avant la fin de la période dite médiévale. Gafsi de son côté a corroboré les idées apportées par Mansouri, mais il est allé plus loin en établissant une liste qui souligne les pérépities d'une longue phase qui s'étend du Moyen-Âge à la période contemporaine.

Dans cet ordre interviennent Bahi et Mokni pour résumer les obstacles au développement de Hergla jusqu'à la fin de la période moderne. La confrontation entre les deux systèmes socio-économiques totalement antagonistes a toujours bouleversé l'ordre de la stabilité dans tout le Maghreb. D'une part la force des bédouins représentés par le nomadisme et le mode de vie de la puissance du monde tribal, d'autre part le mode de vie des citadins qui malgré son long passé en Ifriqiya n'a pas pu dominer. Il est resté plutôt à la merci de l'autorité beylicale qui n'a jamais tranché en faveur des citadins. Elle était surtout dans le sens qui lui assurait les rentrée de son système tributaire. Les apports de Rekia confirme cette thèse.

Pour finir on peut malgré les lacunes juger que la ville-village de Hergla possède tout les atouts pour se constituer sa propre historiographie locale qui s'intègre parfaitement dans l'ensemble des écrits sur le Sahel et le pays en général.

Oui Hergla s'apprête aujourd'hui à s'engager dans une économie moderne grâce à son passé glorieux et son présent épanoui.

Fehri Abelhamid
Directeur du Centre Cercina Pour les Recherches sur les Iles Méditerranéennes.
Kerkena

Préface

Il n'est ni étrange, ni étonnant qu'Hergla soit le sujet d'un grand colloque. Hergla, ce petit village s'est réfugié longtemps dans le silence et l'oubli. Mais il est grand temps de se réhabiliter.

Hergla était en fait un des plus anciens relais de la Méditerranée. Les autochtones qui étaient bel et bien des Amaziguens, ont pour de longs siècles accueilli sur leur territoire Grecs, Phéniciens et Romains. Ces derniers ont su exploiter l'importance de son site de presqu'île. Annabi et Ben Baaziz ont retracé le haut degré de la romanisation de la cité pendant cette phase. Mais bien que les textes présentent quelques passages sur Hérgla à l'époque romaine, les vestiges archéologiques ne répondent que rarement aux indications apportées par les anciens textes. Pourtant Hamrouni a pu exploiter suffisamment ces rares données pour présenter l'iconographie d'une ville oubliée.
Il est vrai que les Arabes ont pour beaucoup contribué à la destruction de la cité romaine, mais il est hors de question de comparer l'action arabe par celle des Vandales comme le laisse entendre Félix Faure. C'est pour cette simple raison qu'on a essayé de répondre à ses propos.

En réalité Hergla a trop souffert pendant le Moyen-Âge d'un grand vide économique et social. Ainsi Mansouri a révisé les idées qui figuraient dans quelques études précédentes qui considéraient Hergla comme étant une presqu'île isolée. Les textes des voyageurs et les témoignages classent Hergla parmi les villages qui avaient



Sommaire



Titre ....: Aperçus de l'histoire de Hergla
Auteur..........................: Ouvrage collectif (Actes du colloque du 28-29 avril 2001
Coordination....... ....: Fehri Abdelhamid
Edition........................: 1ère édition juillet 2002
Réalisation de la couverture. : Thameur Jamoussi
Textes révisés par ....: Mabrouk Béhi
Illustration de la couverture. : Paysage de Hergla
Imprimerie.....................: Dar El Maaref . Sousse
ISBN ....: 9973-41-668-6



Centre Cercina pour les Recherches sur les Iles Méditerranéennes
Kerkena

Ministère de la culture
Comité culturel local de
Hergla

Aperçus de l'histoire de Hergla

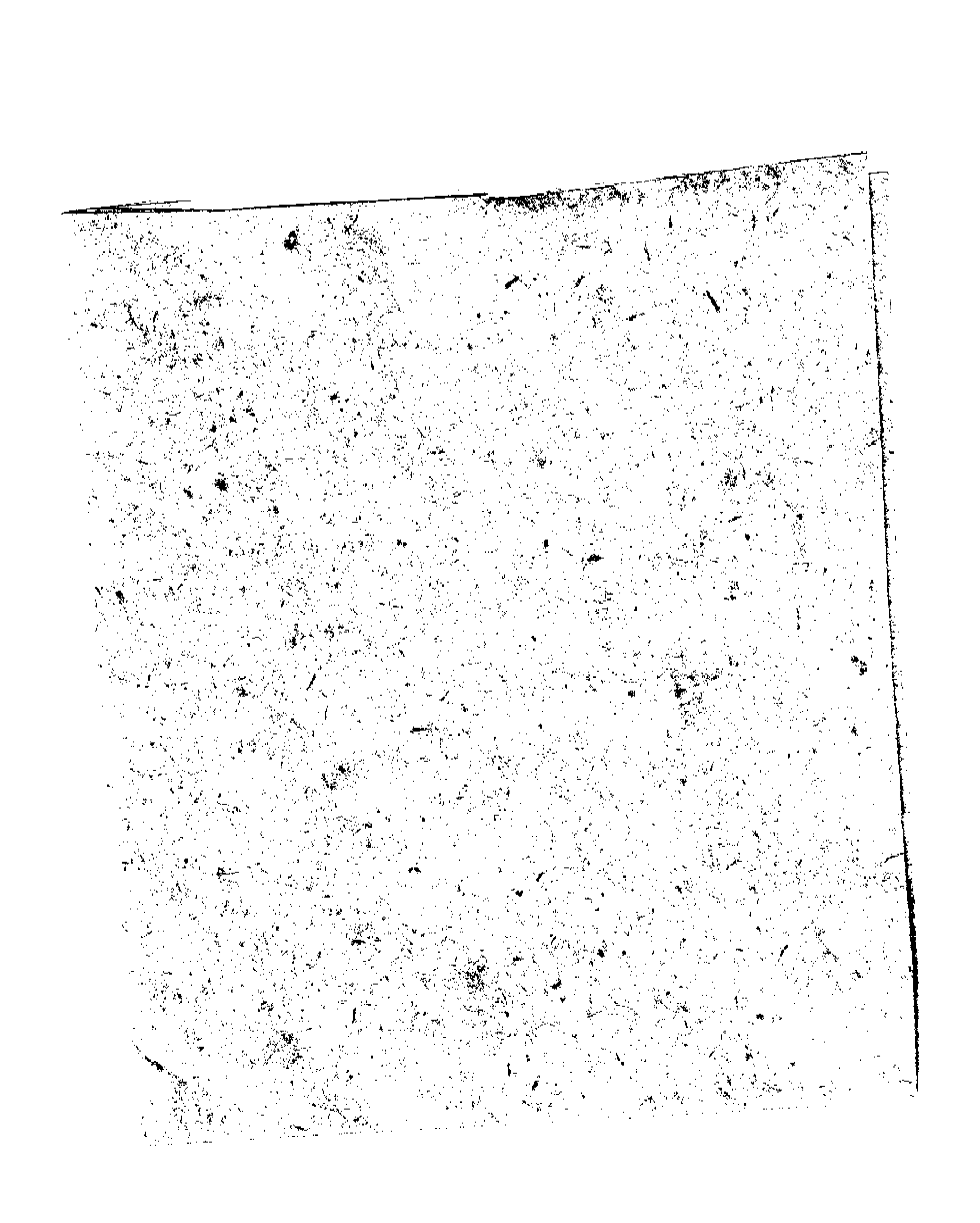
Colloque scientifique
La presqu'île de Hergla à travers l'histoire,28-29 avril 2001

Coordination
Fehri Abdelhamid

Série Rives Méditerranéennes : Livre 2 septembre 2002
Annale Scientifique ; s'intéresse à l'histoire et à la civilisation des îles méditerranéennes.







Ministère de la Culture, de
la Jeunesses & des Loisirs
Comité Culturel Local
Hergla

Centre Cercina
Pour Les Recherches sur les Iles
Méditerranéennes - Sfax - Kerkena

Aperçus de l'Histoire de

Hergla



AVEC LA COORDINATION DE

MR. FEHRI ABDELHAMID

Série Rives Méditerranéennes : Livre2.

الثمن : 7.400 د.ت.